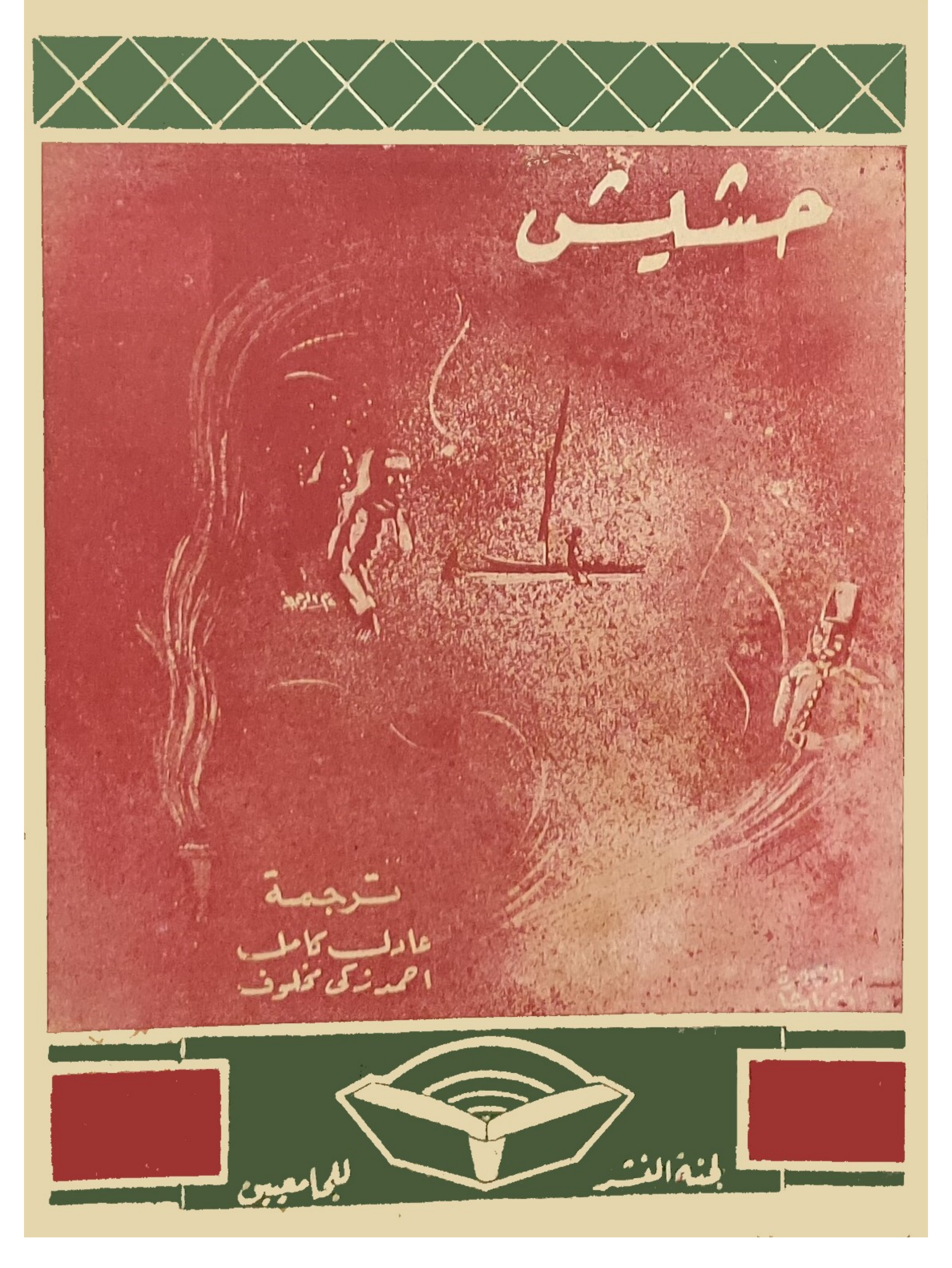
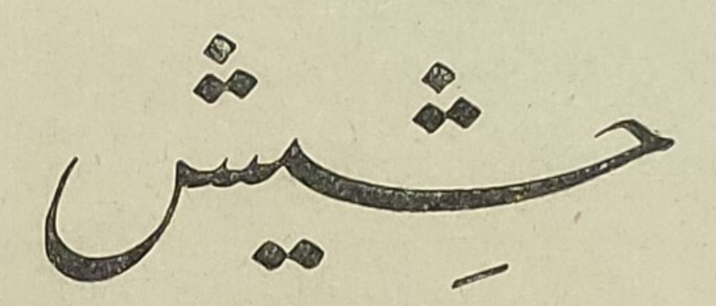

حشيش
ترجمة
عادل كامل
احمد زكي مخلوف
لجنة النشر للجامعيين

لجنة النشر للجامعيين



تأليف

هنري دي مونفريد

ترجمة

عادل كامل　　احمد زكي مخلوف

يطلب من

مكتبة مصر ومطبعتها

٦٣ شارع الفجالة بمصر

طبع بدار الكتاب العربي بمصر

شارع فاروق — تليفون ٥٠٩٣٨

الفصل الأول

صيد القواقع

أنما يعيش المرء بالأحلام ، يتعلق بها ويسعى إليها بصرف النظر عما تكون . وإذا كان الحظ لا يحابى بعض الكهول ، فلعل مرد هذا إلى أنهم لم يعودوا يؤمنون بالأحلام ، تلك الأخيلة الهفافة ورؤى السراب المنبعثة من أعماق النفس ، التى يندفع الفتيان فى أثرها ، وفى صدورهم يقين جازم بأنهم بالغوها ، حتى لتنهار العقبات وتطوى تحت أقدامهم الجريئة ، من قبل أن تتنبه الأذهان لوجودها .

ولو لم يكن هذا حالى لما قمت بأية رحلة من رحلاتى السابقة ، ولما قهرت ما اعترض سبيلى من صعاب كثيرة ، بالرغم من ضآلة عدتى ، وقلة تجربتى . ولولاه لما جاز لى أن أفكر فى القيام بالمخاطرة التى يتضمنها هذا الكتاب ، وخاصة فى مثل الظروف التى أحاطت بى حينئذ .

ولعل من الأفضل أن أجمل بيان هذه الظروف أولا :

كان قد طرأ على تجارة القواقع البحرية انتعاش غير متوقع ، فعرض على صديقى « فلوكيه » أن أتوجه إلى مصوع بسفينتى « فتح الرحمن » حيث أصطادها لحسابه . وألفنا شركة ساهمت فيها بمجهودى ، وبما تبقى لدى من مال ضئيل عقب مغامراتى الكثيرة السابقة . أما هو فقدم معظم رأس المال ، كما أخذ على عاتقه بيع القواقع عن طريق وسيط مشهور فى ميناء الهافر ، كان عميلا له وصديقا .

وحين بلغنا مصوع استأجرت كوخا متداعياً فوق « رأس مدور »

تحت أقدام المنار الكبير . وهناك تركت زوجتى وابنتى جيزيل — وعمرها
ست سنوات — على أن اعود إليهما بين الحين والحين خلال رحلات الصيد
التى كان مقدرا أن تستمر أربعة شهور .

وليس صيد القواقع بالمهمة الشاقة . فكل ما يطلب من الصياد هو أن
يكون قادراً على البقاء منغمساً إلى وسطه فى المياه الدافئة ساعات طويلة ،
ويتقدم ببطء وفى يده صندوق له ناحية من الزجاج تمكنه من رؤية القواقع
تحت الماء ، حتى إذا ما لمح واحدة منها ، غطس بجسمه ليمسك بها . ومع
ذلك فثمة ما يجعل حياة صيادى القواقع مرهقة إلى حد كبير ، إذ أن تلك
القواقع ما تلبث أن تتعفن ، فتنبعث منها رائحة نتنة فواحة ، لا تضارعها
أية رائحة كريهة يتصورها الخيال . وحسبك أن تعرف أنه من السهل تمييز
رائحة العفن المنبعث من سفينة محملة بهذه القواقع ، وأنت على مسيرة ستة
أميال منها إن كانت فى مهب الريح . وإذ لم يكن لسفينتنا سطح يغطى قاعها ،
فقد اضطررنا أن نعيش فوق الأكوام المتعفنة ثلاثة شهور أو أربعة . وفى
وسط هذه البؤرة النتنة ، كنا نأكل ، ونشرب ، وننام ، حتى لقد انتهى
بنا الحال إلى أن صرنا لا نشعر بهذه الرائحة أدنى شعور .

أما بلاؤنا الآخر فذلك الذباب الأسود الذى تنعقد سحائبه فوق أكوام
العفن : غلالة قذرة تنبض بحياة كريهة . وما كانت ريح ، مهما اشتدت ،
بقادرة على تشتيت هذه المظلة الجاثمة . فى الليل فقط كنا ننعم ببعض الراحة ،
حين تختفى جحافله المرعبة . ولطالما نفذت هذه المخلوقات البغيضة إلى آذاننا
وأنوفنا ، وأفواهنا ، فإذا حاولنا طردها ، فما تؤدى هذه المحاولات إلا
إلى فعصها داخل أنوفنا أو أفواهنا لشدة التصاقها بالجلد ، غير عابئة بهش
أو نش . وكان يتساقط فى طعامنا فنأكله بالمئات . وكنا فى أول الأمر
نبصقه ونحن فى حال من القرف شديد ، ولكن سرعان ما أتعبنا كفاح هذا

الطاعون العنيد ، فكنا نبتلعه فى استسلام ، إلى أن اعتدنا عليه أخيراً فلم
نعد نلحظه ، كما لم نعد نشم رائحة العفن الكريه .

ولا يتيسر صيد القواقع إلا فى أوقات الجزر . فإذا ما جاء المد ، وارتفعت
مياه البحر ، عاد الصيادون جميعاً إلى سفنهم ، فهى الملجأ الوحيد فى تلك
المياه النائية ، حيث لا أثر يرى لبقعة من الأرض .

هناك تحت شراع منشور فوق الصوارى ، يتمدد هذا النفر المسكين
لينعموا براحتهم ، منصتين إلى الموسيقى الرتيبة المنبعثة من الدف ، غير مبالين
بالذباب اللزج ، ولا بالحرارة الموسوسة المنبعثة من سطح الماء ، ولا بالعفن
الذى يستنشقون ، ولقد يعدون شرابا من لحاء شجر البن ، فيرشفونه فى
بطء وتلذذ ، بالرغم من ملوحة مذاقه الناجمة من أسن الماء المخزون . إلا أن
الطعم الحريف للجنزبيل الذى يضيفونه إلى هذه القهوة الفذة ، ييسر لهم
التوهم أنها شراب لذيذ .

ولكن نعمتهم لا تدوم طويلا ، إذ لا يلبث الملح العالق بأجسادهم
أن يهيج ثائرة البثور التى تطفح بها جلودهم ، فيعمدون إلى دلكها بالتبغ
الممضوغ . وليس من بين هؤلاء الصيادين من يخلو جسده من هذه البثور
التى تنشأ نتيجة لملامسة نوع هلامى من السمك لا لون له ، وتصعب رؤيته
فى الماء . وغالباً ما تتحول هذه البثور إلى جروح سرطانية ، تصيب سيقان
جميع صيادى القواقع تقريباً ، وتظل تأكل فى لحمهم تدريجاً حتى تصل
إلى العظم .

أية حياة يقضيها هؤلاء التعساء ! ومع ذلك فقد كانوا فى حال من المرح ،
حاسبين أنهم إنما أتوا إلى هنا بمحض رغبتهم ، دون أن يخطر ببالهم أن الفقر
المدقع هو الذى اضطرهم لامتهان هذه الحرفة وإلا قضى عليهم بالموت
جوعا . وما حدثهم أحد بأن حالهم مدعاة للحسرة والرثاء . إنهم يعيشون

فى غمرة جهل قانع سعيد ، غير مدركين ما تحويه الحياة من أنواع الترف التى هى أكثر لزوما للأوروبيين من ضرورات العيش . هكذا يقضون سويعات راحتهم بغير همّ أو أسف .

وما أروعه من درس للرجل المتحضر الذى لا يزال فى مقدوره أن يدرك أية حال صار إليها .

الفصل الثانى

السيد «كى»

قضينا فى شعب تلك البحار الاستوائية شهرين أو يزيد ، دون أن يطرأ على حياتنا اليومية ما يغير من نظامها الرتيب . غير أنه فى أحد الأيام ، بينما كنا نتتبع مواطن القواقع الممتدة من شمال سواكن إلى الشاطىء المقابل لميناء جدة ، إذا بجزيرة صغيرة تلوح لأعيننا فى عرض الأفق ، وهى جزيرة لا اسم لها من تلك الجزر المرجانية التى تبرز فى الصيف ، ويبتلعها البحر فى الشتاء . وبالرغم من أنها جزيرة جرداء ، إلا أن ثمة تاجرين صينيين قد اعتادا الإقامة بها من شهر أبريل إلى شهر سبتمبر من كل عام .

ولقد حدثنى الصيادون أكثر من مرة بخبر هذين الصينيين اللذين يشتغلان بتجارة «بلح البحر» ، فدفعنى الفضول إلى التعريج على الجزيرة ، لاستطلاع حال هذين الأصفرين الضاربين فى بلدان الشعوب السود .

كان الفجر يغمر البقاع بسحر وردى حين اتخذت سمتى صوب كوخهما القائم على حافة البحر . وحين رسوت بزورقى على الشاطىء ، كان السكون يشمل الجزيرة المهجورة وما عليها ، سوى جحافل «أبى جلمبو» التى ما لبثت حين احست بقدومنا أن تراجعت فى صفوف متراصة ، وهى تصدر ضجيجاً كصك الصاجات . كان الكوخ مبنياً بالحصير ، وما أن قربت منه حتى وجدته أصغر كثيراً مما بدا لى حين رأيته عن بعد مرتسما على صفحة السماء . ووقع بصرى أمام الكوخ على مرجل ضخم فوق أتون من الحجر ، وإلى جواره كوم من الحطب وآخر من الأكياس ، فضلا عن صفوف

عدة من أشياء صغيرة رتبت بنظام دقيق فوق رمال الشاطىء ، حيث تركت لتجف .

هذه هى الحيوانات البحرية المسماة « بلح البحر » ، والتى كانت رائحتها العفنة تغشى المكان . ولم يكن بد من أن نصيح لننبه القوم ، فإذا بأكوام غبشاء قد بدأت تتحرك ، وما لبث أن زحف من تحت الأكياس الفارغة عدد من الصوماليين . وقفوا يفركون عيونهم وهم لا يزالون فى سكرة النوم . وفيما نحن نبادلهم التحية ، إذ انحسر باب الكوخ المصنوع من الحصير ، وأطل علينا ، بحذر ، رأس أصفر نحيل لاينبىء عن عمر صاحبه ، راح يحدق فينا هنيهة ، ثم شاعت فيه التجاعيد فأسفرت عن ابتسامة .

وبعدها خرج إلينا الرجل بأكمله ، رأساً وجسداً . كان وجهه فقط هو الصينى فيه ، فلم يكن عليه من الملابس سوى مئزرة تستر العورة ، أما بشرته فقد لوحتها أشعة الشمس فبدا كالزنجى سواداً .

وكما يصلح الموسيقى أوتار آلته قبل البدء فى العزف ، راح صاحبنا يجرب فى خطابى لغات شتى ، حتى وصل إلى النغم الصحيح فأخذ يحدثنى بالفرنسية . ولقد تم هذا قبل أن تصدر منى كلمة واحدة تفصح عن جنسيتى .

وأخيراً دعانى السيد « كى » بأدب جم لدخول مسكنه المتواضع ، وهو يسرف فى مراسيم الاحتفاء بى ، كأنما يدعونى لدخول قصر منيف . وكان رفيقه قد صحا من نومه وشيكاً ، وأحسبه ابناً له أو لعله خادمه . وحيانا بدوره بتلك الابتسامة الصينية التى تجعل من الوجه قناعاً جامداً لا ينم عن عن أى تعبير ، تلك الابتسامة التى هى درع مصفح يقبع الصينى وراءه آمناً مجهات المعتدين . ومن خلال شقين ضيقين ، هما عيناه ، يستطيع أن يرى الناس ولا يرونه .

وأخبرنى السيد « كى » أنه يأتى إلى هذه الجزيرة منذ سنوات عديدة ،

ويغادرها فى شهر سبتمبر من كل عام ، بعد أن يستكمل حمولته من بلح البحر . وكان تحت إمرته أسطول مؤلف من عشرين مركبا تصطاد لحسابه فى شعب البحار المجاورة ، بينما يقضى هو الأيام والأسابيع فى انتظار عودة الصيادين .

ولم يكن فى كوخ السيد « كى » متاع يذكر ، غير أننى لمحت فى أحد الأركان صفيحة نفط فارغة ، حولت إلى شبه هيكل صغير ، ومن فوقها تمثال لبوذا من الأبنوس . وإلى جانب هذا المعبد الأصغر ، وقعت عيناى على مصباح للأفيون يرسل بصيصاً خافتاً من تحت مدخنة زجاجية . نظرت وابتسمت ، فأجابنى السيد « كى » بابتسامة أخرى ، ولكنها فى هذه المرة ابتسامة حية معبرة ، كما لو أن القناع قد انحسر عن وجهه هنيهة خاطفة . أحسب أن فى وسع هذا الصينى أن يتحدث بالابتسامات فقط . قال :

— مادمت أملك هذا فإننى فى وطنى مهما نأيت ، وأستطيع أن أكون سعيداً فى حيثما أقمت . هل تدخن ؟

— أحياناً . إننى لا أشعر بكراهية نحو الأفيون .

وابتسم السيد « كى » عوداً على بدء . وكان معنى هذه الابتسامة :

— تحسب أنك تدخن أيها الأوروبى المتوحش . . . . إن كل ماتفعله هو أنك تدنس شيئاً رائعاً ، جعل خصيصاً لأولئك الذين يتبعون تعاليم بوذا .

ولعل السيد « كى » أن يكون على حق .

وشربنا الشاى بعد ذلك ، وهو خليط من نوع خاص استجلبه من الصين ، له نكهة طيبة جديرة بأن تنبعث فى أرجاء ذلك المحراب الصغير ، الذى يقوم بوذا على حراسته .

وتأملت طويلا فى تلك الهوة السحيقة التى تفصلنا عن هذا الشعب

ومدنيته المتناهية فى القدم . وتمثلت أمامى فى تلك الجزيرة نهايتى سلسلة البشرية العديدة الحلقات . فمن ناحية كان هناك الصيادون من أهالى دنقله — قوما بدائيين تنحصر لذتهم فى تناول جرعة من شراب «الكشير» ولوك مضغة من التبغ . ومن ناحية أخرى هذا الصينى الأريب ، اللين ، يعيش شبه عار فى تلك الجزيرة الرملية الجرداء ، ومع ذلك ففى وسعه دائماً أن يستجلب لنفسه متعاً فنية رائعة ، من محض تأمل الانعكاسات الذهنية التى ترتسم فى عقله .

وفى الحق لقد أحسست كأنى حيوان يهيم فى منتصف الطريق بين هذين ، يستطيع إلى حد ما أن يفهم كلا منهما ، ولكنه لا يستطيع أن يحاكى أيهما .

* * *

أما بلح البحر هذا الذى يصطاده السيد «كى» فيشبه ديدان سمينة ملساء ، يتراوح طولها بين ست وثمانى بوصات ، ذات لون يميل إلى السمرة . وإذا ماضغط عليها برقة ، تضخمت وتصلبت ثم ماتلبث أن يشتد عودها فى شبه انتباج ، ينتهى بأن تقذف قطرة من الماء من إحدى نهايتيها . وبعد ذلك مباشرة تعود تلك الحيوانات العجيبة إلى طرواتها الأولى .

هذه الطريقة الفذة التى تتخذها تلك الأسماك للتعبير عن نفسها ، جعلت العرب يطلقون عليها اسم «ذكر البحر» . ولعل هذا السلوك الشاذ هو الذى دفع الصينيين إلى الاعتقاد بأن لبلح البحر خصائص فريدة من شأنها أن تساعد على اذكاء الغريزة الجنسية . وهم يستهلكون منه كميات كبيرة ليس من قبيل الاختيار فحسب ، بل لضرورته اللازمة ، إذ أن لكل صينى ذى مكانة ، زوجات عديدات ، وهو يرى شرفه رهناً بقدرته على تأدية واجباته نحوهن على وجه مرضى .

وفى بحار الشرق الدافئة أشياء كثيرة جرى الناس على الاعتقاد بأنها مثيرة للحاسة الجنسية ، ولا يزال جو ألف ليلة وليلة يغلفها باطار من السحر . وإن شعوب هذه الأقطار التى تحتقر عاطفة الحب ، لا يثير اهتمامها سوى الاتصال الجنسى وحسب ، فهم يقضون حياتهم متفانين فى إيفائه ما يستحق من تكريم . وفى مثل هذه الظروف ، من السهل على المرء أن يدرك أنه لابد أن يحين الحين ، عاجلا أو آجلا ، الذى تشعر فيه الطبيعة البشرية بأنها فى حاجة إلى عون خارجى . أما نحن معشر الأوروبيين . فاننا حين تنهار قوانا الجنسية ، نعمد إلى إقناع أنفسنا بالعاطفة الروحية ، والحب الافلاطونى ، وما أشبه ذلك .

ولو أننى لم أذق هذه الأطعمة العجيبة حتى أعرف إن كانت جديرة بما حازته من شهرة ، إلا أننى واثق من شىء واحد على الأقل ، ذلك هو أن فى لحم «قرش البحر» خصائص مثيرة للجنس بغير جدال . فإن البحارة الذين تفرض عليهم حياة العزوبة خلال الرحلات الطويلة ، إذا ما أكلوا لحمه طازجاً أو مجففاً ، كان على الصبى المكلف بخدمة السفينة أن يتحمل تبعات ذلك . وما كان للصبى أن يشكو ، فهذا أمر يراه العرب والصوماليون عاديا بحتاً . وهذا فارق آخر بينهم وبيننا معشر الأوروبيين .

وها نحن أولاء نترك السيد «كى» فى جزيرته المنسية ، حيث يعمل لإسعاد الآلاف من مواطنيه . ولعل هذا أن يكون بعض مصادر سروره ، وهو يحلم بجانب مصباحه السرى الصغير ، بينما يحمله دخان المخدر إلى عوالم من الغبطة الشاملة ، محرمة على القوم المتوحشين .

الفصل الثالث

قوانين الغاب

عدت إلى جيبوتى أخيراً بعد أن أتممت وسق سفينتى ، فوجدت صديقى فلوكيه منهمكا فى استخراج كميات عظيمة من القواقع البحرية كانت مدفونة فى رمال الشاطىء ، حيث تركها مضارب سىء الحظ فى انتظار ارتفاع الأسعار . وكان هذا المسكين قد وضع كل ثروته وثروة آخرين معه فى شراء كميات كبيره من هذه القواقع ، آملا أن يرتفع ثمنها ليبيعها ويجنى من ورائها مكاسب عظيمة . ولكن انتظاره طال . واستمرت الأسعار فى الهبوط حتى لم تعد تكفى نفقات الشحن إلى فرنسا . ولما أن عجز الرجل عن سداد ديونه ، قاضاه دائنوه وأودعوه السجن ، وانتهى الرجل من مغامرته التعسة بأن أفرغ فى رأسه بضع رصاصات ، تاركا بضاعته مدفونة فى الشاطىء ، تتراكم عليها الرمال وتمضى السنون ، حتى توارت فى غياهب النسيان .

استمر ركود هذه السلعة عدة سنوات ، فانصرف الناس عن الاتجار بها . ثم تغير الحال ، وبدأ طلبها يزداد يوما بعد يوم ، فارتفعت أسعارها فجأة لقلة المعروض منها . فما كان من صديقى فلوكيه إلا أن عرض على ورثة التاجر التعس شراء هذه القواقع القديمة بأبخس ثمن ، مدعياً أنها لم تعد تصلح إلا لصنع الجير . وفى غير تردد رضى السذج الصغار بما عرض عليهم ، فباعوه إياها بأغنية . . . ومن ثم هرع فلوكيه إلى الرمال يستخرج منها القواقع ، التى وجد فيها ثلاثمائة طن لم يتسرب إليها التلف ، شحنها إلى فرنسا على أنها وشيكة الصيد ، وباعها بثمن مرتفع .

تلك حادثة صغيرة من آلاف الحوادث فى هذا الغاب من الغش والقبح والدناءة ، الذى يطلقون عليه اسم « التجارة » . فوفقاً للأوضاع المصطلح عليها فى ذلك الغاب ، كان تصرف فلوكيه بمنجاة من أى لوم . وأحسب أننى أفعل ما فعل لو كنت مكانه . حقيقة قد يسبب لى ضميرى بعض المضايقة فى أول الأمر ، وخاصة حين أفكر فى الصغار الأربعة يعانون بلاء الفقر والعوز . ولقد أفكر فى أن أوفيهم بعض الجزاء . إن نصف الأرباح تعتبر من نصيبهم حقاً وعدلا . ثم قد يؤدى بى التفكير إلى الاعتقاد بأن الربع يكفيهم ويزيد . وينتهى الامر بأن أحتفظ لنفسى بالمبلغ كاملا كما فعل فلوكيه . ومع ذلك فلسوف يتخلف فى نفسى نقطة من مرارة ، كفيلة أن تسمم ما بقى لى من عمر . ألا طوبى لهؤلاء الذين يستطيعون أن يفعلوا مثل هذا ثم لا يجدون فى قرارة أنفسهم دواعى للتأنيب أو التبكيت ، بل يشعرون بالراحة عندما يضفى عليهم الناس فضائل لا يعرفونها ! هؤلاء وحدهم هم الذين يستطيعون العيش فى دنيا المال . أما الآخرون ، فمن واجبهم أن يحجموا عن الدخول ، وإلا صاروا ضحايا وفرائس لهذا أو ذاك — إما للتيه الجبار الذى لا يرحم ، وإما لضمائرهم المسممة بقطرات من الندم . هؤلاء لا ينبغى لهم سوى أن يلجوا أبواب العلوم والفنون ، أو أن يحصروا جهدهم فى فلاحة الأرض التى هى ضرب من ضروب مقارعة الطبيعة . إلا أن معظمهم — لسوء الحظ — يلقون برغمهم فى خضم القطيع البشرى ، فيسيرون فى ركابه مستسلمين ، أو حاقدين ، أو ثائرين ، غير مدركين ما ينطوون عليه من سعادة عظمى لمحض براءة ضمائرهم من الخطايا ، ولقدرتهم على مطالعة وجه أى إنسان دون ما خجل .

ولكننى فى هذا الوقت لم أكن أحدث نفسى بمثل تلك المشاعر الرفيعة . كان كل شىء فىّ لا يزال يجرى فى ظلمات العقل الباطن ، ولم تكن تصرفاتى

سوى الصدى المنعكس لنوازعى الخفية ، التى لم أحاول حينئذ أن أضعها موضع البحث والتحليل .

لا عجب أن كان يملأنى الإعجاب بمهارة فلوكيه فى ذلك الحين . ولكم سررت بتلك الصفقة العظيمة التى استطاعت براعته أن تجعلها من نصيبه . فإن أسعار القواقع لا تزال مستمرة فى الصعود ، هذا إلى أن شحنتنا التى أرسلناها من مصوع قد وصلت إلى فرنسا بسلام منذ وقت طويل .

وألحفت على فلوكيه أن يصدر أمره ببيعها حالا . ولكنه ابتسم فى وجهى قائلا :

— لا تخش شيئاً ، فإن عميلنا رجل حاذق حريص . كن على ثقة من أنه قد قام بكل ما يستدعيه المقام ، ولسوف تصلنا الأنباء عما قريب .

وعن طريق رسائل البرق اليومية ظللنا على صلة بالسوق .

وعلى حين غرة بدأت الأسعار فى الهبوط . وذهبت إلى فلوكيه أسأله عما إذا كانت بضاعتنا قد بيعت . فأجابنى قائلا :

— بلا ريب . أليست قد وصلت إلى ميناء الهافر منذ أكثر من ثلاثة أسابيع ؟

وبعد يومين آخرين تدهورت الأسعار تدهوراً مخيفاً ، فهبط ثمن الطن من سبعة آلاف فرنك إلى ألف وخمسمائة .

وسكتت الهافر ولا تتكلم . . .

وأخيراً وصل إلينا البريد يحمل الخبر . وراح فلوكيه — مسلوب اللون — يعلن إلى فى صوته المملول أن بضاعتنا بيعت فى اليوم التالى لانهيار السوق . ورأيته صامداً للكارثة لا يهفو له طرف ، شأن الرياضى

العريق الذى يعرف كيف يتلقى الهزيمة . إذ أن بيع بضاعتنا بهذا السعر معناه أن يخسر هو مائتى ألف فرنك ، وأن أخسر أنا كل ما أملك .

لم يكن فى وسعى أن أعترف بإمكان وقوع مثل هذه النكبة . إذ لم أنتظر هذا العميل الحصيف الحذر ثلاثة أسابيع طوال ، بالرغم من تكليفه بالبيع فوراً ؟ ولماذا لم يختر للبيع سوى اليوم التالى لانهيار السوق ؟

وألمعت بشىء من هذا إلى فلوكيه ، ولكنه ذهب يحتج فى شدة ويدافع عن العميل ، الذى برر تصرفه — كما يحدث دائماً — بمبررات منطقية مقنعة ، ذلك أنه باع البضاعة فعلا بمجرد وصولها ، ولكن طبقاً لما أرسل إليه من تعليمات بأن يبيع فى أحسن الظروف ، ظن أنه يحسن صنعاً لو أجل دفع الثمن ثلاثين يوما ، على أن يحدد على أساس سعر السوق فى ذلك الحين ، حاسباً أن الاسعار ستستمر فى الصعود . وكانت حركة السوق تدعم هذا الظن ، والطلب على القواقع يزداد يوما بعد يوم ، فضلا عن ذلك فإنه لم يصل إلى علمه خبر أى مشروع جديد لصيد القواقع مما قد يخشى معه على استقرار السوق أو هبوطه .

أجل . . . ولكن . . .

إن الثلاثمائة طن من القواقع التى استخرجها فلوكيه من بطن الرمال ، وألقى بها فى السوق على أنها بضاعة جديدة ، لا بد أن تكون قد أشاعت الذعر فى قلوب المضاربين — فكان هذا الهبوط المخيف . .

ولم يمض سوى أسبوع واحد حتى ارتفعت الأسعار من جديد ، فربح الرجل الذى اشترى شحنتنا أكثر من مليون من الفرنكات .

قابل فلوكيه كل هذه الأنباء بهدوء محير . أما أنا فقد أعلنت رغبتى فى السفر إلى الهافر ، لرفع دعوى على العميل ، أو تكليف النيابة بالتحقيق

معه . ولكنه بدلا من أن يعاوننى على ما انتويت، مما فيه مصلحتنا المشتركة ، رأيته يبذل كل ما فى وسعه ليثنينى عن عزمى . وفى النهاية صارحنى فى اقتضاب بأنه لن يسمح لى بأن أزج باسمه فى أى إجراء من هذا القبيل . حقاً ! كيف تحدثنى نفسى بأن أهاجم رجلا فى مثل سطوة عميلنا ، وهو رجل له مكانته ونفوذه ، يتمتع باحترام وتقدير مواطنيه ! سيد منح وسام (جوقة الشرف) وانتخب نقيباً للغرفة التجارية ، وكلمته هى القانون فيها . رجل ذو ثراء طائل ، وجاه عريض ، له أفخم قصر فى الهافر كلها ، ولديه مجموعة نفيسة من الصور الرائعة ، والتحف ، وكنوز الصيد ، وسيارة من طراز «هسبانو» . إنه لسيد مهذب شريف لم يدنس ولم يلوث . وإذا لم يقم له مواطنوه تمثالا بعد مماته تذكاراً له ووفاء ، فإن البلدية فى أقل تقدير ستخلد اسمه الكريم على شارع يكون قد زهق من حمل اسم باستير أو جان دارك . . .

ظل شعورى بأنى غششت يراودنى بعض الوقت ، بيد أن صداقتى لفلوكيه وثقتى به سرعان ما بددتا هذا الخاطر المخيف ، فنفضت رأسى منه . إننا دائماً نرتعش من مواجهة الأفكار التى من شأنها أن تثير القلق فى أفئدتنا ، ونتراجع أمام الآلام النفسية كما نتراجع أمام مبضع الجراح الذى يخلصنا من أسقامنا . هكذا نفضل عذاب الشكوك على آلام الحقيقة المبرحة . . .

ومهما يكن الأمر فقد خلفتنى هذه الصفقة سقيما ، مهموما ، مشمئزاً من رجال الأعمال وأساليبهم التى هى أشبه بمباريات عاتية ، يكون فى مقدور من يعرفون قوانينها وحيلها أن يحطموا — دون أن يصيبهم ضر — أولئك الأبرياء الذين يؤمنون بقيم العدالة والشرف ، وبالأمانة والضمير .

كان درساً نافعاً لى ، وحتم أن يكون الأخير ، ويجدر بى من الآن فصاعداً أن أسير أعمالى بمفردى ، بعيداً عن الدروب المطروقة التى ملأتها الأيدى الماهرة فخاخا لا عداد لها .

إننى لا أزال أعتقد أنه لابد أن يكون فى محيط التجارة رجال أمناء . ولكنه لما كان من اليسير على المخادعين والأشرار أن يتقنوا التنكر فى زى الرجال الأمناء ، حتى ليصعب أن لا يقع المرء فى الخطأ ، فإننى فضلت أن أدير ظهرى لهذا العالم ، كما يترك المرء سلة من التفاح مشكوك فى سلامته .

لقد كانت صدمة قاسية ، ولكن الرجال يعيشون بالأحلام .

ومن هنا تبدأ قصة مغامرتى التى وضعت فيها نفسى فى خدمة الحشيش صانع الأحلام . . .

الفصل الرابع

ميناء فاندر

جلست فى إحدى الأمسيات أستمع إلى صديقى « شابو » وهو يقص على فصلا من حياته قضاه كصف ضابط بحرى على ظهر إحدى السفن . وراح يتكلم عن الحشيش وتهريبه إلى مصر ، فقال إنه أشبه ما يكون بمؤسسة حكومية تعمل فى الخفاء ، لها عملاء منبثون فى مختلف الجهات ، سواء بين أصحاب المناصب العليا فى البوليس ، أو فى مصلحة الجمارك ، بل وفى أوساط السلك السياسى أيضاً . وعندئذ ، وكلمح البرق ، لمع فى خاطرى أن ها هنا ميداناً جديداً للعمل يحلو للنفس اقتحامه ، كما كان يقتحم الملاحون القدامى البحار المجهولة فى تلك الأيام الخوالى السعيدة ، التى لم تكن فيها أرضنا قد تم اكتشافها بعد . كان ما يثير خيالى هو أنى سأقوم بتهريب الحشيش تحت أنف هذه العصابة . وفى الحق أنى لم أكن أعرف أقل شىء من هذا العمل المحفوف بالمخاطرة . ومع ذلك فلعل هذا أن يكون ورقة رابحة فى يدى ، إذ أن جهلى كفيل بأن يجنبنى ما يورثه الخوف من إحجام . بل إننى لم أكن أعرف الحشيش ذاته وماذا يكون هو على وجه التحقيق . كان على أن أتعلم كل شىء من البداية ، وهذا معناه المغامرة والاستكشاف . كنت لا أعلم عنه سوى شيئين اثنين فقط : أنه يزرع فى اليونان ، وأنه يباع فى مصر بأبخس الأثمان . حقيقة لم يكن هذا العلم الضئيل مما يصلح أساساً لمشروع ، ولكنه كان كافياً . كانت تلك الحقيقتان البسيطتان تمداننى بكل ما أبغى من شجاعة وإقدام .

وكان المنطق يقتضى أن أبدأ بشراء الحشيش ، أما بقية المهمة فسوف تتحقق فى حينها . إذ لم يكن هناك ثمة جدوى من أن أقلق نفسى بالتفكير فيما ينتظرنى من صعاب ، فهى على البعد تبدو دائماً فى مظهر ضخم مخيف ، حتى إذا ما بلغ المرء سفح الحائط الشامخ ، فهو واجد فيه حتما مواطىء لأقدامه تعينه على التسلق .

وتذكرت تلك السفن اليونانية الصغيرة ، التى طالما رأيتها فى ميناء فاندر تفرغ شحنتها من الخروب . وخمنت أنى قد أستطيع الحصول على ما أريد من معلومات من رجال هذه السفن . فبادرت بحجز مكان على سطح سفينة مقلعة من جيبوتى ، وبعد اثنى عشر يوماً بلغت ذلك الميناء الصغير الجميل ، الواقع فى سفح جبال البرينيه الشرقية ، تحف به تلال سمراء ضاربة إلى الحمرة ، مغطاة بأشجار الصعتر وحصى البان .

كان الوقت ربيعاً ، ولا تزال بقايا من الثلج تتوج هام الجبال التى تهب منها نسمات منعشة نقية ، صافية كأنها البلور ، تنطلق بين أشجار البلوط محملة بذلك العبير الشذى الذى إذا استنشقه المرء مرة فلن ينساه مدى الحياة ، عبير أسبانيا وكورسيكا . ولأننى كنت قادماً من حر عدن اللافح الرهق ، حيث لا تجلب الرياح الموسمية معها سوى رائحة اليود المنبعثة من أعشاب البحر المتعطنة ، فقد رحت أعب فى رئتى من نسيم اللاوند العطر كما لو كنت أختزن هواء العمر .

ولم يكن فى الميناء سوى سفينة عتيقة ، راسية إلى جوار الرصيف الضيق تفرغ حمولتها من أشجار الخروب . وعلى بعد خطوات منها تقع العين على « قهوة التجارة » ، بشرفتها الخالية من الرواد ، وشجيرتى البرتقال الذابلتين المغروستين فى صندوقين قديمين ، وقد بعثرت من حولهما مناضد رخامية مستديرة . وصعدت إلى سطح تلك السفينة الصدئة من فوق لوح

خشبى رقيق ، راح يتأرجح تحت قدمى كأنه مركب على لولب . ووقعت عيناى على رجل يجلس فى مؤخرة السفينة تحت مظلة قذرة ، يأكل طبقاً من (سلطة) السمك الملح والبصل الأخضر ، وأمامه بطيخة هائلة . ذلك هو ربان السفينة . وكان يستعين على ابتلاع أكلته بجرعات كبيرة من النبيذ ، يكرعها من فوهة قربة من الجلد . ولما أن وقع بصره على ، مسح فمه بظهر يده ، وراح يرمقنى شزراً وفى قحة ، ثم وضع غليونه فى فمه . وليشعرنى بما يكنه لى من ترحاب وتحية ، أطلق من فمه بصقة كادت تصيب قدمى . على اننى تقدمت إليه فى حذر ، محاولا التحدث إليه بكل ما أعرف من لغات ، فما كان من هذا الربان ، خليفة الله على بحاره الواسعة ، إلا أن تنازل وأطلق على نيراناً من الرطانة يرسلنى فيها إلى جهنم . وكان فى عجمته شبه بعيد باللغة الإيطالية . وعلى أى حال لم يعد لدى أى شك فى أنه من الجنون أن أحاول استخلاص أية معلومات عن مهمتى الدقيقة من هذا الجلف المتوحش .

وفيما أنا عائد أدراجى فوق اللوح الضيق المتأرجح ، استلفت نظرى رجل فى ثياب رثه كبقية القائمين بأمر هذه السفينة الأنيقة ، إلا أنه يتميز عنهم بأنه يضع حول رقبته « ياقة » دقواة ، وهى إن تكن صفراء معتمة ، إلا أنها ياقة على أى حال . وقد ميز هـذا الشخص نفسه مرة أخرى ، بأن ظل ينتظرنى فى أدب إلى أن انتهيت من اجتياز المعبر الضيق ، مستعيناً فى المحافظة على توازنى بحركات جديرة بالراقص على الحبل . وحين بلغت طرف السلم آخر الأمر ، وجدتنى ألقى إليه تحية آلية . فما كان أشد دهشتى حين سمعته يرد على بالفرنسية . تلك نجدة من السماء ، فهذا هو رجلى الذى أنشده ، ولم يكن سوى المهندس الأول الذى تفخر به هذه السفينة العتيدة .

ولم يكن من المجدى أن نشرع فى الحديث فى هذا المكان ، فتوجهت معه إلى « قهوة التجارة » وظللت أصرخ فى طلب الندل ، وأخيراً أطلت

علينا مئزرة بيضاء يلبسها رجل أصلع شاحب الوجه ، ثم ما لبث أن عاد حاملا قدح البيرة التقليدى .

وكان صديقى الجديد رجلا ضئيلا ، له وجه زيتى وعينان جاحظتان وأنف أفطس ، ولقد ذكرنى فى شدة لا تقاوم بكلب صيد ودود .

وفضلت ألا أعمد معه إلى اللف والدوران ، بل سألته طلبتى بلهجة طبيعية رسلة ، كما لو كنت أسأله عن سعر الخروب ، ولم يبد عليه هو الآخر أى أثر للدهشة ، فأخذ يحدثنى عن الحشيش كما لو كان سلعة من سلع السوق . قال :

— إننى أدعى « سبيرو سميرنيو » وأسرتى تقيم فى إقليم بيروس . وسأحملك الآن خطاباً لزوجتى التى ستقدمك إلى ابن عمى « بابا مانولى » ، وهو قسيس ، فيوصلك إلى بعض أقاربنا فى تريبوليس ، وهم يشتغلون بزراعة الحشيش والاتجار به فى نطاق واسع .

وصمت قليلا ثم قال :

— وفى وسعك أن تثق به ثقة تامة ، فهو رجل شريف له ضمير فى نقاء الذهب . . .

ثم أشار بيده إشارة معبرة ، كما لو أنه يمسك بأصبعيه ميزاناً وهميا يزن به الأحجار الكريمة . ولم يكن هناك من سبيل إلى التلكؤ أو الإحجام . لقد عقدت العزم على أن أضع ثقتى فى هـذا الرجل ، فعلىّ أن أتبع إرشاداته ، وأمضى قدماً إلى المجهول . . .

الفصل الخامس

الرحـــلة إلى بيريه

وفى اليوم التالى ركبت من مارسيليا إحدى السفن المبحرة إلى الشرق الأدنى. ولأن حالتى المالية كانت ضنكا، لم يكن معدى من السفر فى الدرجة الرابعة. وما كان أبشعها سفرة! كان بطن السفينة مكتظاً بسفلة القوم من روس وبلغار وطليان وما أشبه، وكل واحد منهم يمتاز عن أخيه بأنه أقذر منه. هيئات رثة، ولحى كثة، وملابس قد حال لونها والتمعت أطرافها لكثرة ما تراكم عليها من أوساخ، فبدوا كالشحاذين الذين يقفون بأبواب الكنائس الريفية. وإن كنت مصراً على أن تمد عينك لتدرك حال ملابسهم الداخلية، فحسبك أن تعرف أنه كلما اهتز لأحدهم طرف أو تحرك ذراع، تساقطت الحشرات من بين طيات ملابسه، وراحت تسعى إلى فريسة جديدة. كان من العسير أن أتصور نفسى نائما وسط هذه الطغمة وما ينبعث منها من رائحة كريهة، فذهبت أجرب حظى مع رئيس خدم الدرجة الثالثة، فوجدته فى حالة ارتباك شديد، وقد أسقط فى يده لأن اثنتين وعشرين امرأة روسية وعدداً لا يحصى من الأطفال، دفعت إليه فى اللحظة الأخيرة. وسرعان ما قبل طلبى ممتنا، حين عرضت عليه أن يستخدمنى مساعداً له. كانت مهمتى إعداد الموائد والقيام بخدمة الآكلين. وفى مقابل هذا كنت آكل مع رئيس الخدم من طعام ركاب الدرجة الأولى، وأنام على منضدة فى غرفة الطعام، ولى نصيب فى كافة ما يتمتع به الندل من مزايا. ولم ينقض اليوم الثالث حتى كنت قد أتقنت مهمتى الجديدة إتقانا جعلنى أفكر فيما إذا كنت

قد فوت على نفسى فرصة امتهان الحرفة التى خلقت من أجلها.

وكان رئيس الخدم رجلا محنكا جاب بحار الشرق قاصيها ودانيها، وألفيته وديعا طيبا، فضلا عن أن اتصاله بشتى ألوان المسافرين، قد أكسبه نوعا من الفلسفة المرنة الرصينة. وكم كان حديث هذا الخادم الكهل ممتعا حين يدير دفته إلى موضوعه المحبب — موضوع تلك السلعة المتعبة، القذرة، المربكة: سلعة المسافرين.

وعرجنا فى طريقنا على مالطة، تلك المدينة العجيبة التى لا تقع العين فيها إلا على كنائس لا حصر لها، ولا يطرق الأذن سوى صوت النواقيس تتجاوب أصداؤها فى الفضاء. وقد ذكرنى المكان كله بتلك المدائن الغريبة التى يراها المحموم إذا ما جثم على صدره كابوس مرعب.

ومنذ رست السفينة، نشبت معركة نظامية بين أصحاب القوارب فى سبيل الاستحواذ على أكبر نصيب من المسافرين الماكين، الذين اشتبكت من حولهم الأيدى تتقاذفهم هنا وهناك. وإذا ما فاز أحدهم بين صيحات النصر والظفر بمسافر منكوب عمد منافسوه إلى الانتقام، فيأخذون حقيبة المسافر وحاجاته فى قارب آخر ويتجهون به وجهة أخرى. ويدور كل هذا بين صياح وسباب باللغة المالطية، تختلط بها كلمات عربية معبرة، ما سمعها القسس الذين كانوا فى الدرجة الثانية والذين تخرجوا حديثاً من معاهدهم، حتى علت وجوههم حمرة قانية. أما الراهبات الطيبات فقد أسدلن على وجوههن الحجاب وولين الأدبار، تشيعهم نظرة ساخرة من مبشّر عجوز ملتح لم تكن لتزعجه هذه التوافه.

ولما أن كان صباح أحد الأيام، راحت السفينة تمخر عباب خليج إثينا بزرقته العميقة، وقد علت من حوله جبال مخضرة انتثرت فى أرجائها المنازل والقرى، فبدت كزهور الأقحوان وسط المراعى الخضر. وأصبحت بيريه

على مرمى البصر ، تتثاءب وتتمطى وهى راقدة فى أحضان الجبال الذهبية الحمراء .

ها هى ذى اليونان . موطن الآلهة ومنبت الأبطال ! وإن ذكرياتها القديمة الخالدة لتخلع على المشهد روعة تأخذ بالأنفاس .

وسعيت إلى مقدم السفينة ، ووقفت هناك موليا ظهرى إليها وإلى ماعليها ، حتى لا تقع عيناى على بشاعتها العصرية ، وحتى لا تصل إلى أنفى رائحة دخان الفحم الممتد فى أثرها يلاحقها . وأصبحت لا أرى سوى مقدم الباخرة يشق عباب ذلك البساط الحريرى الأزرق ؛ تتناثر من حوله كرات من الزبد الأبيض ، كما كانت تتناثر فى قديم الأزمان حول سفن الشجعان القدامى ، فى عودتهم من ميادين القتال . . .

الفصل السادس

بابا مانولى

ما إن لامست قدماى أرض الأبطال حتى دهمنى جيش من ماسحى الأحذية الصغار ، كانوا بعد ذلك يحاصروننى فى كل مكان ، حتى كدت أعتقد أن الأطفال فى اليونان يولدون وفى أيديهم صندوق البوية . ورحت أبحث عن عربة أستأجرها ، فألفيت عربات المدينة فى حال يرثى لها من القدم والنهالك ، يقودها حوذية أشبه بقطاع الطرق الذين يظهرون فى التمثيليات الغنائية .

وأخيراً استطعت أن أجد حوذيا يستطيع قراءة العنوان الذى أعطانيه المهندس الذى قابلته فى ميناء فاندر ، فأوصلنى إلى منزل السيدة « سبيرو سميرنيو » . فإذا هو بيت أنيق مرتب ، قائم فى إحدى الضواحى المتطرفة .

وما إن شددت حبل الجرس وانفتح الباب ، حتى استقبلنى أهل المنزل بصيحات عالية من الدهشة والفرح ، كما لو كنت صديقاً قديماً لم يروه منذ أجيال .

وكانت مدام سميرينو فى الثلاثين من العمر ، وهى مليحة طويلة القامة ، غضة بضة ، على النقيض من زوجها السيد سبيرو ، فهو ضئيل نحيف متغضن كزيتونة سوداء . وقد دفعت بى السيدة الكريمة إلى مقعد وثير ، وانطلقت تحدثنى باليونانية زهاء نصف ساعة ، فى تودد وحماسة وترحيب أخشى أنها ضاعت فى الهواء ، إذ لم أكن أفهم حرفا واحداً مما تقول .

وأخيراً وصل « بابا مانولى » وكان قد استدعى على عجل ، وهو قسيس

ضخم الجثة جميل الطلعة ، له لحية بديعة التنسيق ، وقد ألقت عليه قلنسوته الشامخة وأرديته الفضفاضة روعة تأسر القلوب . وأخذ يجفف العرق المتصبب من جبهته بمنديل هفهاف من الحرير الأحمر . وكان رأسه بديعاً يوحى إلى الذاكرة برأس ملك أشورى منقوش على عملة قديمة ، أما عيناه الرماديتان الواسعتان ذاتا الأهداب الطويلة ، فقد كان لهما من قوة التعبير ما يجعله فى غير حاجة إلى الكلام . غير أنى ووجهت معه بالصعوبة عينها ؛ فأنا لا أتكلم اليونانية ، وهو لا يعرف غيرها . لذلك لبثنا ننتظر مترجماً لنا .

وراحت مدام سبيرو ترفرف فى أنحاء المكان كالعصفور ، وهى جد فخورة بابن عمها العظيم . ثم تذكرت فجأة واجباتها كمضيفة ، فهرعت خفيفة إلى الخارج ، لتعود بصينية عليها أطباق من المربى المصنوعة من أوراق الورد ، كان علينا أن نأكلها بالملاعق ونلاحقها بالماء ، حتى نستطيع أن نزدردها ونتخلص من حلاوتها التى لا تطاق .

وحضر المترجم آخر الأمر ، فوضع حداً لتلك السلسلة من الإنحناءات والإيماءات التى كنا نتبادلها بطريقة تثير الضحك . وكان المترجم شاباً رشيقاً يتحدث الإيطالية ، فاندفعت أوضح له مقصدى الذى قدمت من أجله . وفهمت من ذلك الحديث أن الحشيش يزرع فى مقاطعة تريبولى فى جزيرة المورة ، وأنه ليس أيسر من أن نذهب ونشترى أى قدر نريد . وعرفت أنها رحلة بالقطار تستغرق ثمانى ساعات ، فرتبنا أمورنا على أن نسافر فى الساعة الخامسة من صباح الغد . وإذ كان لا يزال لدى نصف نهار كامل ، رأيت أن أستغله فى إعداد العدة لنقل بضاعتى حين تصل ، حتى لا يضيع الوقت عبثاً .

وعندما تحدثت فى طريقة عارضة إلى وكيل شركة « الساجيرى ماريتيم »

عن رغبتى فى نقل شحنة من الحشيش ، كاد أن يصعق . غير أنه لما زال أثر الصدمة ، واستطاع الرجل أن يستعيد روعه ، أكب على دفتر أمامه ، ثم اتصل بالتليفون برجال الجمارك ، وأخيراً أبلغنى أننى لا أستطيع شحن هذا النوع من البضاعة إلا بعد استصدار إذن من إدارة الجمارك اليونانية ، يعطى إلى فى نظير تأمين قدره عشرة فرنكات عن كل كيلو جرام . وكان من المفروض أن قيمة هذا التأمين ترد إلى عندما أقدم استمارة الجمرك إلى ميناء التسليم للتأشير عليها بوصول البضاعة . ولكننى حتى إذا حصلت على مثل هذه الشهادة ، فلا بد لى أن أرجع على الحكومة اليونانية ثانية مطالباً باسترداد مبلغ التأمين ، وتلك كما فهمت عملية معقدة تحتاج إلى وقت طويل وسعى متصل ، فضلا عن ذلك فلو أننى دفعت هذا المبلغ ، فلن يتبقى لى من المال ما يكفى ثمناً للبضاعة ذاتها .

وحين وقع نظر بابا مانولى على وجهى المتجهم ، وقرأ آيات الحيرة على محياى ، بدت على شفتيه ابتسامة سمحاء ، وكأنه كان يدرك من بادىء الأمر أن كل محاولاتى لإنجاز المهمة ستبوء بالفشل . فكان أن أسلمته الزمام ، فضحك فى سماحة ورفق ، ووعدنى بتسوية الأمور .

توجهنا إلى الميناء حيث قادنى إلى مقهى على رصيف البضائع ، علمت أنه مقر أولئك النوتية الذين تخصصوا فى نقل البضائع الخطرة . ولقد أدهشنى أن ألحظ أن أردية دليلى الفضفاضة الفخمة ، وهو يقودنى بين عمال الميناء والصعاليك الذين يغشون مثل هذه الأماكن ، لم تثر أى اهتمام بينهم ، بل لقد ازدادت دهشتى حين رأيت معظم أفراد تلك الحثالة يحيونه تحية لا تخلو من احترام ، وإن تك توحى بسابق معرفة .

ودخلنا المقهى فوجدته مكتظا ببحارة عاملين وعاطلين ، يجلسون جماعات يحتسون القهوة ، وقد انصرفوا إلى إحكام وتدبير دسائسهم الصغيرة .

كانت خطط التهريب ووسائل الخداع تحاك جميعا فى هذه البؤرة الغريبة . ولا عجب فاليونانيون يهيمون بالتهريب هيامهم بفن من الفنون ، وهم فى ذلك على رأس شعوب الأرض طراً . وراح قسيسى يصافح الحضور فى غير كلفة تشعر بأنه يرتاد هذا المكان كل يوم ، وحتى صاحب المقهى رأيته يهرع إليه ، ويحييه باحترام ملحوظ .

وقف رفيق بقامته الشامخة وأخذ يجول بعينيه من فوق الرءوس ، ثم ظهر عليه أنه عثر على ضالته ، فلوح إليه بأكمامه الواسعة وذهب يشق طريقه بين الحشد ، متجهاً إلى مائدة بعيدة فى ركن مظلم ، يجلس عليها ثلاثة رجال . وألفيت نفسى أمام رجل نحيف أقتم بأنف مقوس ينسدل من تحته شارب فاحم السواد . وأجزم أنى لم أر فى حياتى مخلوقا بمثل هذه النحافة . مومياء حقيقة ، لا تشبيها . فلا لحم ولا شحم على الإطلاق ، إنه جلد مشدود على عظام بارزة . هذا هو الرجل الذى كنا نبحث عنه ، ويدعونه كارافان (القافلة) ، وكأنما قد فرض عليه اسمه نوع المهنة التى اختارها . وقد قبل أن يتولى أمر بضاعتى حالما تصل إلى « بيريه » ، لينقلها إلى مرسيليا على باخرة يونانية له صلة وثيقة بربانها . وكان كارافان يتحدث بالإيطالية ، فاستطعت أن أتفق معه على كل مايلزم من إعداد بدون حاجة إلى مترجم ، محاولا ما استطعت أن أبدو فى مظهر المهرب العتيد الذى قضى حياته كلها فى تلك المهنة . آه لو أدركوا أن من يحدثهم بهذا الاستهتار لم تقع عيناه على الحشيش قط !

غادرنا المقهى بمجرد أن انتهت مهمتنا ، فقادنى بابا مانولى خلال الأحياء الراقية فى البلدة حتى بلغنا الكاتدرائية ، وهى كنيسته التى يقوم بالخدمة فيها ، وتجلى لى بوضوح أن صديقى علم من أعلام المدينة ، فقد كان طوال الطريق يتلقى التحيات من كل جانب ، حتى السيدات كن يقبلن يده باحترام ،

وقد وضحت فى نظراتهن مشاعر هى أقرب إلى العبادة . ولكنه فى ذلك الحين لم يبد عليه أنه ملق بالا لأحد ، بل وقف زائغ البصر كمن ينتظر أحداً . وما هى إلا هنيهة حتى تقدمت إليه سيدة تحييه بحماسة وحبور ، حتى كدت أعتقد أنها ستهم بعناقه . ولكن ما إن وقع نظره عليها حتى ذبلت ابتسامته الفاتنة ، وركبه برود وجمود أوقفا تدفق السيدة ، فمالبثت أن احمر وجهها خجلا وتعثرت فى ارتباكها . وعلمت فيما بعد أنها تدعى « كاترين ديرتزا » ، وأنها قرينة رئيس القضاة . ولما كانت تتحدث الفرنسية بطلاقة ، فقد طلب إليها بابا مانولى أن تكون مترجما لنا . ولعله لهذا السبب وحده كان ينتظر حضورها ، وهو مادعاه إلى صد توددها على غير العادة ، مما أدهش السيدة وأربكها . والسيدة ديرتزا امرأة فاتنة تبلغ الثلاثين ، تنطق ثيابها الأنيقة بأنها تنتسب إلى الطبقة الراقية .

ومشينا خطوات معدودة انتهت بنا إلى منزلها الفخم الفسيح ، وفتحت لنا الباب خادم حلوة أنيقة ، فتقدمنا بابا مانولى مخترقا غرف المنزل ونحن من ورائه ، حتى وصلنا إلى حجرة الضيوف . ومرة أخرى أقحمت علينا أطباق المربى المصنوعة من الورد والأقحوان والبنفسج . وانتهزت فرصة وجود هذه المترجمة الحسناء ، وطرقت معها ذلك الموضوع الدقيق الذى لم أجسر أن أفاتح فيه حضرة القسيس المهيب — أعنى موضوع العمولة التى يرتضيها نظير مساعدته لى . وقد مسست الموضوع مساً رقيقاً ، غير أنه لم يبد عليه أى ارتباك وهو يتحدث فيه ، كأنما تتضمن وظيفته الدينية هذا النوع من الأعمال . ولقد تنفست الصعداء عند ما أنجزت هذا الجزء من مهمتى فى دقائق قليلة ، عدنا بعدها إلى حديث المدن التقليدى ، وهو النهش فى سير الناس .

كيف كانت تتحدث هذه السيدة ؟ إن لسانها لم يسكت عن الكلام

ثلاثين دقيقة كاملة ، خرجت بعـدها مذهولا غير قادر على جمع أفكارى وترتيبها . ومع ذلك فقد تمكنت بعد عناء من أن أقذف بجملة واحـدة فى تيار حديثها المتدفق ، عالماً أنها هى التى ستتولى الأمر بعد ذلك .

قلت لها :

— لقد التقيت لتوى برجل لم أر أغرب منه فى حياتى ، وكأنه نوع من المومياء ، ولعلها أن تكون مومياء دون كيشوت ذاته .

وسرعان ماتدفق سيل السيدة ديرتزا وراحت تقول :

— آه . اتعنى كارافان ؟ . . ياإلهى أى مصير كتب لهذا الرجل ! . .

ثم اندفعت تحكى قصة كارافان ، وأعترف بأنها قصة غريبة حقا . فقد حدث حين كان لايزال شابا مليحاً ، أن حبس مصادفة فى حريم السلطان ، فانهالت عليه السريات المائة والخمسون يعزنه ويحتضنه حتى امتصصن عصارته قبل الأوان ، ولم يتركنه إلا بعد أن أصبح عديم النفع إلى الأبد .

وعدنا لنتناول العشاء عند مدام سميرنيو ، وكان يسود المكان جو ملىء بالبهجة والحبور . وأشهد أن مضيفتنا أتت العجائب لتعطينى فكرة طيبة عن فن الطهو اليونانى . ودعى معنا شاب يتكلم الفرنسية ، وأفراد كثيرون من الأسرة ، تكريماً لى وتبجيلا . وغنى عن القول أن بابا مانولى ترأس المائدة ، فبدا مرة أخرى مستريحاً كأنه فى بيته وعلى مائدته .

وفيما نحن نتناول العشاء ، وردت برقيـة للقسيس فهبط علينا سكون مخيف وهو يقرؤها ، ولكنه مالبث أن ابتسم ليؤكد لنا أنها لاتحوى أنباء سيئة ، ثم ناولها لابنة عمه ، فما إن فرغت من قراءتها حتى تبادلت وإياه نظرات تنم عن الارتياح ، ثم ردت البرقية إليه فوضعها فى جيبه بهدوء . ولم أعلق — فى ذلك الحين — أية أهمية على هذا الحادث العادى .

واتفقنا بعد العشاء على أن يقضى القسيس ليلته فى المنزل ، مادمنا

سيرحل فى الساعة الخامسـة من صباح اليوم التـالى . وظهرت على مدام سميرنيو معالم الفرح والغبطة لهذا الشرف الذى نالته ، فأخرجت ملاءات نظيفة تفوح منها رائحة اللاوند لتفرش بها سرير ابن عمها القسيس .

والحق أننى وجدت هؤلاء القوم فى منتهى الكرم والود ، وأشعرتنى سجاياهم الحميدة وبساطتهم الطبيعية كما لو كنت أعرفهم منذ سنين طويلة . وأدهشنى ما اكتشفت ، لأنهم كانوا على نقيض سائر اليونانيين الذين التقيت بهم قبل مجيئى إلى هذه البلاد ، فهؤلاء قوم مغلقون بغيضون لاترتاح إليهم النفس . وإنه لمما يؤسف له حقا أن المرء — على وجه التعميم — لايلتقى فى الخارج بغير هذا النوع المنحط من اليونانيين ، مما أسـاء كثيراً إلى سمعة هذا الشعب فى العالم بأسره ، فى حين أنك لو رأيته فى موطنه ، لاتضح لك أنه شعب جاد مكافح فى غاية من الكرم وحسن الضيافة ، كما كان حاله فى السنين الخوالى .

وفى الفجر دبت الحركة فى أرجاء المنزل . وقد نادوا على فذهبت إلى المطبخ حيث وجدت بابا مانولى منصرفا إلى طحن البن ، بينما انحنت ابنة عمه فوق كومة من الحطب المشتعل تنفخ فيها بشدة ، غير عابئة بالشرر المتطاير حول رأسها الجميل ، الذى عقدت حوله منديلا أحمر زادها رواء وحسنا .

الفصل السابع

الرحلة إلى ستينو

فى عتمة الصبح المبكر ، والمدينة لا تزال فى سباتها ، ذهبنا إلى المحطة فبدت كأنها محطة ترام ، وتراءى القطار شيئاً صغيراً ، وكأنه دمية من دمى الأطفال . وراحت القاطرة تنفخ أوداجها لتبدأ رحلتها الشاقة العسيرة . وسرعان ما دق الناقوس داعياً المسافرين المتلكئين إلى التزام مقاعدهم ، ثم تنازل ناظر المحطة ليلقى نظرة أخيرة قبل أن ينفخ فى نفيره . وانطلقت صفارة جاوبها القطار بأنة نكراء ، ثم انطلق فى شوارع بيريه حيث كان المسافرون والناس يتبادلون التحيات ، والنساء تقذف إلى السائق بطرود وصرر ليسلمها لذويهم الذين يترقبونها فى الطريق ، حتى إذا ما بارح القطار أطراف المدينة ، اندفع بسرعة جنونية بلغت خمسة عشر ميلا فى الساعة !

ويا لله ! إننى لن أنسى ما حييت مشرق الشمس فى هذا الصباح ، والقطار يزحف بين بيريه وأثينا مخترقا بساتين الرمان ، وأيكات البرتقال والليمون ، فلا تقع العين إلا على أزهار وحقول وأحراش من الورد . وفى الأفق يلوح « الأكروبول » شامخاً منتصباً فوق التلال ، يلتمع عليه ذهب الشمس المشرقة ، فيثير فى النفس ذكريات سحيقة ضاعفت من روعة المشهد الفاتن . غير ان كل هذا ما يلبث أن يختفى عندما ندخل محطة أثينا التى تغشاها روائح مختلفة من الدخان والسمك والقار .

لبثنا فى محطة أثينا قرابة نصف ساعة ، ثم خرجنا مرة أخرى إلى الفضاء الرحيب ، فمررنا بتلال أرجوانية وزرقاء ، وأحراش من الكرم

والزيتون ، تهب منا نسائم معطرة بشذى الراتينج المنبعث من أشجار الصنوبر . واخذ القطار يصعد جبلا ويهبط واديا ، حتى بلغنا قناة كورينثوس . ولما أن عبرنا القناة بدأنا نتوغل فى بلاد المورة الجبلية ، التى لا تقع العين فيها على قرية أو نبت ، سوى أعشاب عجاف ترعاها قطعان هزيلة من الماعز ، كانت تفر من صوت القطار وتقف على البعد ترقبه فى خوف واستنكار ، بينما شرع الرعاة فى تنوراتهم البديعة يلاحقون القطار المتثاقل ، يسألون الركاب صحف الصباح التى اشتروها من بيريه وأثينا . بهذه الوسيلة كانت تصل يومياً أخبار العالم الخارجى إلى القرى المنعزلة والدساكر المدفونة فى جبال المورة .

وفى أثناء انتظارنا فى المحطات القليلة التى وقفنا بها ، كنا نشرب نوعاً من النبيذ الأبيض الجاف الذى يسمونه « گراتشى رتسينا » ، ويبيعون القدح منه بفلس واحد . وهو شراب منعش ، يستطيع المرء أن يستسيغ مذاقه إذا اعتاد على لسعته الراتنجية . وإذ بلغنا نهاية خليج « نوبيليا » حيث كان يعيش « أغا ممنون » ، تبدى لناظرى واد باسم الصفحة ترعى فيه قطعان الماشية فى تراخ وخمول ، ولا شىء فيه يذكر بأساطير البسالة الغابرة التى رواها التاريخ ، والتى لعلها أن تكون من نسج الخيال .

وصعد بنا القطار عوداً على بدء فى جبال شامخة تزينها زهور الخزامى وأشجار الصنوبر ، وانتهينا إلى هضبة مرتفعة يكسوها الزرع الأخضر من كل نوع ، وتحيط بها جبال صماء تتوج هامها الثلوج ، فى تلك الهضبة الخصبة تقع « ستينو » هدفنا ومقصدنا .

وما إن وقف القطار بالمحطة ، حتى تقدم إلينا رجل أخذ با با مانولى فى أحضانه وقبله من وجنتيه ، ثم انثنى على فقبلنى أيضاً دون ذنب جنيت . هذا هو بتروس كرامانوس الذى سيبيعنا الحشيش . وكانت هيئته توحى

بأنه مثال للسيد الريفى المبجل ، له وجه صريح قد لوحه هواء الجبال ، وجسم خفيف متين البنيان ، وتنم بساطته ورزانته ونظراته الممتلئة ثقة بالنفس على أنه ذلك السيد الذى يمتلك الأرض التى تطؤها قدماه .

وقادنا السيد كرامانوس إلى عربة خفيفة لطيفة ، يجرها مهر مرح قد زين بالشرابات المزركشة والأجراس الرنانة . وكانت الشمس عندئذ تنحدر إلى خدرها خلف الجبال العاتية ، فبرد الهواء الذى كان منعشاً منذ لحظات . ومن فوق هذه الربى التى ترتفع ثلاثة آلاف قدم فوق سطح البحر ، وليت وجهى فى جميع الأرجاء فما وقعت عيناي إلا على حقول من القمح ، وبساتين من الكرز ، حتى إنى سألت نفسى أين يزرع إذن هذا النبات الذى يستخلصون منه الحشيش ، ذلك المخدر الذى يجلب الأحلام . . . .

وسرعان ما اندفعت إلى ذاكرتى قصة خرافية قديمة ، عن ذلك الطفل الذى أرسله ملاك طيب ليبحث عن زهرة سحرية تنبت فى قمة بعيدة المنال . وانطلق الطفل ينشد مطلبه — مثلى — يرشده الإيمان فحسب . وتساءلت مرة أخرى : أأكون قد وصلت فعلا إلى ذلك المكان حيث تنمو زهراتي المسحورة ، وهل أنا على وشك أن أجنى ثمرة إيمانى بالقدر . . . .

الفصل الثامن

المزرعة

بعد مسير ساعة فى هذه العربة الظريفة ، وصلنا إلى تل يكسوه نبات الخلنج ، وفى سفحه بناء هائل ذو أسطح مغطاة بالقرميد ، يشرف على السهول الغنية بالبساتين وحقول الحنطة . وهو بناء قديم جداً حتى كأنه القلعة ، له أبواب مقبية ، وقد تآكل فناؤه المصنوع من البلاط الحجرى الكبير ، لكثرة الأقدام التى وطأته حقباً لا اعداد لها .

وصادف وصولنا موعد عودة الثيران وهى تسير متباطئة بعد أن انتهى عملها فى الحقول ، وقطعان الخراف السود تتجمع على البوابة الخارجية وهى تجرى إلى حظائرها فى غير نظام ، والنعاج وقد تضخمت أضرعها فهى تسرع فى السير لتلبى الشكايات النائحة من الحملان الجائعة . وتسللت إلى خياشيمنا رائحة الدريس الدافىء ، وأنفاس الأبقار مختلطة برطوبة الليل الهابط .

ووجدت نفسى محط أنظار مستطلعة تحدجنى بها خادمات حافيات الأقدام ، يلففن شعورهن فوق رؤوسهن فى شكل تاج ، وفقاً للطريقة الريفية التى تتناسب ووجوههن ذات التقاطيع الحادة . وقد لاحظت أن معظم النساء لهن تلك الأنوف المستقيمة التى تميزت بها الآلهات الإغريقية القديمة ، فأرجعت هذا إلى أن تلك الأجناس قد استطاعت أن تحتفظ فى حنايا الجبال بالكثير من نقاء جوهرها القديم .

وظهرت مدام بتروس فى الشرفة ذات القضبان الحديدية فألقت إلىّ

بعبارات ترحيب ، تتخللها رنات من الضحك لدهشتى وارتباكى الظاهرين نتيجة جهلى باللغـة اليونانية . وأظن أن تلك الدهشة لابد أن تكون قد تضاعفت عند ما ألتفت لأجد عربة قديمة كتلك التى كنت أراها فى حفلات الأعراس فى الريف الفرنسى القصى ، يجرها حصانان ضخمان يليقان بعربات النقل المحملة بالبراميل . ونزلت من هذه العربة العتيقة امرأة صغيرة سمراء فى حوالى العشرين ، لها مظهر العانس . هذه هى ابنة أخ السيد بتروس التى تعيش فى المدينة ، وهى ذات صلات وثيقة بالطبقات الراقية المثقفة ، وأهم من هذا وذاك فإنها تعرف الفرنسية ، ولذلك فقد استدعيت لتكون مترجمة لنا . وما أن نزلت من عربتها حتى تقدمت إلينا معتذرة عن تأخرها ، الذى حال دون حضورها إلى المحطة فى الوقت المناسب لتقلنا بعربتها المسرحية .

وإنى آسف إذ أعترف بأن تلك الفتاة قد بلغت من الدمامة المبلغ الذى لا رجاء منه ولا أمل فى علاجه . وكيف يرجى الأمل فى امرأة لها وجه قرد ، يزيده تشويهاً تلك التقلصات العصبية التى تضيف قبحاً إلى قبحها . غير أن هذا لا يمنعنى من أن أعترف — غير آسف فى هذه المرة — بأنها فتاة حلوة الحديث ، لطيفة المعشر ، وإنى لأشكر لها حضورها الذى انتشلنى من ظلام الجهل الى نور المعرفة . ودخلنا المنزل فوجدته مؤثثاً فى ترف وذوق رفيع ، ما حسبت أنى ملاقيه فى هذه القرية الصغيرة المدفونه فى سفوح الجبال الإغريقية .

وعند ما خرج السيد بتروس على عجل ليرينى عينة من حشيشه ، ساءلت نفسى كيف أستطيع أن أبدو أمام هؤلاء القوم فى مظهر الرجل المحنك فى مثل هذه التجارة ، وما أنا إلا غر جاهل لا يعرف كيف يميز بين أنواع الحشيش ، بل إن عينيه لم تقعا على هذا المخدر قط . وخشيت إن تكشف

لهم جهلى وعدم خبرتى ، أن يبيعونى الأنواع الرديئه التى لم يفلحوا قبل الآن فى التخلص منها . على أنى اهتديت أخيراً إلى طريقة تحجب هذا الجهل عن أعينهم ، ذلك أننى عزمت أن ألوذ بالصمت على قدر المستطاع . وعاد بتروس إلى الحجرة وفى يده قليل من مادة سمراء راح يتشممها ، ثم ناولنى إياها لأشمها ، فأدركت فوراً ان هذه أولى الوسائل التى يتسنى بها معرفة نوع البضاعة . واجترأ بعد ذلك قطعة صغيرة راح يبرمها بين أصابعه حتى أصبحت فى شكل مخروط صغير ، ثم أشعل فيها النار فاحترقت فى لهب ضئيل مصحوب بدخان . وعند ما أطفأه بسرعة انبعث منها دخان أبيض له رائحة ثقيلة . وتناولت بدورى قطعة ففعلت بها مثل ما فعل مع فارق بسيط هو أننى قد لاحظت أنه أطفأ النار بسرعة ، أما أنا فقد تركتها تحترق على مهل . ولما أن خمدت النار ، أعدت إليه قطعته فى سكون وترفع ، محاولا الظهور بمظهر عدم الرضاء . وسرعان ما رأيت أنه فسر سكوتى بما أملته عليه مخاوفه ، فصاح على الفور قائلا :

— لاتخف فلدى نوع احسن ، وإنما ظننت أن هذا النوع قد يروق لك لأنه أرخص كثيراً .

وأجبته فى تعال قائلا :

— إننى لم أقطع هـذه المسافات الطويلة لأشترى صنفاً رخيصاً . أرجو أن تتفضل على بأحسن نوع لديك .

واختفى ليعود بعد لحظات بصنف آخر هش ، ذى لون يميل إلى الخضرة ، وفعل به مافعل بالصنف الأول ، ولـكنه تركه يحترق فى بطء . واستطال اللهب هذه المرة ، وكثف دخانه ، فأدركت أن هـذه حتما دلالة على جودة النوع . الآن عرفت كيف يشرى الحشيش . وأعلنته أننى مكتف بهذا ،

وانتهيت بالاتفاق معه على الكمية التى أريدها ، وهى أربعمائة أقة بسعر الأقة عشرين فرنكا .

وقال بتروس :

— والآن هيا بنا لنحضر البضاعة من المخزن .

وأحضرت إحدى الخادمات شموعاً لنستضىء بها ، وصاحبنا رجلان يحملان هراوات غليظة ، وفتح بتروس باباً مقبباً من ورائه سلم حجرى يؤدى إلى المخزن . وكان المخزن عبارة عن قبو دائرى الشكل منحوت فى الصخر ، قد تكدست فيه أكياس الحشيش الذى نتج من محصول هذه السنة . واختار الخادمان الأكياس التى تصل إلى الوزن المطلوب ، ووضعاها على الأرض ثم انهالا عليها بعصيهما ، حتى يفتتا مافيها ويحيلاه إلى مسحوق .

كنا حتما مجموعة غريبة فى ذلك المكان الوحش ، الذى تتصاعد منه رائحة عطنة رطبة ، فى مقدمتنا القس بابا مانولى بردائه الأسود الفضفاض ، وبجانبه بتروس ممسكا بيده ورقة بيضاء يضع فيها عينة من كل كيس ، وفى يد كل منا شمعة صغيرة لتنير للخادمين اللذين يضربان الأكياس فى شبه جنون ، بينما تتراقص ظلالنا فى صورة غامضة على سقف القبو ، وقد أخذت الوطاويط التى أفزعها دخولنا وأعماها ضوء الشموع تطير على غير هدى ، فتصطدم اجسامها الطرية البشعة بنا ، فتسرى فينا قشعريرة باردة وإحساس راعب غريب . ومزج بتروس الأنواع المختلفة التى جمعها فى الورقة البيضاء ، ثم وضع الخليط فى كيس صغير وأعطانيه ليكون ذلك المزيج هو العينة التى أستطيع أن أقدمها للشارين ، وأخيراً نقل الخدم الأكياس التى اشتريتها من هذا المكان ، حتى لا يتجمد مسحوق الحشيش من جديد من جراء برد الليل القارس .

ودلفت إلى غرفتى تصاحبنى ابنة الأخ القبيحة ، وخادمة رشيقة القد

ذات وجه صبوح ، تحمل إبريقاً من الماء ومنشفة وكل ما ينبغى لراحة ضيف عزيز . وكانت الدماء تغلى فى عروق والرغبة تصيح فى جسدى تريد ان تنفلت من الصمام ، فتمنيت عندئذ لو أن ذهبت هذه الترجمة الدميمة إلى جهنم ، حتى أستطيع أن أنفرد بالخادمة الحسناء وأنا قمين أن أتفاهم معها دون مترجم ، بل دون كلام . ولكن وا أسفاه . . .

وكان الفراش بارداً كالثلج ، فظللت أتقلب فيه على أظفر بالدفء ، بينما راحت حوادث النهار الدابر تدور فى رأسى ، وانطلقت أبخرة الحشيش الذى تشممته فى القبو تلهب خيالى ، وتطلق العنان لتصوراتى ورغباتى . فلم أشعر إلا وأنا أنهض من الفراش وأغادر غرفتى ، ومضيت أدب فى حذر باحثاً عن حجرة الخدم ، التى خمنت أنها قد لا تكون بعيدة عن غرفتى . ورحت أتحسس طريقى فى الظلام الحالك ، فكانت رأسى تصطدم تارة بربطات من البصل معقودة فى خيط ، وتارة يرتطم جسدى بأجسام مترببة ، إلى أن صادفت تحت أقدامى شعاعاً من الضوء ينبثق من بين ألواح خشب أرض الحجرة ، وسمعت أصواتاً تتصاعد من الطابق الأسفل ، فتمددت ووضعت عينى بين تلك الألواح ، فرأيت غرفة قديمة ذات حوائط بيض ، يجول فيها رجلان هما بابا مانولى وبتروس ، وقد خلع الأول ملابسه تأهباً للنوم ، بينما كان بتروس يقرأ من ورقة زرقاء تشبه أوراق البرقيات . وما أن أتم قراءتها حتى ناولها إلى القسيس ، الذى قربها من لهب الشمعة حتى احترقت ، ثم ألقاها على الأرض وداس رمادها بقدمه . وبدرت منهما إشارة نحو غرفتى ، فأيقنت أنهما يتحدثان عنى ، وأن الوريقة التى احترقت لا يبعد أن تكون البرقية التى وردت للقسيس فى مساء اليوم الذى تناولنا فيه عشاءنا عند السيدة سميرنيو .

وفى صباح اليوم التالى استيقظت على صوت كأنه طنين النحل ، صادر

من الغرفة التى نقلت إليها أكياس الحشيش ، حيث كان بضعة من العمال يسعون جيئة وذهاباً ، وسط سحائب الغبار المنعقدة فوق المكان كله . وكان فى وسط الغرفة غربال معدنى يستند إلى أربعة قوائم ، يفرغ عليه الرجال أكياس الحشيش ، ومن تحته ملاءة كبيرة تتلقى الفتات المتساقط . ويقوم بعملية الغربلة نسوة على رؤوسهن مناديل مختلفة الألوان ، حتى إذا فرغن من مهمتهن ، أسلمن المسحوق إلى الرجال ، الذين يضعونه فى حوض كبير من الحديد حيث يقلبونه ويخلطونه خلطاً جيداً . وألفيت مدام بتروس تجلس إلى آلة حياكة ، وهى تشتغل بهمة فى صنع أكياس صغيرة من الكتان ، ثم تناولها لامرأة تختم كل كيس بخاتم على صورة فيل . ومن بعد ذلك تسلم الأكياس إلى امرأة ثالثة تملأها بالمسحوق ، ثم تزنها بدقة ، وتحيك طرفها المفتوح . وإذا ما تم تجهيز عدد من الأكياس ، توضع تحت مكبس كبير ، ثم تضغط حتى تتخذ هيئة كعكة صلبة . وفى هذا الشكل يصدر الحشيش إلى الخارج ، بعد أن يختم كل كيس بخاتم الفيل ، وهو الإشارة التى تميز حشيش السيد بتروس عن حشيش المنتجين الآخرين .

ونزلت إلى هذه الحومة ، فوجدت السيد بتروس يساعد الفتى المفتول العضلات الذى يعمل على المكبس . ودفعنى شعور غريب إلى استطلاع أمر هذا الفتى المديد القامة ، غير أنى لم أستطع أن أتميز وجهه ، إذ كان مسدلا على رأسه قناعاً لا تبين منه إلا العينان فقط . وكنت موقنا أننى رأيت هاتين العينين الجميلتين من قبل ، وظللت فى تساؤلى هذا حتى أدركت فجأة أنهما عينا القسيس . وفى هذه اللحظة كان قد فرغ من عمله فقذف بقناعه وهو يضحك ، ثم أطلق سراح لحيتـه التى كان قد عقدها من وراء رأسه . غريب ذلك القسيس حقا ! إنه يلبس لكل حالة لبوسها ، وينغمس فى الجو الذى يحيط به ، حتى ليستحيل على المرء أن يصدق أنه

من رجال الدين ، وحتى أن أحداً من خدم السيد بتروس لم تكن تأخذه الدهشة عندما يجد بجانبه رجلا من رجال الكهنوت يمد إليه يد العون ويساعده فى إعداد الحشيش .

وبدأ غبار الحشيش وعثيره المتطاير يؤثر فى الرجال والنساء تدريجاً ، فانطلقوا جميعاً يغنون فى صوت واحد ، وجعلوا يتنادرون ويقهقهون كالمجانين لأتفه كلمة أو إشارة ، بل للا شىء على الاطلاق . ونزلت بدورى إلى تلك الحلبة الصاخبة ، واشتركت معهم فى التندر والضحك ، ولم تلبث ابنة الأخ الدميمة ان أدلت بدلوها تبتغى مغازلتى ، غير أن العمل كان لحسن طالعى قد تم فى هذه الأثناء ، وإلا فإننى ما كنت أدرى أية نهاية سينتهى إليها هذا الغزل الغريب .

وإذ شارف العمل نهايته ، أعدت الخادمات اللاتى كن يلبسن ملابس يوم الأحد الجديدة ، مائدة ضخمة تحت ظلال شجرة جوز عتيقة ، وجلس السادة والخدم جميعاً على تلك المائدة ليتناولوا أكلة جبارة ذات صحاف مشتهاة ، فيها حمل مشوى وأعداد لا تحصى من الدجاج والسمك ، مما أعاد إلى ذاكرتى ولائم القرون الوسطى التى تتحدث بها الأساطير ويرويها السمار .

ولمنفعة أولئك الذين يهتمون بالحشيش وزراعته ، سأحاول أن أصف هنا باختصار المراحل التى يمر بها نموه وإعداده ، إلى أن نراه فى حالته النهائية مسحوقا معبأ فى أكياس مختومة . الخطوة الأولى أن تنقى الحقول التى تنمو فيها أشجار القنب من الحشائش الغريبة ، وتقلع كذلك الأشجار الذكور ، وبذلك لا تتلقح الأشجار الإناث المتبقاة ، مما يساعد على امتلاء أوراقها بالمادة الراتينجية التى يزداد إفرازها باجتثاث رؤوس الأشجار كلما تنمو . وعندما تصفر الأوراق الأولى ، أو بتعبير أصح

الأوراق السفلى ، تقطع الأشجار بعناية على بعد أربع بوصات من الأرض ، حتى لا تتسخ الأوراق من التراب أو الرمل ، ويجفف المحصول بعد ذلك فى الظل ثم يودع فى المخازن . هذا ويخزن بعض الزراع الأوراق فقط ، إذ أن الجزوع لا قيمة لها ولا فائدة . وفى أيام الشتاء الشديدة البرد تهش تلك المادة الشمعيـة التى أفرزها النبات ، فيعمـد الزراع إلى تفتيت الأوراق الجافة بحكها بين قطعتين من القماش فتستحيل إلى غبار قوامه الأوراق المكسرة والراتينج ، وهو المادة الفعالة فى الحشيش ، التى تكسب المسحوق تلك الخاصية الصمغية التى تجعله يتحول إلى شكل كعكة عند كبسه ، والتى تحيله عجينة لينة عند تسخينه .

وكل الحقول فى هذه المنطقة تزرع الحشيش وتصدره إلى الخارج ، فهو مصدر ثروتها الأساسى ، وكل مقاطعة لها إشارتها المسجلة التى تتميز بها فى السوق ، كما أن هناك بالطبع أصنافاً حسنة وأخرى رديئة كما هو الحال فى الأنبذة .

وضعت بضاعتى فى ثمانية صناديق ، سمرت وصارت معـدة للنقل . هذه الصناديق هى الآن كل ثروتى . وبعد أكلة الظهيرة العاتية لم يشعر أحد منا بالجوع ، فتناولنا عشاء خفيفاً انسحبت بعده إلى غرفتى معتزماً أن أنام نومة عميقة هنيئة . غير أنى ما كدت أدلف إلى غرفتى حتى أحسست بظمأ شديد . وإذ لم أجـد فى غرفتى ماء ، نزلت إلى غرفة الطعام ، فرأيت بتروس من خـلال الباب الزجاجى جالساً إلى مكتبه ، وبابا مانولى واقفاً إلى جواره . وأظن أنهما كانا يحرران برقية إذ لمحت عدة استمارات تلغرافية مبعثرة فوق المكتب ، ودخلت عليهما فجأة وبدون تحذير ، فما أن رآنى بتروس حتى أسرع بحركة عصبية فوضع المنشفة فوق ما كان يكتب . إذن فقد كان يكتب شيئاً يود أن يخفيه عنى ، ولذلك تظاهرت بأنى لم ألحظ

شيئاً ، وأخذت دورق الماء وانصرفت ، بعد أن ألقيت إليهما تحية المساء .

ما معنى كل هذا ؟ .

وردت برقية إلى بابا مانولى فى بيريه منذ يومين .

اطلع بتروس على هذه البرقية .

وهما يرسلان الليلة رداً على هذه البرقية (إذ أن حركة بتروس غير الشعورية أوضحت لى أن ما كانا يكتبانه شىء يتعلق بى) .

وظللت متيقظاً حتى منتصف الليل أتساءل عن معنى كل هذا ، وقد ملأتنى الريبة وعصفت بى الشكوك ، حتى انفلتت أعنة التفكير من زمامى .

واستيقظت فى الفجر وأهل البيت نائمين ، فيما عدا خادمتين كانتا توقدان ناراً فى المطبخ ، ومشيت إلى غرفة الطعام ثم توجهت مباشرة إلى المكتب الذى كان يجلس عليه بتروس ، فوجدت أدراجه غير مغلقة . ورحت أقلب بين الأوراق الكثيرة حتى عثرت على المنشفة النظيفة التى غطى بها البرقيـة حين فاجأته وهو يكتبها ، وكانت كل الحروف معكوسة على المنشفة ، فضلا عن أنها كانت باللغـة اليونانية فلم أستطع أن أفهم منها شيئاً . لذلك فقد طويت الورقة ووضعتها فى جيبى . لقد وجدت أنه يصعب على جداً أن أعتقـد أن هؤلاء الأشخاص الطيبين ، ذوى السجايا الحسـنة والشمائل الكريمة يخدعوننى ويغررون بى . ولم أستطع أن أشعر براحة فى سلوكى هذا المسلك الشاذ ، على أنه كان على أن آخذ حذرى فأنا الآن فى قبضتهم ولست أعرف عنهم شيئاً البتة . فليس من الشين إذن أن أتخذ حيالهم موقفاً دفاعياً ، إذ أن النصر والهزيمة تتوقفان عادة على شىء تافه كالقشـة . وما دام المرء فى موقف مثل موقفى ، فإنه مضطر أن يعمل فى الخفاء ، تقوده الغرائز والعواطف ، وترشده الدوافع الذاتية . عليه أن يكون يقظاً مفتوح العينين ، وألا يهزأ بأى شىء قد يكون ذا نفع له .

وفى الساعة السابعة ذهبنا إلى المحطة ، وكنا فى هذه المرة نركب عربة ابنة الأخ القبيحة . وقبلتنى الأسرة كلها قبلة الوداع ، بما فى ذلك ابنة الأخ التى صاحب قبلتها دم تصاعد إلى وجهها ذى البشرة الزيتونية . وقد وعدتهم أن أزورهم مرة أخرى مع زوجى وأطفالى ، وإن كنت فى الحقيقة تنفست الصعداء عند ما تحرك القطار وانتهت هذه المجاملات المربكة .

وانفردت مرة أخرى ببابامانولى ، ولكنى إذ كنت أعرف عندئذ ما يقرب من ثلاثين كلمة يونانية ، فقد ساعدنا هذا المحصول على تبادل حديث متقطع تعينه إشارات اليد وهزات الرأس والابتسامات المعقودة على الفم . وكانت العربة التى تحمل بضاعتى قد ألحقت بمؤخر قطارنا الصغير ، وفى كل مرة نقف فيها فى إحدى المحطات ، ينزل بابا مانولى ليتأكد من أن العربة لم تنفصل عن القطار . وفى محطة أثينا أبلغونا أنه من غير المسموح به أن ترفق عربة بضاعة بقطار ركاب ، غير أن القسيس اللبق توجه تواً إلى مكتب ناظر المحطة ، وبعد مناقشات طويلة وتأخير ما يقرب من عشرين دقيقة ، سمح لنا أن نواصل سيرنا . وعند ما وصلنا إلى بيريه ، رأينا كارافان ينتظرنا على رصيف المحطة ، فإذا به أنحف من أى وقت مضى وأشد هزالا ، فأعطيته قسيمة البضاعة ، فانطلق بها بين المناكب المتزاحمة ، بينما ذهبنا إلى فناء المحطة ننتظر ما قد يحدث . وجاءت عربتان ووقفتا بجانب باب القطار ، وعندئذ أخذ الحمالون ينقلون البضاعة إلى العربتين ، ثم جروهما إلى رصيف الميناء الذى لا يبعد أكثر من خمسين خطوة . وبسرعة غريبة تنطق بالمران الطويل أخذ الحمالون ينقلون الصناديق من العربتين إلى رصيف الميناء ، ثم إلى زورق انطلق يشق الماء إلى الباخرة .

تمت كل هذه العمليات بينما كان ضابط الجمرك يتمشى على طول الرصيف ،

وقد أولانا ظهره متحدثاً إلى بعض رجال كنت لمحتهم فى المقهى أثناء محادثتنا مع كارافان . وعند ما عاد الضابط من جولته ، كان كل شىء قد انتهى . ولم يخالطنى أدنى شك فى أن ضباط الجمارك هؤلاء يعرفون من أين تؤكل الكتف .

وفى الساعة التاسعة من هذا المساء ، وضعت فى جيبى قسيمة شحن بضاعتى على السفينة « آريس » المبحرة إلى مارسيليا ، و « بوليسة » التأمين على البضاعة ، وقد أشر فى قسيمة الشحن بأن البضاعة المصدرة هى « أزهار القنب » . وكان فى هذا التعريف ما يكفى ، فإن رجال الجمارك فى مرسيليا يعرفون جيداً أن هذا يعنى الحشيش . وإذ كان شحن المخدرات مباحاً فى مارسيليا وجيبوتى ، فلم يكن ثمة داع لتغيير الإسم ، إلا أن هذا التقليد اتبع فى نظام دقيق حتى لا يلفت أنظار المتطفلين وغيرهم من الأذناب ، الذين يحبون أن يدلوا بدلوهم فى تلك التجارة المربحة .

وقطعت تذكرة لسفرى على الباخرة التى جاءت بى ، وأعطانى رئيس الندل هذه المرة أيضاً وظيفتى المريحة . وصعد بابا مانولى على سطح الباخرة وقبل أن يودعنى أعطانى عنوان صديق له فى بور سعيد ، وألح على بضرورة زيارته حتى أرتب معه الطريقة التى أستطيع أن أهرب بها الحشيش إلى مصر . وراودنى الشك فى أن لدى القسيس من الدواعى ما يجعله يلح على إلحاحاً شديداً فى هذا الشأن . وفى تلك اللحظة هممت بأن أسأله صراحة عن قصة ورقة النشاف وأن أطلب منه تفسيراً لها . ولكن هاتفاً صاح بى أن لا أفعل . وبالرغم من ذلك فقد ظللت أعتقد فى نزاهة هذا الرجل وسلامة طويته . شعرت أن هناك سراً لا يجسر أن يطلعنى عليه ، ولكن مهما كان الأمر فإن قوماً كهؤلاء ، قابلونى بمثل ذلك الترحاب والكرم ، لا يمكن أن يغدروا بى بعد ذلك .

وبعد يومين غادرت السفينة الميناء . ولما بدأ المسافرون يتعرفون بعضهم إلى بعض ، عقدت صداقة سريعة مع يونانى يتكلم الفرنسية ، وانتهزت هذه الفرصة فنسخت الكلمات التى كانت مكتوبة على ورقة النشاف وسألته أن يترجمها لى . وعندما فعل لم يساعدنى هذا على كشف السر كما توقعت ، كل ما فى الأمر أننى علمت أن الرسالة كانت معنونة إلى القاهرة . وهذه هى ترجمة كلمات البرقية :

القاهرة ..

الصفقة أبرمت ... كارافان ... التصدير مارسيليا .. بالبحر ...

لا نعلم ...

الفصل التاسع

مصر ... أول مرة

ما أن وطئت قدماى أرض مارسيليا ، حتى أسرعت بإنهاء ما يلزم لنقل البضاعة إلى سفينة أخرى من سفن شركة المساجيرى . ولاقيت فى ذلك بعض المصاعب ، إذ لم يسبق للشركة أن صدّرت من قبل بضاعة كبضاعتى بتلك الكميات الكبيرة ، وبهذا الأسلوب المكشوف . واحتار موظفو الشركة فى مكاتبهم ولم يجدوا مفراً من أن يعرضوا الأمر على مديرهم العام ، الذى استقبلنى عندما ذهبت إليه بسحنة من أصيبت كرامته فى الصميم ، وعاملنى بأسلوب ينطوى على كثير من البرود والتشكك . إلا أنه اضطر فى النهاية أن يعترف بأننى لم آت مخالفة جمركية ، وان كان قد صمم على أن يظل إسم البضاعة « أزهار القنب » ، حتى لا تنطق كلمة الحشيش الرهيبة داخل مكاتب الشركة المحترمة . وأخبرنى أنه بهذا العمل يقدم لى خدمة جليلة ، إذ بهذه الطريقة لن يعرف البحارة أن الصناديق ملأى بحشيش يدر مكاسب يسيل لها اللعاب ، وهم لن يترددوا فى سرقتها إذا ما اكتشفوا أمرها ، فهم ليسوا من ذوى الفضائل الجمة . وزيادة فى الضمان ، حصلت على إذن خاص بوضع الصناديق الثمانية فى قسم المنقولات الثمينة ، الذى يستحوذ على مفتاحه قومندان السفينة . وعندما انتهت تلك الإجراءات المعقدة ، حجزت لنفسى مكانا فى السفينة عينها ، التى أقلعت متجهة صوب الجنوب .

ووقفت الباخرة فى بورسعيد يوماً كاملا لتتزود بما يلزمها من وقود . ولم أحب ان يضيع الوقت سدى ، فانتهزت الفرصة ونزلت

إلى المدينة أبحث عن الرجل الذى أوصانى بابا ما نولى بلقائه . ورأيت على الرصيف خارج مكتب الجمرك ، جندياً سودانياً مفتول العضل ، يفتش النازلين تفتيشاً بالغ الدقة ، حتى لقد شمل كعوب أحذيتنا . وذهبت مباشرة أسأل عن العنوان الذى أعطانيه القسيس ، فوجدته مطعماً له واجهة من الزجاج ، فى داخلها أطباق بها كعك يعلوه الغبار ، وفطائر غارقة فى الدهن ، وجلس خلف الواجهة رجل أوروبى يغالب النعاس ، وقد وضع مئزراً على ملابسه . ولما أن تقدمت إليه وأريته العنوان ، انتفض مفيقاً من نومه ، وحدق فىّ مدهوشاً كما لو كنت شبحاً من العالم الآخر ، ثم ما لبث أن هرول إلى داخل الحانوت ، فدعا رجلا مصرياً كان نائماً هو الآخر ، وكلفه بأن يبحث عمن يدعى الكسندروس ، وهو رجلى المبتغى . وفى فترة الانتظار قدّم إلى فنجاناً من القهوة ، غير أننى آثرت الصمت فلم أنطق بحرف واحد . وبعد انقضاء ربع ساعة ، حضر رجلنا وهو يلهث ، وراح يعتذر عن عدم استطاعته لقائى على سطح السفينة .

— أكنت تعرف أننى أركب هذه السفينة ؟

— ليس على وجه التحديد . ولكن ابن عمى كتب إلىّ أنك آت لترانى ، فخمنت أنك لا بد أن تكون فى هذه السفينة . . . أظن أنك . . . أحضرت شيئاً ؟

— أبداً . لا شىء على الإطلاق . ليس الساعة على الأقل

— حسناً . . حسناً . . لقد ظننت . . . هل لك أن تتمشى معى قليلا ؟

وكانت العربة الكسيحة ، بحصانها المتوانى وسائقها المطربش الكسول خير مكان لحديث مهموس . ومررنا فى شارع يخترق حى العرب ، وهو منطقة لا يطرقها السياح الأجانب ، فنفذت إلى خياشيمى بينما نعبر شارعاً ضيقاً يحتشد بالأهالى الوطنيين ، رائحة مألوفة شممتها أول مرة عند ما كان

بتروس يحرق عينة الحشيش . ولقد عرفت بعد ذلك أن الحشيش يدخن فى كل المقاهى البلدية ، على مرأى من رجال البوليس الوطنيين الذين يشتركون فى تدخينه . وما على صاحب المقهى إذا أراد أن ينجو من عنت الشرطة ، إلا أن يدفع لهم إتاوة موقوتة يتفق عليها ، ثم يرشدهم بين آونة وأخرى إلى أحد التجار الذين يمدونه بذلك المخدر .

ونزلنا أمام مقهى شديد الزحام ، يجلس رواده فى حلقات صغيرة ، حيث يتناقشون فى شئون أعمالهم ان كان لهم ثمة عمل ، أو يكتفون بمراقبة الدنيا التى تدور حولهم فى انقباض ساكت . ورأيت على بعض الموائد فناجين من القهوة التركية ، وإلى جوار بعضها الآخر نرجيلات يشرف النَّدل المصرى على إشعالها ورعايتها ، بل ويشترك فى تدخينها . ولا يخلو مقهى من تلك المقاهى المنتشرة فى أرض مصر ، من يونانيين يعملون كوسطاء فى البورصة ، أو سماسرة فى شتى الصفقات الخفية المشبوهة . وأنت إن أردت لقاء يونانى فى مصر ، فما عليك إلا أن تبحث عنه فى مقهى من هذه المقاهى التى يعيشون فيها من الظهيرة إلى منتصف الليل .

وعندما جلسنا إلى إحدى الموائد ، راح رفيقى يلقى حوله بالتحيات المألوفة ، ثم صفق فى طلب الندل ، وسأله أن يحضر له نارجيله ، ما لبث أن استغرق فى تدخينها ، وهو صامت ساهم ، يدير أصابعه بحبات مسبحة من الكهرمان .

لم أشتم فى المقهى رائحة الحشيش بطبيعة الحال ، وأحسب لو أن أحداً أوتى من الجرأة ما يمكنه من لفظ تلك الكلمة الرهيبة فى هذا المكان ، لبهت الحضور ولتحولوا إلى تماثيل من الملح . ومع ذلك فان كل واحد منهم إنما يكسب عيشه من وراء الحشيش ، إما بيعاً أو تهريباً ، على نطاق واسع أو ضيق ، وهم يبذلون من الجهد الكثير فى وضع مشروعات

معقدة ، ليحصلوا منها على نتائج تافهة . إنهم على التعميم قوم بلغوا من الكسل والدناءة والجبن ، ما يجعلهم يقنعون بعمل هين ، يتيح لهم حياة مدقعة مضطربة . حسبهم كسب ضئيل من وراء صفقة ملتوية ، ييسر لهم عيشاً كسولا وحياة رضية لبضعة أسابيع على شرفة مقهاهم الحبيب ، غير عابئين بما يأتى به الغد .

وبدا لى الكسندروس واحداً من هذه الطغمة لا يفترق عنها فى شىء . ومع ذلك فما دام بابا مانولى وأقاربه الطيبون قد أشاروا على أن أتصل به ، فلعل فيه ما يميزه عن أولئك الآخرين الذين نبذهم المجتمع ، فراحوا يستعرضون كسلهم وعدم جدواهم على قارعة الطريق . وفى الحق لقد بعث ذلك المخلوق البسمة إلى شفتى ، عندما شرع يتحدث عن هؤلاء الناس باحتقار وزراية ، ناسياً أنه يشبههم كما تشبه القمحة أختها ، بل لقد بلغ فى تماديه أن حذرنى مغبة الثقة بهم ، لأنهم جميعاً عيون وأرصاد للبوليس ، وأوصانى بألا أتصل بأى منهم ، حيث سيقوم هو بتقديمى إلى الشارين الأصلاء . وانتهيت معه بالاتفاق على اللقاء فى مدينة السويس ، وحددت لذلك اليوم الثامن عشر من شهر أغسطس ، محاولا الظهور بمظهر الرجل الواثق من نفسه . عجباً ! كيف أجسر على أن أحدد يوماً معيناً للقاء ، مع أن أمامى فى الأوبة رحلة عاتية فى البحر الأحمر طولها ألفان ومائتان وستون ميلا ، فى مواجهة رياح شماليه غربية ، وفى مركب صغير لا تزيد حمولته على اثنى عشر طناً !

وواصلت السفينة رحلتها فى القنال بين ضفتين من الرمال . . .

ولفت نظرى على مائدة الطعام رجل يجلس دائماً على حافتها ، أشعث الثياب ، صموت ، عابس ، كأنه مسافر حديث لا يعرف فى رحلته رفيقاً . وأحسب أنه ركب السفينة من بورسعيد ، لأن عينى لم تقعا عليه من قبل .

ومع ذلك فلم تكن عليه هيئة المسافر . وكانت له حقيبة لا يتركها ، بل يضعها بجانبه دائماً ، واكتشفت أخيراً أنه عامل الكهرباء الذى يعنى بإضاءة السفينة . واستمالنى الرجل بسمته الغريب ، ووجهه الداكن . كان إيطالياً هرماً شديد الشبه بفكتور عما نويل ، قطع القنال مئات المرات ذهاباً وجيئة خلال الخمسة عشر عاما الماضية . وإذ لم يكن آنس لدى وأبعث إلى التسلية من التحدث إلى الطاعنين فى السن ، فضلا عن ثقتى بأنى أستطيع أن أفيد كثيراً من الاستماع إلى هذا الرجل المحنك ، فقد سعيت إليه ذات ليلة وقدمت له سيجاراً ، ثم دعوته أن يتفضل بأن يشرب معى كأساً من الخمر . ولما أن صفا الجو ، وشاعت فيه الألفة والمودة ، نفثت دخان سيجارى فى السقف وقلت له بلهجة حاولت أن تكون عارضة :

— كم يبلغ يا ترى ثمن الحشيش فى هذه الأيام ؟

وحدّجنى بعنف ، ثم راح ينقل بصره فى أنحاء المكان ، ولم يلبث أن أبرقت عيناه حين وثق من أننى لست عيناً من عيون البوليس ، ونظر إلى طويلا ثم قال :

— هذا يتوقف على الصنف . . .

وأخيراً انحلت عقدة لسانه بعد كؤوس متتابعة ، فبدأ محاضرة طويلة فى هذا الموضوع ، خرجت منها بأن كل من يتصلون بالسفن التى تعبر القنال ، سواء أكانوا بحارة أو كهربائيين أو وقادين ، يهربون الحشيش بطريقة أولية بسيطة ، تتكرر دائما بدون تغيير جوهرى ، وذلك بأن يقذف بعضهم بكيس مدهون بالزيت من إحدى البواخر العابرة فى مكان متفق عليه من قبل ، فيلتقطه آخر يكون فى أغلب الأحيان رباناً لإحدى سفن التطهير ، ثم يسلمه بدوره لأحد اليونانيين المتسكعين فى المقاهى التى رأيتها . ولست أعنى أن هذه هى الطريقة الوحيدة لتهريب الحشيش ، بل هى الطريقة الأكثر اتباعاً

على ضفتى القنال. فليس من شك فى أن هناك الكثير من التدبيرات وآلاف الخدع التى يجيدها المهربون فى بلاد الأرض المختلفة، حيث يجرى التهريب على نطاق واسع يشترك فيه خفر السواحل وحرس المنائر. وقد أبلغنى هذا الفكتور عمانويل على سبيل المثال لما يلجأ إليه رجال التهريب من حيل، أن «الشمندورات» الكبيرة التى تحدد الطرق البحرية، تغرى كثيراً من ربابنة السفن والبحارة باتخاذها مكاناً مؤقتاً يوضع فيه الحشيش المهرب، فتقف البواخر اليونانية الآتية من بيريه عند واحدة مختارة من هذه «الشمندورات»، وتنفذ إليها فى ظلام الليل بحاراً جريئاً يظل يعالج بابها البيضاوى حتى ينفتح، ثم يضع فى هذا المخزن الطافى ما يريد من أكياس الحشيش، التى قد يصل وزنها إلى مائتين وخمسين أقة أو يزيد. وما أن تتخلص السفينة من حمولتها الغالية، حتى تدخل الميناء بضمير نقى. ويكون الصباح التالى حتما هو اليوم الذى تعاد فيه بعض الشمندورات إلى الترسانة لفحصها وترميمها. وليس من داع إلى التأكيد بأن تلك الشمندورة ستكون إحداها، فتؤخذ وتقطر إلى داخل الميناء فى تيه وخيلاء، تدفعها الأمواج فترقص وتهتز، وتهتز معها سفن رجال الجمارك. وما أن تدخل الترسانة لإصلاحها، حتى تأتى أيد خفيفة حذرة فتستخلص منها الحمولة الثمينة. وبدأت أفهم حينئذ السبب فى تكرار دهان الشمندورات التى تقرب من بورسعيد.

خرجت من هذه القصص الطويلة التى رواها الإيطالى العجوز، بأن كل الحشيش الذى يهرب إلى مصر إنما يأتى إليها من الشمال، لذلك فإننى فعلت عين الصواب عند ما وضعت مشروعى على أساس أن آتى بالحشيش من الجنوب، فإن هذا لم يحدث قط قبل الآن.

الفصل العاشر

مصرع الملازم فوارون

لم يكن لدى ما أخافه من الوجهة القانونية، إلا أن الوساوس بدأت تتسرب إلى نفسى عندما شارفت السفينة ميناء جيبوتى، إذ خفت أن تبرز عقبات تحول دون «التخليص» على بضاعتى. لذلك ما إن رست الباخرة، حتى هرعت إلى مدير الجمرك أبلغه أن «أزهار القنب» التى تحويها صناديقى ماهى إلا إسم آخر للحشيش. وهز الرجل رأسه قائلا:

— أجل، أعرف ذلك، ولك الحق فى نقل هذه البضاعة، فلست هنا ناقداً خلقياً، إنما أنا رجل يشرف على النظم الجمركية وينفذها، ومع ذلك فإنى لن أسمح لك مطلقا بنقل هذه البضاعة، إذا كنت تعتزم إدخالها إلى المستعمرة ليستهلكها الأهلون.

وأسرعت أجيبه قائلا:

— أعدك بشرفى أنه لن يستهلك درهم منه فى بلاد الصومال

— حسناً. رتب أمورك إذن كما تحب، وسأبعث إليك من يرافقك حتى الحدود.

وتركت مكتب مدير الجمرك بنفس خالية من الهموم.

ولم يكن لدى الآن من السفن الكثيرة التى كانت لى، إلا سفينتى «فتح الرحمن»، وهى سفينة شجاعة تحدت أكثر من عاصفة، وكنت واثقاً من أنها ستشق طريقها الطويل بكل شجاعة فى وجه الرياح الهوجاء التى ستتصدى لها.

وكنا عندئذ فى أوائل يونيو ، أبغض الشهور لدى بسبب حرارته ورطوبته ، وأخطرها فى الملاحة لعواصفه المفاجئة ، التى تنجم عن تراكم السحب فوق قمم الجبال . لذلك فقد رممت السفينة من أولها لآخرها ، وجددت حبالها ، إذ أن طبيعة الحمولة التى معنا ستحول بيننا وبين أن نرسو على أى ميناء فى خلال رحلتنا الطويلة . وزدت من عدد بحارتى حتى بلغوا إثنى عشر ، خيفة أن يصيب أحدهم مرض مفاجىء ، أو ينزل به حادث داهم . وكان ستة منهم من أتباعى المخلصين وهم : عابدى ، ومحمد موسى ، وعلى عمر ، وعدن ، وصلاح ، وفيران . أما الستة الآخرون فمن أهالى دنقلة الذين سبق أن رافقونى فى بعض رحلاتى السابقة .

ووضعت صناديق الثمانية فى قاع العنبر ، وانتهيت من كل الرسميات الخاصة بالإجراءات الجمركية وغيرها ، وأصبحنا على أهبة أن نبدأ سفرتنا . لقد كلل النصف الأول من مغامرتى بالنجاح .

وبدأ الليل الحار الرطب ينشر على البحر رداء من الخمول الثقيل ، وتقاطر على سطح السفينة وحبالها ندى لزج مشبع بالملح ، فانبطح الرجال فى تراخ وبلادة ، وناموا عراة لا يبدون حراكا كأنهم كوم من الجثث . وزاد الهواء من حرارته ورطوبته حتى أصبح بخاراً ساخنا ، فرقدت منهوكا على السطح ، غير أن عينى لم تغمضا وجفانى المنام . أيكون مرد هذا إلى آلام جسدى أم إن مرجعه فى الحقيقة إلى تفكيرى الدائب المتصل فى المخاطرة التى تنتظرنى !

ولكن فيم متاعب البال والأفكار التى لا تجدى ؟ أفليس من البطر أن لا أعترف بأنى لم أجد صعوبات تذكر فى حصولى على ستمائة كيلوجرام من الحشيش ؟ .

أجل قد ينتظرنى كثير من المصاعب فى الغد ، ومع ذلك فلو أنبأنى أحد

يوم أن شخصت إلى ميناء فاندر ، أنى سأكون بعد فترة وجيزة على ظهر مركبى « فتح الرحمن » ، وفى حوزتى صناديق الثمانية ، لكنت شعرت أنى فى السماء السابعة فرحا وجذلا . غير أنى بدلا من ذلك ، لم أجسر على أن أهنىء نفسى بما فعلت ، وهاأنذا أكثر هما من ذى قبل . أترانى خفت أن يثير فرحى بما بلغت ، عناصر الشر والسوء التى تملأ الهواء ؟ أم ترانى خشيت الشعور بالسعادة لأننى — طيلة حياتى — دفعت الأسى والأحزان ثمنا لكل لحظة من السعادة نلتها ؟ . أجل ، هذا هو قانون الحياة الأول الذى يسيطر على مصائر الرجال ، وطوبى لهؤلاء الذين لا يعرفونه ولا يعترفون به . حقا ، مادام المرء يتفكر فى القدر وما يأتى به ، فلن يعنى هذا سوى أن ينبذ السعادة والراحة إلى الأبد ، لأنه سيستشف التعاسة والشقاء من وراء الحجب .

وقبيل الفجر هل علينا من الغرب نسيم دافىء يسمونه « الصبا » ، وهى رياح محلية تتفرع من الرياح الموسمية فى المحيط الهندى ، فجرت ارتعاشات خضراء أيقظت بحراً من الفسفور كان قد نام تحت لفحات الرياح الحارة . وكان هذا هو الوقت المناسب لنبدأ مسيرنا ، إذا أردنا أن نكون بنجاة من العاصفة العاتية التى تنذر بالهبوب . وعندما بدأت السفينة تنأى استعداداً للإبحار ، إذا بجندى صومالى فى حلته العسكرية الكاملة واقف على رصيف الميناء يلوح لنا ، فظننت أنه ينادينا لتكملة بعض الإجراءات الرسمية المعقدة كان قد فاتنا أن نقوم بها ، فأرسلت زورقاً إلى الشاطىء ليعرف منه ما يريد ، فعاد هو فى الزورق ، وسألته :

— ماذا تريد ؟ هل لديك رسالة لى ؟

— كلا ، أنا أريد أن أرحل معك حتى « أوبوك » .

كان شابا صوماليا فى نحو الخامسة والعشرين ، قبيحاً حتى لتؤذى البصر

قباحته ، فضلا عن عينين لا توحيان بأنه يبصر بهما ، وإنما لهما نظارة تجعل
الخوف يسرى فى الفاصل ، عينان كعينى رجل مجنون . وكنت على وشك
أن أعيده فى الزورق إلى الشاطىء ، أو أن أقذف به من السفينة ، إذ كنت
أعرف أن الصوماليين يسبحون كالأسماك ، لولا أنه خطر لى أنى بأخذه معى
قد أسدى خدمة إلى قائد الحامية فى « أوبوك » ، وهو رجل أحرص على
أن تظل علاقاتى معه حسنة ، فتركته يجلس فى ركن كأنه جثة لا حراك
بها . وكنت فى شغل عنه بإعطاء التعليمات لبحارة السفينة ، حتى إننى لم
ألتفت إليه إلا ونحن ندخل المسالك المؤدية إلى « أوبوك » ، فاعتزمت أن
أمكث فى البلدة يومين أنجز فيهما ما بدأت من ترميم السفينة ، وأعد لها
قلوعاً جديدة .

كان الكابتن « بنوا » هو الذى يرأس حامية أوبوك ، وهو رجل
تافه الشأن لم يبلغ الأربعين ، بدين ، ذو أنفاس قصيرة بسبب سمنته المفرطة ،
يصلح لأن يكون محامياً فى الأرياف ، أو جابيا للضرائب ، أو حتى ناظر
محطة للسكك الحديدية . وهو يبدو فى حلته العسكرية كأنه ذاهب
إلى حفلة رقص تنكرية . ولم أكن أعرف عن زوجته إلا ما كان
يترامى إلى من أنها ذات قلب يتسع للكثير من العشاق . وقد تكون
تلك الشائعات افتراء ووشايات باطلة ، إلا أنها على أى حال امرأة ليس فيها
ما يشوق . وكان هناك ملازمان آخران يليانه فى قيادة الحامية ، أولهما
يدعى « أوبلان » وقد تدرج فى خلال سنى الحرب من جندى عادى إلى
ملازم ، وهو من أصل وضيع ، تلوح عليه السذاجة ، فتراه جد فخور
برتبته العسكرية ، يزهو بها مثل طفل صغير . ومع ذلك فهو فتى طيب القلب
سليم الطوية ، لا يؤذى ذبابة ، فهو خليق أن يدفع عربة خضروات ، لا أن
يحمل سيفاً أو يصوب مدفعاً ، إذ أنه بعد سنين ثلاث قضاها فى الخنادق ،

شكر ربه عندما تكونت الفصيلة الصومالية ، ومنح فيها وظيفة مريحة
لينة ، بعيداً عن قذف الرصاص ودوى القنابل . أما الملازم الآخر
« فوارون » فطويل مديد ، ذو جسم متين البنيان ، جميل الطلعة ، يبدو
على سيماه أنه من عنصر طيب كريم ، وإن اختلط بهذا فى نفس الوقت ،
شعور يخالج الرائى بأن ثمة شيئاً ينقصه ، لعل مرجعه إلى أنه لم ينل من
التعليم القسط الذى يليق بشاب فى طبقته . وكان قد تطوع فى جيش
المستعمرات فى سن التاسعة عشرة متأججاً حماسة واندفاعا ، غير أنه لم يجد
منفذاً لهذه النوازع الملتهبة عندما ألحق بحامية مستأنسة فاترة ، فانغمس فى
الشراب وهام بالنساء ، مما كاد أن يودى به ويتلفه ، ولكنه كان لا يزال
مع ذلك هذا الفتى الجذاب الذى يشعر المرء نحوه بحب غريزى ، لأنه يفهم
طبيعته الجياشة التى تتنازعها عواطف متضاربة ، طبيعة فيها حسن ونبل ،
يشينها ضعف فى مقاومة المغريات الدنيئة ، التى ألفى نفسه محاطا بها فى
تلك البيئة .

وإنى لأذكر جيداً زيارته لنا فى منزلنا فى أوبوك ، فقد جاء فى حلته
العسكرية الكاملة ، لما علم أن زوجتى ستستقبله ، بينما جاء زميله « أوبلان »
فى قميص والعرق يتصبب منه . وكان لنا منزل متواضع بسيط الأثاث ،
إلا أن هذا لم يحل دون أن نستقبل ضيفينا بما يليق بهما من الترحاب
اللائق . وكم تأثرت وأنا أرقب من طرف خفى ، كيف استقبل فوارون
هذا الجو من الثقافة والتهذيب ، إذ بدا كمن أفلح فى أن يستعيد الصفات
المهذبة التى ولد ونشأ فيها ، فتحدثنا عن الآداب والفنون ، واستعدنا
بعضا من الذكريات الماضية عن فرنسا ، فتكشف لى جانب من عقله فيه تهذيب
وأدب ، كان يحاول أن يخفيه دائما عن زملائه الغلاظ الذين رمته بهم
الأقدار . وبينما كنا نتجاذب أطراف ذلك الحديث المهذب ، كان أوبلان

فى شغل عنا ، يزحف على السجادة بيديه ورجليه ، لاعباً مع ابنتى الصغيرة لعبة الدببة . وشربنا زجاجة من كونياك « برنو » المعتق ، وتحت تأثير ذلك الشراب انقلب فوارون على عقبه . عادت إليه خشونة خمسة عشر عاما قضاها فى الخيام والمعسكرات ، مع رفاق غلاظ ووحوش كواسر . وتبخر فجأة كل ما ورثه من ثقافة وتهذيب ، وأصبح كأى ضابط سكير عبثت به الخمر ، فجمد نحونا بعينين حمراوين مبحلقتين ، هما عينا مخمور . وأشهد أنى لم أحزن مثلما حزنت ذلك المساء ، وأنا أشاهده بتلك الهيئة الزرية الحيوانية . أما أوبلان فلم يتغير ، أللهم إلا أن الحمرة قد صبغت وجهه ، فراح مبتهجاً يضرب فوارون على ظهره وهو يقول :

— آه شارلى أيها الفتى العجوز . . هـذا هو الشراب الحق . حقاً إن « البرنو » الجيد يجعل الحياة فى لون الورد .

ثم التفت إلى مضيفنا ، وهو يشير إلى فوارون :

— إنه كذلك دائما عند ما يشرب . ولـكن هزة شديدة تعيده إلى حاله الأول ، فما هو فى الحق إلا فتى طيب .

وشعرت بأسى عميق نحو فوارون ، الذى كتب عليه أن يهوى ويهوى . ونظرت إلى يده الرشيقة النحيلة ، وإلى خاتم صغير فى أصبعه ، كأنما الحجر الـكريم الذى فيه يستصرخ غوثا لن يجىء . . لا غوث ولا عون . لقد فات الوقت . لقد فات الوقت . . .

وعند ما وصلت إلى « أوبوك » ، علمت أن خمسة وعشرين من الجنود الصوماليين هربوا من السفينة التى كانت تقلهم إلى فرنسا ، وأوقفوا عند الحدود الإيطالية . وما تلقى الـكابتن بنوا الأمر بأن يذهب ليأتى بهم حتى نزل عليه الغم والهم ، وأدرك الخطورة التى سيستهدف إليها فى تنفيذ هذه المهمة . فليس من شك فى أنه من اليسير على خمسين جندياً أن يذهبوا

ويعودوا بخمسة وعشرين رجلا من الصوماليين الفارين ، أنهكهم التعب وهدهم الجوع . ولـكن ماذا يكون الحال إذا كانت هذه الحملة مؤلفة من جنود صوماليين كالجنود الفارين ؟ أليس هذا يعنى أن اثنين من الأوربيين سيقعان تحت رحمة خمسة وسبعين من الشياطين السود ، فى جوف صحراء قاحلة ممتدة ، كل شبر منها يذكرهم بأن هـذا هو وطنهم ، وتلك هى أرضهم ، وأن الأوروبيين البيض هم الغاصبون المعتدون !

وفى اليوم السابق للموعد المحدد لقيام هذه الحملة ، شـكا الـكابتن من نقرس حاد اضطره أن يلازم الفراش . وبشغف وسرور عجيبين قبل فوارون أن توكل إليه هذه المهمة ، وتطوع الجاويش « مونتسا كريه » أن يصاحبه ، واتفقا على أن ينهضا فى الساعة الثالثة صباحا ، بعد أن تركا لرئيسهما الـكابتن بنوا ما يكفى من الجنود لحراسة الحامية . واختير رجال الحملة بمنتهى العناية والحذر ، فاستبعد منها كل رجل يمت بصلة إلى القبيلة التى هرب جنودها ، خشية أن يتمردوا فى الطريق . وصمم فوارون على أن لا يأخذ معه أكثر من خمسة وعشرين جنديا ، لاعتقاده أن حتى نصف هذا العدد يكفى لقضاء المهمة الموكولة إليه . وكان هو ومونتسا كريه رفيقين قديمين ، حاربا كتفاً إلى كتف ، فعرف كل واحد منهما أنه يستطيع أن يعتمد على زميله حتى الموت ، بل حتى إلى ما بعد الموت . .

وأعد كل شىء وجهزت الجمال بما يلزم الرحلة من مؤن وماء .

وبعد ظهر اليوم السابق للرحيل ، أتى فوارون ليزورنى ، يكاد أن يخنقه السرور لفراره من ملل الحامية وحبستها الـكريهة . وبعد أن زودته ببعض النصائح ، قال لى :

— شكراً لك لأنك أحضرت معك أحمد صياد غزلانى ، فلولا أن مائدتنا تأثرت من جراء غيابه لما اهتممت باختفائه .

وتذكرت فوراً ذلك الصومالى الجاف، الذى أخذناه من رصيف جيبوتى، فقلت:

— لقد نسيت كل شىء عنه بعد أن انبطح فى رقعة ضيقة من السفينة لا يتحدث ولا يتحرك، حتى ظن الجميع أنه أخرس، وعبثا حاول رجالى أن يطعموه شيئاً، حتى يئسوا منه أخيراً وأدركوا أن فى عقله خبلا.

— أجل إنه فتى غريب. غريب الأطوار جداً. وأخشى أن ينزل به الضيق لو عرف أن أخاه ضمن الهاربين. بل أحسب أن السبب فى حالته الغريبة هذه، هو إدراكه أن أخاه قد هرب. على كل حال فإنه لشغل شاغل أن يستشف المرء ما يدور بخلد هؤلاء الشياطين السود.

— إنهم يفكرون كما تفكر. على أنى لو كنت مكانك لباعدت بينى وبين صياد غزلانك هذا، فإنه لا يوحى بالثقة. خذ منى هذه النصيحة: حذار من الرجال ضآل الجسد الصامتين، ذوى الوجوه القبيحة...

— أوه. إنى لا أهتم بهذا. لقد قال لى إنه عاد من جيبوتى لينضم إلى غزوتنا الصغيرة، وأن الهم سينزل به لو وقفت دونه.. غير أنى لن آخذه.

— قد تكون مخطئاً فى عدم أخذك إياه. وكن على ثقة من أنه إذا أراد أن يذهب ليعود بأخيه أسيراً، فليس ذلك بقصد أن يساعده. كلا. ولكن لسبب آخر لانعرفه كلانا. وإنه لشىء خطر أن تقف دون فكرة ثابتة فى رأس واحد من هؤلاء المتوحشين، فإن لهم عقلا بدائيا، يخبط كأنه المطرقة. هأنذا أعيد عليك القول بأن هيئة الرجل البارحة، كانت هيئة مخلوق فقد الاتزان فى عقله.

وضحك فواروون:

— أوه. لا تخف فسأقذف به فى السجن إن فقد وعيه. وكن واثقا

أن رشاده سيرتد إليه فى حجرة السجن. والآن دعنى أذهب. لست أعرف هل أقول إلى اللقاء أم وداعا إلى الأبد... إنى لا أدرى أيهما تكون، على أنى لا أهتم بأى شىء يكون...

ولمعت عيناه بلمعة غريبة فيها تحد للقدر. وإذ ذهب، أسفت على ماهدر به لسانى.. لماذا حذرته من هذا الصومالى الصموت؟ بأى حق كنت أوجه إليه النصح وأثير الراقد من مخاوفه؟ ولمت نفسى على ما أبديته من غرور وتظاهر كذاب، بادعائى معرفة نفوس وطبائع هؤلاء الوطنيين. عمل غبى، مافى ذلك من شك. بيد أنى ما إن عاودت التفكير فى هذا، حتى أحسست أنه ما صدر منى من تحذير، إنما كان صادرا من أغوار عميقة فى شعورى الباطن. إنه هاجس غريب لايقاوم، هو الذى دفعنى إلى ذلك، وشعرت بنوع من الضيق والعذاب الجسدى الأليم، وأنا أمد يدى أصافحه. لعله أن يكون — وقد انكشف له الغيب المحجوب وقرأ المصير المحتوم — هو الذى عدانى بذلك الشعور. لقد أحس بطائر الموت يحوم حوله ويرفرف بأجنحته، عندما قال لى متفاكهاً ساخراً:

— وداعاً إلى الأبد...

وفى جوف الليل العميق، تيقظت على صوت ثلاث طلقات منبعثة من ناحية بيت الحاكم، على مسافة نصف ميل. وقمت أتطلع، فرأيت بوضوح نور مصباح يروح ويجىء، فى ناحية الساحة التى يتدرب فيها الجنود. وكان ذلك هو الوقت المحدد لقيام الحملة، فظننت أن بعضهم أراد أن يحتفل بهذه المناسبة فى أسلوب صاخب بهيج، فشربوا كأساً او كأسين، ثم راحوا يعربدون لينسوا متاعبهم فى تلك البلاد القصية.

لم يدر بخلدى قط أن فاجعة تمثل هناك. وبسرعة طلع الفجر، فجر عادى كالآلاف من نوعه. كان كل شىء فى هدوئه المعتاد وأنا أمر

بالشرفة لآخذ حمام الصباح ، وإذا بى ألمح أوبلان يجرى فى ساحة منزلى ، محمر العينين ، مسلوب الأنفاس ، فأسرعت إليه . وما إن رآنى حتى راح يصيح لاهثاً : « لقد قتل فوارون هذا الصباح . أطلق عليه أحد الجنود ثلاث رصاصات فى اللحظة التى كانوا يتهيأون فيها للسفر . . . وقد جئت إليك أسألك عما إذا كان فى استطاعتك أن تأخذ جثته فى السفينة إلى جيبوتى ؟ . » وسألته التفاصيل . . . جاء إلى فوارون عندما كان يفتش الفصيلة قبل قيامها ، أحد الحرس الذين كلفوا بالبقاء فى الحامية ، وكان له أخ ضمن الفارين ، ورجا متوسلا أن يكون ضمن القوة التأديبية الذاهبة ، وكان مرتدياً حلته العسكرية ، كامل العدة ، وفى يده بندقيته . غير أن فوارون رفض رجاءه ، وهدده بأن يزج به فى السجن أن استمر فى إزعاجه .

— ولكنى أريد أن أرى أخى

— ستراه عندما يعود كما سبق أن قلت لك

— كلا . إنى أريد أن آتى معك . إنى لست امرأة حتى تتركونى أحرس الدار

وصاح فوارون فى غضبة من غضبات السكارى :

— ألست ذاهبا فوراً إلى الثكنات . . .

وعندئذ فقد الصومالى رشاده . وفى نوبة جنون مفاجئة ، أطلق على ضابطه الرصاص ، فأصابته الطلقة فى بطنه وسقط يستغيث .

وأكمل أوبلان قصته : « . . كنت عندئذ واقفاً فى بيت الحاكم ، وكان ليلا حالكا لا يرى الإنسان فيه أصبعه . وما أن سمعت العيار يطلق ، وصوت فوارون يطلب النجدة ، حتى تصببت عرقا بارداً . وصعدت الدرجات ، وأطللت من نافذة فى الطابق الأول صائحاً :

(أنا آت إليك أيها الصديق القديم) وفى هذه اللحظة دوى عياران آخران ، فقلت فى نفسى :

(إنها المتاعب قد حلت أيها الصبى أوبلان) إذ ظننت أن الصوماليين قد تمردوا . وعندئذ سمعت مونتسا كريه يجأر : (انهضوا من أسرتكم اللعينة يا أبناء الكلاب) . وأمطرنا جميعا بوابل من شواظ غضبه ، وأقول (جميعاً) لأن الكابتن كان هناك أيضا ، بيد أن زوجته أغلقت عليه الباب ومنعته من أن يتحرك من سريره ، إلا أنه بعد قليل خرج ليستوضح الأمر وهو فى قميص النوم . وكان فوارون قد أصيب إصابة بالغة من الطلقة الأولى ، وجاءت الطلقتان الأخريان فأجهزتا عليه . أما مونتسا كريه الذى كان فى آخر الصف فقد اندفع طائراً فى قفزة واحدة ، لينقذ صديقه الحميم ولكنه وصل إليه لينهال على القاتل الأثيم بكعب بندقيته . لقد تم كل شىء فيما يقرب من ثمانين ثانية ، حتى ان الفصيلة المسلحة وقفت مفغورة الأفواه لا حراك بها ، وزاد من روعتهم أن حلكة الظلام حالت بينهم وبين رؤية ما يحدث . . »

وذهبت إلى دار الحاكم ، فرأيت جثة فوارون مسجاة على « عنجريب » من الجلد ، وقد ختم الموت بخاتم السكينة والصفاء على الوجه الجميل الشاحب . وجعلوا من علم فرنسا كفناً لذلك الجندى المسكين ، لفوا فى طياته ذلك الشريد الذى كان — بلا شك — يعترف فى قرارة نفسه بالهوة المنحطه التى تردى فيها . رقد جامداً كأنه تمثال لفارس قديم فوق مقبرة من الرخام ، كتلك التماثيل التى يراها المرء فى الكاتدرائيات القديمة . ولعله كان فيه قبس من روح الفرسان القدامى . ولكن ، ليت شعرى ، ماذا كان يستطيع أن يفعل واحد من هؤلاء الفرسان فى آلاى المستعمرات الثانى والعشرين فى القرن العشرين ! أحسب أنه سيرتفع إلى مرتبة الباشجاويش

وحسب . لا شيء أكثر من ذلك . فلكل عصر له رجاله . وبالرغم منى ، شعرت بعواطفى تندفع كالمرجل ، عند ما نظرت إلى الرجل الميت . وبدا العلم الذى يلفه ، ذلك العلم المثلث الألوان الذى هو شعار بلدنا القصى ، كأنه قناع الأحزان مسدل على ابن من أبنائها . وفى لحظة واحدة كنا جميعاً أخوة أمام ميتنا العزيز . وعبثاً حاولت أن أرد البكاء عن عينى ، لئلا أكون أضحوكة أمام الناس . أما أوبلان فلم يحاول أن يخفى شيئاً ، فأخذ ينشج كطفل صغير .

وحملت جثة فوارون على مركبى ، متقبلا هذه المهمة الجنائزية بدون تفكير ، إلا أننى تذكرت بعد قليل صناديق الحشيش الثمانية فى العنبر ، وتحذير مدير الجمارك لى بألا أعود بها إلى المياه الفرنسية ما دمت قد بارحت جيبوتى . وأخبرت الكابتن بنوا بهذا واتفقنا على أنه لكى نتجنب كل الصعاب ، فسيعلن هو أن السفينة تحت قيادته . ووضعنا النعش فى السفينة . أما القاتل الذى استرد شعوره بعد وقت ، فقد رقد فى قاع العنبر بوجه دام متورم ، يحدق فى اكتئاب كوحش أسير . ترى لماذا ارتكب جريمته ؟ لقد لف نفسه فى صمت عنيد لا يستطيع أحد حياله أن يدرك الخواطر التى تدور فى ذلك المخ البدائى . وكان علينا أن نظل نفكر فى جريمته الشنعاء حتى لا نشعر بالأسى والأسف نحوه ؛ إذ كان حقا فى حالة مرعبة تستوجب الرثاء ، بعد أن اقتص منه الصوماليون — الذين كانوا يحبون ضابطهم فوارون حب العبادة — أشنع قصاص .

وجاء الكابتن بنوا فى لباسه العسكرى الكامل ، ملء إهابه العظمة والأبهة ، وفى محياه الجامد سيماء الكآبة . ولما نزل إلى الرصيف فى جيبوتى بين وجوه القوم وذوى المقام من الموظفين ، كان حقاً بطل الساعة ، واخذ يسرد قصته الصغيرة ، وهو يهز رأسه هزات تدل على الحزن ، ويلوح

بيديه إشارات دراماتيكية . تأمل إلى أى حد يعينه ذلك الموقف المسرحى فى الترقية فى منصبه . . .

أما الجنازة فكانت شيئاً يمزق نياط القلب ، من فرط ما بها من سخافات مضحكة . فقد حولت عربة عادية إلى نعش ، فأصبحت ذات منظر سخرى ، يجرها بغلان هزيلان ، وهى تضرب فى الطريق غير المعبد ، فتهتز وتترنح لما فيه من حفر وأخاديد ، بينما راح سائقها العربى الناعس يبصق احتقاراً للمأمورية التى كلف بها ، إذ هى لا تستأهل كل هذه الضجة وهذا الاحتفال ، فما هو إلا إفرنجى كافر يوارونه حفرة من الأرض . ووقف موكب الجناز عند المقابر الأوروبية ، فجاء الحمالون وأنزلوا النعش فى أسلوب لا يختلف كثيراً عن الأسلوب الذى يفرغون به البضائع على رصيف الميناء . وألقى البعض كلمات من الرياء والنفاق ، ثم تفرق الحشد أخيراً عند المقبرة فى غير ما نظام ولا وقار ، وقد تنفسوا الصعداء جميعاً عند ما تيقنوا أنهم انتهوا من أداء واجب ثقيل .

وتأملت كيف يكون الموت قبيحاً فى بعض الأحيان . كانت المقبرة الأوروبية بأسوارها العالية ، وتماثيلها السوقية المبتذلة ، على طرفى نقيض من المقابر التى كنت أشاهدها عن كثب فى الجزر الصحراوية ، يكسوها الهدوء الشامل والسلام المقيم ، بينما تصفر فوقها رياح البحر ، وتلمع فى المياه من بعيد رؤوس أسماك الكوسج عند ما تنعكس عليها أضواء الشمس .

وبفضل ما أعلنه الكابتن من اضطراره للحضور فى مركبى مع الجثة ، لعدم استطاعته العثور على مركب آخر ، لم يثر رجال الجمارك فى وجهى متاعب ما . لذلك فما أن انتهيت من دورى كمشاهد صامت للجنازة الكوميدية الحزينة ، حتى فردت قلوعى للرياح خشية أن يغير أولو الأمر رأيهم ، فلا يدعوننى أسافر بحشيشى . . .

الفصل الحادى عشر

صياد السلاحف

كان إبحارى قبل هبوط الليل، وقد اعتدل الطقس ولطف، حتى لم تعد بنا حاجة لأن نعرج على أوبوك مرة أخرى. وحملتنا ريح مواتية آتية من الجنوب الغربى، فمررنا أمام جزر «سوايا» عند مغرب الشمس، وهى سلسلة من جزر بركانية قديمة، اثنتان منها ترتفعان فوق سطح البحر إلى ما يقرب من ثلاثمائة قدم.

والجزيرتان ذواتا لون ذهبى أسمر، يفصل بينهما مضيق تفور فيه دوارات مائية هائلة، تصل فى بعض الأماكن إلى حد الخطورة على السفن العابرة. والمضيق مجال لمعركة مستعرة الأوار بين الأسماك، يبتلع بعضها البعض الآخر فى سبيل التنازع على البقاء. وعند ما اقتربنا تراءت لنا جماعات كثيرة من السمك الصغير، تعقبها حيوانات بحرية من أكلة اللحوم، راحت تقفز من الماء فى حركة منغمة كأنها فرقة من راقصات الباليه، وثمة أسراب من طيور الماء ترفرف فى الهواء، وتنقض على هذه الأسماك فى صياح يصم الآذان.

ورأينا مئات من الثقوب منحوتة فى أسوار الجزيرة الصخرية، حتى لتبدو كقطع هائلة من الاسفنج. فى تلك الفتحات تبنى طيور البحر أعشاشها. وإنك لمستطيع أن تراها داخل ديارها عند ما تجلب الذكور منها الأسماك لتغذى صغارها، والأناث وهى راقدة على بيضها، حتى إذا ما أطلقت رصاصة فى الفضاء تردد صداها وتجاوب فى صوت مدو كهزيم

الرعد، فتخرج من الجحور الصخرية سحابات من الطير الأبيض تملأ الهواء بياضاً ونوراً.

وخاطرت باجتياز إحدى هذه الدوامات التى تغشى المضيق، أملا فى صيد بعض الأسماك منتهزاً فرصة هبوب ريح مواتية. غير أنى ما استدرت وواجهت السفينة الخليج، حتى أبصرت على إحدى الجزر رجلا عاريا يجر نفسه على الرمال، متجها صوبنا وهو يلوح بالخرقة التى يستر بها عورته. وكان البحر هادئا والرياح معتدلة، فاستطعت أن أرسو بالسفينة فى هذه المياه الخضراء، التى يتراءى قاع البحر من خلالها. وما أن رآنا الرجل نخف لنجدته، حتى غمغم بكلمات قليلة ثم سقط مغشياً عليه. كان من الجلى أنه قاسى الكثير من الجوع والظمأ فى هذه الجزيرة الوعرة، حتى لقد كان مما يثير الرعب فى النفس أن تنظر إلى خدوده البارزة، وعينيه الغائرتين، والابتسامة التى يحاول جاهداً أن يضع فيها سروراً فتجعل وجهه وجه ميت. وعند ما حملناه إلى سطح السفينة، حلنا بينه وبين الأفراط فى شرب الماء حتى لا يودى بنفسه، فأطاع ما أشرنا به عليه، وكان له من قدرة التحمل ما استطاع به أن يقنع بجرعة واحدة. وبعد أن أعددنا له قدحا من الشاى الساخن، وعاد إليه بعض شعوره، راح يقص علينا قصته، فقال إنه من أهالى دنقلة ويدعى يوسف، ولو لم يقل لنا إنه يبلغ الخامسة والعشرين لما استطعنا أن نحدد له سناً، فقد استطال وجهه، ولم يجعل له الجوع والهزال عمراً. وقال إنه جاء هو وأخوه إلى الجزيرة ليصطاد السلاحف، وإن أخاه خرج منذ عشرة أيام فى قارب صغير ليأتيه ببعض الماء والطعام، إلا أنه لم يعد حتى الآن، فعاش الرجل بمفرده فى هذه الجزيرة، متغذيا بأبى جلنبو البرى، وهو منغمس فى الماء طيلة الوقت حتى لا يقتله الظمأ الشديد.

ولما سألته عن طريقة صيد السلاحف، حدثنى بها حديث المجرب الخبير،

فقال إن السلاحف عندما تكون على وشك أن تضع بيضها ، تخرج من البحر إلى الجزيرة ، والمد مرتفع ، والبدر فى التمام ، لعلمها أن ليس ثمة حيوان أو إنسان على سطح الجزيرة ، فإذا حدث ورأت آثاراً للأقدام ، ولت الأدبار باحثة عن مكان آخر عذري الرمال وأدعى إلى الطمأنينة . ولما يعرفه الصيادون فى ذلك الحيوان من حذر بالغ وحيطه معجزة ، يحتال الواحد منهم فيسير على الرمال بجانب البحر ، حتى تمسح الأمواج الآثار التى تطبعها قدماه ، ومن ثم يذهب ليرقد تحت صخرة فى الظل الذى يلقيه ضوء القمر . ويظل هكذا وقتاً طويلا ، صامتاً لا يتحرك ، يرقب الماء فى سكون . يرى المد وهو يرتفع فى بطء وتدريج ، لا صوت ولا نأمة إلا صوت الأمواج المنتظم الرتيب ، وهى ترتطم وتتكسر على الصخور الصماء . من ذا الذى يستطيع عندئذ أن يتصور أن فى تلك الوحدة الشاملة المحيطة يكمن رجل وراء صخرة ، يرقب وينتظر الفريسة ! وتبدأ النجوم تدور فى السماء ويصعد القمر ويعلو ، فيغمر الخليج بضيائه ، وتتلألأ ذرات الرمل بيضاء كحبات من اللجين بجانب الصخور البازلتية الداكنة . وعندئذ ، ينفلت شىء أسود من بين زبد الأمواج ، ويقف على حافة الشاطىء يلتمع كحجر مبتل ، حتى إذا ما أقبلت الموجة التالية بزبدها غطته وانحسرت عنه ، لتتركه أقرب قليلا إلى الشاطىء . وهكذا تدفعه كل موجة خطوة ، حتى إذا ما بعد عن البحر ، تميز الصياد الجاثم فى ظل الصخرة ذلك الشىء الأسود ، فإذا هو سلحفاة بحرية كبيرة الحجم ، تقف ، وتدير رأسها الصغير فى قلق وحيطة ترقب المكان وما يحيط به . وبعون من زعانفها تجر نفسها فى سكون وحذر شديدين ، إلى مرتفع من الرمال فوق مستوى البحر فتنتقى فيه مكاناً ، سرعان ما تغور فيه صدفتها حتى تكاد أن لا ترى . هكذا ترقد بلا حراك ، مدفونة فى الرمل ، لا يكشف أحد وجودها ولا يتميزها إنسان ، إلا ذلك

الراقب الصامت الذى لم يرتفع بصره عنها لحظة . إنه يكتم أنفاسه ولا يتحرك ، ويترك السلحفاة حتى تضع بيضها ، وقد يستغرق هذا من الوقت ساعة أو يزيد ، وعندما تفرغ من مهمتها تهز نفسها وتدفن بيضها فى الرمال ، ثم تعود إلى البحر من نفس الطريق الذى أتت منه ، حتى تستطيع أن تزيل بزعانفها آثار زيارتها الليلية إلى اليابسة . فى تلك اللحظة الدقيقة يندفع الصياد من مخبئه ، ويمسك بالسلحفاة ، ويقلبها على ظهرها . وأخيراً يجد فى بيضها غذاء قيما وفى صدفها كسباً نفيساً .

وتبعت يوسف إلى كوخه القائم على هذه الجزيرة المنعزلة الجرداء ، ليرينى كيساً صغيراً فيه صدف أخذ من اثنتى عشرة سلحفاة ، صيدت فى الليالى المقمرة . وكان كهفاً كبيراً معتما لا يتسلل إليه الضوء إلا قليلا ، ليس فيه من شىء إلا كيس الأصداف ، وطبق قديم من الخشب ، وبعض العلب الصغيرة التى يضع فيها القليل من المياة الثمينة التى يشربها . وغطى مدخل الكوخ بعدد لا يحصى من خرق حال لونها ، معلقة على قصبات مغروسة فى الرمال ، وفى أعلا كل قصبة قليل من ذلك الخشب ذى الرائحة الزكية ، تقدمة لروح الله الذى يغشى المكان ويباركه . وفى داخل الكهف تشممت رائحة البخور أيضاً ، يحرقه ذلك الصياد ، وكل صياد آخر يأتى إلى هذا المكان ، وذلك شاهد على تعلقهم العميق بدينهم الفطرى الذى يملأ أرواحهم وعقولهم . ووجدت سحراً عجيبا فى هذه الطقوس المؤثرة ، فأخذت حذرى حتى لا أمس شيئاً من تلك القرابين التى لا تزال لها قدسيتها ، والتى تعبر عما ينزل بالإنسان من ضعف وخوف ، عندما يجد نفسه وجها لوجه أمام عناصر الطبيعة . كان الكهف فى الحقيقة شيئاً مهيباً غريباً ، حتم أن يدخل الخوف والروعة فى قلوب هؤلاء الرجال المفردين ، عندما يدخلونه ويرون حطبانه المصنوعة من شعب اللؤلؤ فى أشكال أشجار أو مراوح مبعثرة ، فى

وسطها أصداف حفريات عملاقة . ونظرت إلى يوسف فوجدت النبل يشيع في ملامحه ، يكشف حديثه من عقل وبصيرة يرى بهما الأشياء التى لا يراها قطيع الناس .

ورأيت بعينى خيالى صياداً دنقليا نصف عار ، يهبط من زروقه على الشاطىء ثم يتجه صوب كوخه ، فيركع عند مدخله يرقب الدخان الأزرق الخفيف يتصاعد من قبضة من البخور فى مبخرة بسيطة ساذجة . إنه يرى عندئذ فى كل مكان حوله ، ملائكة تنصت لصلواته وأدعيته ، فتزايله مخاوفه لأنه يدرك أنه ليس وحده ، بل إن أرواحاً طيبة أخرى تملأ المكان . أما أنا فوا أسفاه . . . إننى لست إلا كافراً لا يرى أمامه إلا حياة تحجرت وخمدت إلى الأبد . لقد فقدت تلك القدرة السحرية العجيبة التى تستكشف إلها فى كل سر من أسرار الطبيعة . . .

وأخبرنى يوسف بعد ذلك أنه منذ اثنى عشر يوما ، بينما كان وشقيقه يجثمان وراء الصخرة فى انتظار السلاحف ، إذا بهما يسمعان أصواتاً آتية من البحر ، وخرجا ليجدا بضعة رجال يسبحون نحو الجزيرة . وعند ما نزلوا إلى الشاطىء كانوا فى حالة من الإنهاك تستدعى الرثاء ، حتى إن بعضهم غشى عليه أول ما هبط إلى الأرض ، وعند ما استعادوا شيئاً من قواهم ، زعموا أنهم صوماليون جنحت سفينتهم .

وواصل يوسف قصته عن هؤلاء الصوماليين ، فقال إنه وأخاه أعطياهم كل ما يملكانه من الطعام ، إذ كانوا يتضورون جوعا ، وحملهم أحمد فى زروقه الكبير ليعود بهم إلى اليابسة ، بعد أن وعدوا يوسف أنهم سيشترون لأخيه طعاما بدلا من الذى زودهم به . وتركوا يوسف وحيداً على الجزيرة ليس لديه سوى عشرة لترات من الماء تكفيه يومين — وهى المدة التى حسب أن سيتغيب فيها شقيقه — وبدون طعام ، لأنه يستطيع أن يحصل

على طعامه من البحر ، أو أن يتحمل الصوم فى هذين اليومين إن لم يجد صيداً . ومضى يوم وثلاثة وأربعة ، ولم يعد أخوه . . . ونفدت المياه ، وألح الظمأ إلحاحا قاتلا ، ولاح شبح الموت جوعا وعطشاً . ومرت أيام أخرى ولم تبد فى الأفق سفينة ولا شراع . وذهب يوسف متثاقلا فى أثناء النهار ، والمد منخفض ، يبحث عن أسماك بين الصخور . غير أنه بدل أن يجد سمكة يسد بها رمقه ، عثر على جثة محشورة فى شق بين الصخور ، وقد تآكل رأسها . وقرب منها فإذا هى جثة رجل عار إلا من مئزر حول عورته ، وقد تجمعت طوائف كثيرة من (أبو جلمبو) تنهش اللحم الذى بدأ فى التحلل . وشد يوسف الجثة إلى الشاطىء ، ودفنها فى الرمال كما يليق بموتى المسلمين ، فوضع الرأس تجاه الكعبة . واكتشف فى الحزام الجلدى الملفوف حول الجثة عشر عملات ذهبية ، وعجينة من الأوراق سهل عليه أن يعرف أنها أوراق مالية من بنك جيبوتى . ووجد على معصمه كذلك مدالية صغيرة من الألومونيوم . .

وسكت يوسف عند ما انتهى من قصته فتناولت فى سكون المدالية التى وجدها على معصم الغريق ، فوجدتها قرصا صغيراً من النوع الذى يلبسه الجنود لإثبات شخصياتهم . ورأيت على ذلك القرص إسم الغريق ورقم الفرقة التى يتبعها . . .

لم يكن لدى عندئذ أدنى شك فى أن هؤلاء الذين زعموا أنهم بحارة جنحت سفينتهم ، إنما هم جند فارون ليس من البعيد أن يكونوا هم الذين أوقفوا عند حدود أريتريا ، وكان مقدراً أن يذهب إليهم اللازم فوارون بجملته ، لو لم تصرعه رصاصات الصومالى فى سكون الليل . وشرحت هذا ليوسف فبدا عليه سيماء التفكير العميق . وساوره القلق على مصير شقيقه ، فسألنى أن آخذه معى فى السفينة إلى مكان على الساحل . وفى أثناء الطريق

لم أجد لنفسى تفسيراً معقولا لغياب أخيه ، إلا أنه التقى بميتة عنيفة على يد
الصوماليين ، فهم لا يتورعون قط عن أن يقذفوا بدنقلى من فوق سفينة ،
إذا ماتوجسوا منه ريبة ، أو خشوا إذا ماعرف خفية أمرهم أن يبلغ أولى
الأمر ، طمعا فى الحصول على المكافأة التى وضعوها ثمنا لمن يرشد عن
هؤلاء الفارين . ليس ببعيد إذن أنهم تخلصوا من منقذهم حتى لا يسيل
لعابه للمكافأة السخية فيشى بهم ، فردوا الصنيع الجميل الذى طوقهم به ،
بأن أرسلوه فوراً إلى جنات النعيم ....

وأبحر معى يوسف بمتاعه القليل ، وبعد بضع ساعات رسونا على
شاطىء فى شمال « سيان » فكان أول ماوقع عليه بصرنا هو حطام زورق
على الرمال ، تعرف عليه يوسف فوجده زورق أخيه ، وتبين لنا أن الزورق
حطم عمداً ، إذ وجدنا بالقرب منه حجراً كبيراً ظننا أنه الأداة التى استعملت
فى تحطيم قاعه . ولم تميز على الرمال آثار أقدام ، فقد طمستها رياح الخماسين
وغطت كل شىء بطبقة من الغبار الرقيق . وحدق يوسف فى صمت واكتئاب
فى آثار الكارثة التى حاقت به . وذهب كل شك فى مصير أخيه عندما
عثرنا أخيراً على جثة أحمد التعس ، أو على الأصح عظامه المبيضة ملقاة فى
ركن من الزروق ، دليلا صامتا على غفلة كل من يحاول أن يمد يد العون
لبنى الإنسان ...

وذهب يوسف إلى مصيره دون أن تبدر منه كلمة . وشاهدت قامته
العالية وهو يبتعد عنى ، تتضاءل ، وتتضاءل ، وتتضاءل ، حتى ابتلعه
العشب الإفريقى . وياله من عشب مملوء بالأشواك الخشنة المرعبة ، عشب قاس
شرير ، كوحش يتربص بفريسته ...

الفصل الثانى عشر

الخماسين

واتانا حظ حسن لم نكن نظن أننا واجدوه فى هذا الفصل من العام ،
إذ هبت علينا رياح معتدلة مقبلة من الجنوب الغربى ، استطعنا بفضلها أن
نبحر فى خفة ويسر بين ضفتى المضيق ، حتى شمال خليج بيليول . على أننا
كنا فى الصيف ، وهو أشد الفصول خطورة فى البحر الأحمر كما أسلفت ،
لاينبغى للمرء أن يثق فيه بأى طقس أو ريح ، لأن كل شىء ينقلب فجأة
فى أقل من ساعة من الزمان . وتحقق — لسوء الحظ — ماتوقعت ،
فرأيت بعد قليل سحباً متجهمة تتجمع فى الشاطىء الأفريقى فوق جبال
أسمرة ، وعلى اليمين من ناحية الشرق بدت علائم عاصفة أخرى ، شرعت
تغلى وتفور خلف قنن جبال اليمن الشاهقة . وراحت سيوف هائلة من
البرق تمزق السحب السود ، ولكنها كانت من البعد بحيث لم يصل
إلى آذاننا سوى صوت الرعد يقصف ويدوى . وتراخت ، وضعفت ،
ثم توقفت فى النهاية تلك الرياح الجنوبية الغربية التى حملتنا من قبل فى
سرعة وخفة ، مما جعلنى أقدر أننا وصلنا إلى وسط ذلك الانخفاض
البارومترى الذى تسببه العواصف .

وتوقفت السفينة دون حراك كأنها فى بحر من الرصاص . وشملتنا تحت
هذه القبة الهائلة من السحب السوداء ، سكون مخيف لاتتجاوب فيه
الأصوات . وأسرعت الأسراب من طيور البحر تمرق بجانبنا مذعورة ،
تكاد أجنحتها تمس الماء ، مولية فى رعب مخيف نحو جزر الحانيش ، قبل

أن يحيق بها الخطر الزاحف . واختفت الشمس تماما وراء السحب المتجمعة فى الشمال الغربى ، ورأيت دوامات من النار ، وألسنة من اللهب تومض فى نهايات السحب السوداء ، وأخذت السماء تحمر حتى لكأنها الأتون يفتح فاه . رباه . . . ما الذى سيحدث ! وندمت فى مرارة ، ولمت نفسى على ذلك الوقت الذى ضيعته هباء فى رجوعى بجثة فوارون إلى جيبوتى . فلولا هذا الوقت المضيع ، لكنت الآن فى الشمال بمنجاة من هذه العواصف والأهوال التى لم أجربها من قبل ، حيث لم يسبق لى أن قدت سفينة فى الصيف فى هذه المياه . حقا كنت أعرف كثيراً من الأماكن التى يمكن أن تلجأ إليها السفينة وتستكن فى حماها ، لأنى زرتها مراراً كثيرة فيما مضى ، ولكنها لم تكن ذات فائدة إلا فى الشتاء ، عند ماتسود الرياح الجنوبية الشرقية . أما الآن ونحن فى شهر يوليو اللعين ، فقد أصبحنا كفأر فى مصيدة ، تحف بنا من كل جانب عواصف هوج ، ولا نعرف من أى جهة ستحمل علينا الريح . صرنا لانعرف إلا شيئا واحداً وهو أن إعصاراً مجنونا سيطبق علينا بعد حين . . .

وأخيراً ، وبعد أن لمعت بين طيات السحب المتكاثفة خيوط من البرق ، وبعد أن بدأ الليل يتقدم ويقترب ، قامت ريح ساخنة شريرة .

وتصايح رجالى فى ذعر وهلع :

« الكوارى . . . الكوارى . . . الخماسين . . . الخماسين . . . »

وأعددنا قلاعنا لتواجه الرياح ، التى سرعان ما اشتدت وغضبت كأنما أدركت أن مركبنا الصغير يحاول أن يقف أمامها ، متصديا لها . لكم أفهم جيداً تلك الأساطير القديمة التى تجعل من الرياح شخصيات حية ، إذ ليس من ريب فى أن أى امرىء يعيش مع عناصر البحر المتقلبة الأطوار يدرك تماما أن ما نسج عنها من قصص وأساطير ، إنما يصور فى الحق

المشاعر التى تجيش بنفوس البحارة ، والتجارب التى ترتسم فى عقولهم الواعية ، أو ترسب فى مشاعرهم الباطنة ، عند مايعيشون مع الطبيعة ، فيجعلون لكل ريح يهب شخصية مميزة ، وسمات معينة ، ويعرفونها بنفس الوسائل التى يعرفون بها رفاقهم وأحبابهم وأعداءهم . فهذه الخماسين ، أو « الكوارى » كما يسميها الأهالى ، ريح صامتة عابسة ، تهب فى شؤم واكتئاب تحت سماء محجوبة بالغبار ، تصب نقمتها فجأة وعلى أية سفينة تعسة أراد الطالع السىء أن توجد فى طريقها المشئوم . وفى خلال لحظات قليلة أحاطت بنا سحابة من الرمال ، أو على الأصح من الغبار الدقيق الذى يبلغ من دقته أن يتسرب فى كل شىء . وفوجىء البحر فى سكونه الميت بما حدث ، واستغرق من الوقت لحظة حتى يتدبر مايجرى حوله من زبد يجرى على سطحه كأنه ندف من الثلج ، ورشاش تدفعه الزوبعة الطائشة إلى سطح السفينة ليزركشها . إلا أنه سرعان ماستيقظ من نومته ، فارتعش وهز من أمواجه التى ارتطمت بهيكل مركبنا فى ثورة وعنف ، فدفعتنا إلى أمواج أخرى سوداء باطشة ، تركبها أمواج أشد سواداً وأشد بطشاً . وهبط الظلام على هذه الدنيا الحالكة الصاخبة ، وحملتنا أيدى الرياح العاتية إلى الغرب ، ونحن عميان . . .

إلى متى يدوم هذا . . .

وزاد الأمر سوءاً عندما بدأت الرياح تبدى محاولات تجريبية مترددة لتتجه إلى الشمال ، فتضاعفت مخاوفى ، لأنى أعلم بالتجربة أن تغيير اتجاه الريح فى مثل هذه الظروف ، ليس يعنى إلا اصطدام تيارين صاخبين ، وهو شىء لن يكون ساراً جداً لسفينة ضئيلة مثل سفينتنا . على أنى أردت أن أنتهز تلك الفرصة ، فأستغل اتجاه الريح إلى الغرب لأحاول أن أصل إلى الشمال ، حيث أحتمى وراء سلاسل جبال « الحانيش » قبل أن تعدل

الريح من اتجاهها . ذلك أنى أستطيع — وبينى وبين الريح هـذا الحاجز من الجبال الذى يمتد خمسة عشر ميلا — أن أسير فى مياه هادئة حتى يبزغ النهار . وعن طريق التخمين (إذا لم تكن لدى الوسائل التى أعرف بها الجهات) وجهت دفتى إلى الإتجاه الذى ظننت أنه الصحيح . وكانت نجوم قليلة مبعثرة تلمع فوق رؤوسنا ، ولـكن العاصفة الغبراء التى تهب قريبا من سطح الماء كانت تحول دون الرؤية كثيرا . وكان البحر صاخباً ذا أمواج قصيرة غير منتظمة . وفى أقل من دقائق معدودات كسانا جميعا لون أبيض من جراء المياه الملحة ، التى تقذفنا بها الأمواج باستمرار ، فتبخرها الرياح الملتهبة فى مثل لمح البصر .

والـكوارى — أو الخماسين — ذات شهرة سيئة فى تحطيم الصوارى والقلاع ، فأطلق عليها الأهالى اسم الريح الثقيلة . فإنه إذا تحداها صار أو قاومها شراع ، قلبت السفينة بمن فيها ، مما جعل حوادث الغرق التى من هذا القبيل لا يحصيها العد فى كل عام . وتلك حقيقة لاجدال فيها ولا نزاع ، إلا أن لها تفسيراً علميا غير ماينسبونه إلى تلك الريح الصحراوية من شهوة التخريب والتدمير . ذلك أن حرارتها الشديدة المصحوبة بالجفاف ، تجعل الخشب أقل مرونة وأكثر هشاشة وتقصفا . لذلك راقبت بقلق وجزع الصارى وهو ينثنى أمام الرياح ، وكنت أنتظر — فى رعب — أن أسمع بين ثانية وأخرى الصوت المرعب المخيف ، صوت تقصف الخشب ، ذلك الصوت الذى هو مصدر الفزع عند الملاحين فى تلك البحار .

وأخيرا تراخت العاصفة الرملية ، فاستطعت أن أرى قنن الجبال السوداء فى جزيرة « حانيش » ، غير ان الرياح الشمالية الغربية ما لبثت أن سادت ، وطردت الغبار بعيداً لتجلب — بدلا منه — السحب العاصفة التى رأيناها من قبل تتجمع فوق جبال أسمرة . وسرعان ما غامت السماء

وأعتم الكون ، ونزل الظلام ثقيلا حتى لأصبح المرء يحس كأنه فى مخزن معتم . وكان ينبغى علينا أن نرسو إلى جزيرة «حانيش» لنستكن فى حماها ، إلا أنه بسبب العتمة المطبقة لم نستطع أن نتميز قمم الجبال بوضوح . وكنا على مسيرة أقل من ميل منها ، فاستطعنا أن نجرى على سطح بحر هادىء وإن لم تزل الريح فى عنفوانها . ومررنا بمناطق ذات ماء فوسفورى عجيب ، فكأننا نشق طريقنا فى فوسفور مذاب ، تنعكس عليـه فى الظلام صور لماعة مضيئة . وبين آونة وأخرى تلمع وجوهنا بلمعة شريرة مخيفة ، فتبدو كوجوه الموتى أو الأشباح . وبلغ مما امتلأ به الجو من الفسفور أن زاغ بصرنا فلم نستطع رؤية الجزيرة الـكبيرة التى أزمعنا أن نرسو إليها ، وحجبت عن أبصارنا الجزر الصخرية التى على يميننا . ولم يك يهدينا فى تلك الظلمات المطبقة على جانبى المضيق الذى نمر خلاله إلا تلك الأضواء الفوسفورية العجيبة وهى تنعكس على الأمواج .

وكان مما يزيد الأمر سوءاً أن أضيف إلى الخطر المحيط بنا من كل جانب ، والقلق المرعب الذى كان يسودنا ، عنصر من الاضطراب النفسى ، أثارته طبيعة المنظر النارى المسحور الذى يلفنا ويشملنا ، فضلا عن تعبنا الجسدى وإنهاك قوانا وما نعانيه من قلة النوم . كان كل ذلك يحول دون التفكير السليم المرتب فى أقوى الأذهان وألمعها .

لعمرى .. لقد كنا فى حال من البله لا نستطيع فيه أن نميز بين ما هو حقيق وما هو من صنع الخيال . إنى لا أعرف ماذا كان يجول برأسى من الأفكار فى تلك اللحظات . لعلى كنت كمحموم يهذى ، جثم عليه كابوس مخيف ... لعلى كنت تحت وطأة نوبة من الجنون والخرف ... ولعلى لم أك إلا مخوفا وحسب ...

وفجأة هدأت الريح وسكنت .. وعلى حين بغتة تقوّس الشراع ، ومال

إلى أسفل ، فأدركت بالغريزة أننا حتما فى قلب إحدى الدوارات الخطرة
التى تتسبب من عصف الريح فوق قمم الجبـال التى تشرف علينا .
وعرفت أننا قربنا من الشاطىء أكثر مما ينبغى . وفى وسط هذا السكون
الذى هبط علينا فجأة ، استطعت أن أسمع البحر يدمدم ويزمجر فوق
إحدى الشعب المخبوءة . وإذا بصوت فيه صفير غريب يجرى على وجه الماء ،
ويزداد قوة وهو يقترب منا فى سرعة تورث الدوار . ثم إذا بعصفة عاتية
من الريح تصفع السفينه فى مؤخرها ، وتقتلع الشراع وتطيح به . وأسرعنا
مذعورين ننقذ السفينة من الخطر الداهم . وتوارت من مخيلاتنا واعيننا
تلك الصور الشريرة والأشباح الفوسفورية المتراقصة حولنا ، لأننا كنا
أمام ماهو أدهى وأكثر سوءاً . وأسرع كل منا يؤدى واجبه فى سرعة
لاهثة ، بينما انفردت بالإشراف على تسيير السـفينة وهى تمر بين صفين من
الصخور المهلـكة . وراح رجالى يجدون فى إصلاح الشراع أو اسـتبداله
بآخر . كانت كل لحظة تعتبر شـيئاً ثميناً فى تلك الثوانى الخطرة . وبدت
الدقائق طويلة كأنها ساعات ، والبحـارة يعملون ويلهثون . وفى النهاية
استطاعوا بشق الأنفس أن ينصبوا شراعا فى المقدمة ، فشعرت فجأة بأن
السفينة ملـكت قيادها ، وأصبح فى طوقها أن تسير . وأبحرنا ببطء فى
محاذاة جزر صخرية ، خيل إلينا أنها تكاد لا تنتهى . وأخيراً تنفسنا
الصعداء عندما شارفنا نهايتها ، ولـكن فى اللحظة الأخيرة التى كنت
أستدير فيها بالسفين ، رأيت عموداً هائلا من الصخر يشق الماء الهائج ،
ويفور حوله الموج مرتفعاً صوب السماء . . .

هذه هى النهاية التعسة . . .

وأحسست بفمى يجف ويتخشب ، وبحلقى يحترق ، وبوجهى يتقلص
من كثرة ما أصر على أسـنانى . حقاً ! كأنما صرير أسنانى وتقلص عضلاتى

يجدى فى الأمر شيئاً ، أو يوقف اندفاعنا بين فكى الموت . . وأدرك رجالى
أن آخر لحظات حياتهم قد حلت . ورأيتهم يتجمعون على سطح السـفينة
مذهولين ، مسلمين أمرهم للقضاء المحتوم ، وسمعت أصواتهم الغريبة وهم
يرددون دعاءهم : « لا إله إلا الله . . لا إله إلا الله » . كم من مرات كثيرة
سمعتهم يتلون تلك الكلمات وهم يحملون الموتى إلى قبورهم . ولقد كنا فى طريقنا
إلى قبورنا . . . ولـكن فى اللحظة الأخيرة قامت دوارة مائية مضادة ،
فصفعت السفينة من جانبها الآخر ، ودفعتها إلى وسط المضيق .

أجل ، فى آخر لحظة حدث هذا . . . كأن الله لم يود أن يستضيفنا إلى
جواره ، لأن ساعتنا لم تكن قد حلت . . .

الفصل الثالث عشر

مدافع تتراشق

أعقب هذه المغامرة أسبوع من الملاحة المنهكة، فى مواجهة رياح كانت تغير مهبها فى بعض الأحيان إلى الحد الذى كان يسمح لنا بالمسير. وبقدر ما استطعت، كنت أسير محتضناً الساحل، متجنباً عرض البحر حيث الأمواج الثقيلة والرياح القوية. ومررت على مصوع، فوددت لو تسنى لى أن ارسو فيها، لأقضى سويعات طيبة مع صديقى جاك شوشانه، الذى لا بد أن يكون فيها فى مثل هذا الوقت من كل عام لشراء لآلئه. غير أنى عدلت أخيراً خشية أن تستثير البضاعة التى أحملها الفضول وتعرضنى للمتاعب. ومع ذلك فقد أتيح لى أن ألقاه بالاسكندرية فى ختام رحلتى.

وبعد أن اجتزت مصوع واصلت سيري بمحاذاة الساحل المنخفض الممل، يرتفع تدريجيا إلى داخل الأرض، تغطيه شجيرات صغيرة من الميموزا، وتملأه الأحجار وعناقيد من الأعشاب الجافة. وكان ينقصنا الوقود نطهى به طعامنا، فاضطررنا أن نقتصر فى غذائنا على التمر والكعك. لذلك كنت دائب التطلع إلى الشاطىء، باحثاً عن نقطة أستطيع أن أرسو فيها لأجمع منها قليلا من العيدان والوقود، غير أن الشاطىء المرجانى امتد إلى ما لا نهاية بدون ما ثنية تصلح لأن تكون مرساة لنا.

ولمحت سفينة صغيرة مقبلة من الشمال، تجرى أمام الريح فى محاذاة الشاطىء، ثم رأيتها تنحرف بعد ذلك فجأة لتدخل بين الأمواج، وتتجه

صوب اليابسة لترسو فيها، مارة خلال فتحة صغيرة فى الشاطىء كان من المستحيل علىّ أن ألحظها لو لم أشاهد السفينة تدخل من خلالها. وبدا لى أنه من أيسر الأمور أن أتخذ السفينة مرشداً لى، وأتبعها حتى أستطيع أن أجد مرساة لمركبى. غير أنى ما وصلت إلى هناك حتى وجدت الثغرة من الضيق بحيث لا تسمح لسفينتى بالدخول، فعدلت عن رأيى، وعدت بسفينتى إلى عرض البحر، معتزماً أن أترك السفينة فى قيادة محمد موسى، وأن أستقل زورقاً أتوجه به إلى الشاطىء بصحبة عابدى وكاديجاتا. وما أن رسوت بالزورق واتخذت طريقى صوب بعض الشجيرات لأجمع ما استطعت من الوقود، حتى رأيت رجلا من الأهالى يجرى صوبنا، ويسألنى بلهجة هى الوقاحة والغطرسة بعينهما، عمن أكون ومن أين أتيت وماذا أبغى. فأجبته فوراً:

— ومن تكون أنت يا من تتكلم كسلطان عظيم؟

— أنا جندى إيطالى. أعطنى أوراقك واتبعنى إلى الحامية.

— ومن أين لى أن أعرف أنك جندى وأنت لا تلبس زيك العسكرى؟ عد ياهذا إلى ثكناتك واشكر ربك أنى لم أعطك درساً فى الأخلاق...

وبقولى هذا عدت إلى كوم الشجيرات، وإذا بذلك الأريترى يقذف بنفسه على يريد أن يختطف المسدس المعلق بمنطقتى.

وتطور هـذا الهجوم إلى معركة حامية، إذ استنجد ببحارة السفينة التى رست قبلنا بدقائق معدودة، فأقبل خمسة منهم يشدون عضده. ولم يكن معى من يعيننى غير عابدى، لأن كاديجيتا كان قد فر صوب البحر. وتعلق الرجل الذى هاجمنى بالمسدس تعلقه بالحياة، يريد أن يحول بينى وبين استعماله، موقناً أنه إذا استطاع ذلك فإن رفاقه الدنقليين الأخر سيتفوقون علينا. ولكن بحارتى كانوا يراقبون المشهد من السفينة، فما أن رأوا أن

الأمر قد تطور إلى معركة ، حتى أطلقوا عدة طلقات ليخيفوا هؤلاء المعتدين . وكانت اسلحتنا التى على سطح السفينة بنادق ذات ظروف محشوة بالبارود الأسود ، مما جعل لصوتها دوياً عاليا . وعلا الدخان الكثيف السفينة ، حتى بدت كانها رسم قديم لبارجة مشتبكة فى معركة بحرية . وفزع الدنقليون فانبطحوا على وجوههم ، وولى الأدبار ذلك العسكرى المغرور ، وقد تعرى من الثياب بعد أن ترك ثوبه الأبيض فى يد عابدى .

ولم ننتظر لنحصل على نصر أكثر مجداً ، فأسرعنا إلى الزورق نجذف حتى وصلنا إلى السفينة . وما أن صعدت إلى ظهرها حتى أطلق علينا من الشاطىء وابل من الرصاص . ونظرت إلى الشاطىء فإذا بى أجد عدداً من الطرابيش الحمر تظهر وتختفى وراء الكثبان الرملية ، فأدركت أن بعض جنود الحامية من الوطنيين قد أسرعوا لنجدة رفاقهم ، ظانين أن العدو قد دهمهم على حين غرة . وتساقط الرصاص حولنا من كل جانب . ولكنا لحسن الحظ كنا مختبئين فى قاع السفينة ، ولولا ذلك لتعرضنا لموت محقق ، فقد كانوا مهرة فى تصويب قذائفهم .

وما أن بدأت سفينتنا تتحرك ، حتى شعرت برغبة ملحة فى أن أرد على هذه الطلقات بمثلها ، لأنه ليس شىء أكثر إثارة من أن تكون هدفاً وحسب . لذلك رددنا عليهم التحية مضاعفة من بنادقنا الست ، فتعالى الدخان وتكاثف فوق السفينة ، حتى لكأنها فوهة بركان ثائر . وأثارنا دوى هذه الطلقات ففرحنا بها كأطفال صغار لم يجدوا لهواً كهذا منذ امد طويل . هذا إلى أنى كنت موقنا أنه ما من خطر من وراء هذه الأعيرة ، لبعد الشقة بيننا وبينهم . ولنزيد اللعبة مرحاً وصخبا ، أردت أن أقلد المدفعية الثقيلة ، فقذفت إلى البحر بظرف من الديناميت مربوط

به لهب ، وما أن انفجر حتى صدر منه دوى راعد كصوت مدفع من عيار ضخم . وأحسب أنه بدا من بعيد منظراً مروعاً .

وما أن أوغلنا فى البحر ، حتى انتهى ذلك الحوار الثنائى ، ذو الدخان والدوى ، بعد أن أشبعنا ضحكا وانبساطا . وعند إحصاء الظروف الفارغة وجدت أننا أطلقنا مائة وخمسة وعشرين طلقة . إنها معركة حقيقية ، لا مراء فى ذلك . أما ما كنت أجهله ، وقد علمته عند عودتى ، فهو أن الإيطاليين لم يحسبوا الأمر لهواً أو ضحكة عابرة ، بل انقلبت كل مستعمرة أريتريا إلى مرجل يغلى من جراء هذا الحادث . ونظرت فى الخريطة لأتبين موقع هذه المعركة التاريخية ، فوجدت أنها نشبت فى نقطة يسمونها « تاكالى » تقع بالقرب من حامية إيطالية ترابط فيها فصيلة من الحرس التيجرانى . غير أنى لم أكن أعلم وقتذاك شيئاً من هذا .

وقد نتج من هذه الزيارة دخان كثير بدون نار ، فإننا لم نحصل على عود واحد من الحطب الذى كنا نبغيه . غير أننا لم نجد من التبصر أن نهبط إلى الشاطىء مرة أخرى إلا بعد أن نتجاوز الحدود الإيطالية ، فانقلتنا صوب البحر فى الحال ، حتى يظن هؤلاء الذين يرقبوننا من الشاطىء ، أننا نقصد ساحل جزيرة العرب ، فلا يتبعوننا على اليابسة .

ولم نترك من الغنائم فى أيدى هؤلاء السود المتحمسين إلا نعلى الذى فقدته ، كما حدث لسندريلا ، أثناء عراكى مع العسكرى .

ولقد قدم هذا النعل بعد ذلك كدليل ضدى ، مما أدى إلى بعض الاتهامات المعقدة ، التى سيحيط بها القارىء فيما بعد .

وفى الحق كان من حسن الحظ أنى أطعت ذلك الدافع الخفى ، فتركت السفينة فى عرض البحر ونزلت إلى الشاطىء بالزورق . إذ لو كنت

رسوت بالسفينة ذاتها على الشاطىء ، لوقعت فريسة سهلة فى يد الإيطاليين .
نعم كنت أستطيع بالطبع أن أوضح كل شىء لدى ولاة الأمور ، غير أن ما لم أكن أستطيعه هو تفسير وجود الحشيش معى . ومن يدرى عندئذ كيف كان الأمر ينتهى ... والحق أنه ما من مرة كنت فيها على شفا كارثة مخيفة ، إلا ونجوت منها بالاستماع إلى صوت هذا الوازع الخفى ...

الفصل الرابع عشر

يد القدر

صادفتنا إحدى الجزر الصغيرة ، ولحسن الحظ وجدنا فيها ماء عذباً ملأنا براميلنا منه ، وعندئذ صار فى مقدورنا أن نتطلع إلى المستقبل بنفوس راضية مطمئنة ، وانزاح عن صدورنا ذلك الكابوس الثقيل الذى خيم علينا عندما قاربت مياه الشرب على النفاد . وواصلنا مسيرنا ليل نهار ، فى عناد نملة تصر على بلوغ غايتها . حقاً كنا نسير فى بطء شديد يكاد يبعث على القنوط ، غير أنا لم نكترث لهذا كثيراً ، فان الماء الذى وجدناه فى خزانات تلك الجزيرة أمدنا بما يعوزنا من إيمان ، ووضع فينا من الثقة ما يشجع على السير مهما كانت الصعاب .

وجمعت شمل جرأتى فاقتحمت خليج « برنيس » ، وهو مكان نعت فى خريطتى بأنه « غير صحى » ، وهذا يعنى فى لغة البحار أنه مكان خطر تعتوره صخور غير موضحة فى الخرائط . ومع ذلك فلقد عبرت هذا الخليج بدون جهد أو عائق ، حتى وصلنا إلى نهايته ، فرسونا على شاطئه الرملى الممتلىء بالصخور ، فى ذلك الميناء الطبيعى الذى كانت تقع عليه فى القديم المدينة المسماه « برنيس » ، وهى التى كانت ترد إليها القوافل من صعيد مصر ، لتضع فيها بضاعتها توطئة لتصديرها إلى جزيرة العرب وبلاد فارس .

كان السكون مؤثراً بليغاً فى هذا المكان ، والسهول القاحلة الجدباء تمتد بعيداً إلى أن تتصل بسلسلة طويلة من جبال شائكة ذوات قمم شاهقة .
وامتد ناظرى إلى منحدر وعر فى أحد الجبال ، تشرف عليه صخرة ضخمة

تشبه مقبض خنجر هائل ، مما دعا البحارة الذين كانوا يمسحون هـذه السواحل بأن يطلقوا عليها اسم « صخرة برنيس » . وكان الرمل يكسو كل شيء ، وقد امتد كبحر مستو لا آخر له .

وليس من شك فى أن مناخ هذه المنطقة قد تغير تغيراً كليا فى خلال آلاف السنين الماضية . فقد كان فى الزمن الغابر مركزاً لتجارة نشطة ، يسودها العمران وتنبض بالحياة . وما أن جف ماؤها حتى أصبحت قطعة من الموات ، وسط تلك البطاح النارية الجدباء . واحسب أن ذلك المكان المهجور من العالم ، ما هو إلا التهديد المخيف لما قد تصير إليه حضارتنا فى يوم من الأيام ، إذا جفت المياه فى أرضنا .

هذا الغطاء من الرمل الأصفر الممتد إلى ما لا نهاية ، حيث كانت قبائل كثيرة تعيش فى وقت ما عيشة زاخرة فى بلدان ذات يسر ورخاء ، هذا السكون الشامل المطبق الذى لا يعكره حتى طنين حشرة ، هـذه الجبال الماحلة كأنها هيا كل عظمية تحت سماء من النحاس الأحمر ليس فيها قطرة من ماء ولا تغشاها سحابة عابرة كل هذه الأشياء بدت ساكنة جامدة لا تتغير ، نائمة تحت تأثير عصا ساحر كبير ، كل شيء فيها من لون واحد ، هو تلك الصفرة الميتة التى تتحول إلى لون الذهب عنـد ما تنحدر الشمس إلى المغرب ، فتصبغ السماء بحمرة من الورد والارجوان . وأمام هذا الموات وعلى نقيضه ، يجد المرء الحياة تفيض فى زرقة البحر ، وهدير الموج ، وبياض الزبد الناصع الذى يزيغ البصر ، وهو يترامى على الشاطىء ويهدر فوق الرمال .

على أن المنظر قد تغير تغيراً كليا ، مفاجئا ، بعد أن تركنا خط العرض الثالث والعشرين ، نخفت حرارة الليالى وجف الهواء ، وتخلصت جلودنا من الرطوبة الدائمة والطفح وحكه ، الذي جعل ليالينا عذاباً لا يطاق . نعم بدل كل شيء حتى لـكأنه السحر العجيب ! وكان لم يسبق لرجالى أن

صعدوا فى رحلاتهم شمالا إلى هذا الحد ؛ لذلك تملـكتهم الدهشة من طول الليالى ، وتباطىء الغسـق ، ومن صعود النجم القطبى فى السماء إلى ارتفاع كبير . .

وما إن تغيب الشمس خلف الأفق ، وينفث رمل الصحراء حرارته فى الهواء الشفاف ، حتى يهب نسيم عليل إلى البحر ، ويتساقط ندى ثقيل على كل الأشياء . وانتهزت فرصة ذلك النسيم البرى الخفيف ، فأطلقت العنان للسفينة لتسير فى الليل . وأشهد أنى تهورت قليلا بالسير ليلا فى هذه المياه الخطرة ، فهى ذات شهرة سيئة يعرفها الذين يجوبونها . ولـكن الشهوة التى تملـكتنى فى أن أضرب بسفينتى خفيفاً مفرود القـلاع بعـد كل تلك الأيام المضنية البطيئة ، هذه الشهوة التى لا يعرفها إلا نوتية السفن الشراعية ، كانت من القوة بحيث خفت بجانبها ، بل تلاشى ، صوت الحذر والتبصر . لعمرى . . أليست الحياة شيئاً كئيباً ومملولا إذا استمع الإنسان دائماً لنداء العقل ؟ بلى . . وانه لخير للمرء — فى بعض الأحيان — أن يكون أرعن متهوراً . على أنه ما من شىء أصابنا عقاباً على هذا التهور ، فانسابت السفينة بنا خفيفة ميلا بعد ميل ، على صفحة الخليج الهادىء ، هادفة نحو الشمال الغربى تحرسها الرياح الدائمة ، مما جعل قلبى يغنى طرباً وأملا .

وعند الظهيرة كنا فى قلب البحر ، والطقس لا يزال جميلا لطيفاً ، فنشرت أجنحة السفينة كلها ، فسارت سيراً حثيثاً كما لو كانت سفينة تجارية ، حتى إن البحارة ، وليس لديهم ما يعمـلونه ، تجمعوا فى ظلال الأشرعة يلهون لهواً يسخر منه على الشاطىء صبية فى سن الثامنة . فى مثل تلك اللحظات ، يثير الاهتمام الشديد أقل شىء أو أتفه حادثة ، حتى ولو كان ذلك رؤية لوح من الخشب القديم يطفو على سطح الماء . ولولا التراخى الكسول اللذيذ الذى كنا نستمتع به فى ذلك الطقس البديع ، لما اهتممنا

قط بأن نلتقط هـذا الشيء الذى رأيناه طافيا على بعد قليل منا ، وقد ظهر
لنا بعد ذلك أنه صندوق فارغ فى حالة جيدة ، وقد نزع غطاؤه بعد أن
أفرغت محتوياته . ووجدناه مملوءاً بصغار السمك التى اكتشفت فيه ملجأ
يقيها أعداءها . ويا أسفاه على هاته الأسماك التى لم تكن تحسب أنها
استبدلت ميتة بميتـة ، فالتهمناها مقلية بدل أن تبتلعها كبار الأسماك
نيئة . ولـكن هذه هى الحياة . يحدث فيها دائماً الشيء الذى لم نـكن
نتوقعه . وفى الحق أنى بالتقاطى هذا الصندوق الخشبى الفارغ قد غيرت
مصيرى وحياتى ، غير مدرك أن القدر قد أرسـله فى طريقى لينقذنى
من خطر محقق ، كان تهورى سيدفعنى إليه . فقد كان خادم السفينة على
وشك أن يقذف به فى النار وقوداً لفرنه بعد أن أذنت له بذلك ، لولا أن
التمع فى ذهنى أنه يحسن بنا لو وضعنا البسـكويت فيه . وقمت ووضعته فى
عنبر السفينة بعد أن ملأته بالـكعك ، بجانب صناديق الحشيش الثمانية التى
كانت مشابهة له فى الشكل والحجم . وخمنت أن الكعك بهذه الطريقة
لن يتهشم ، إذ لم يعـد موضوعا الآن فى زكيبة معرضة لدوس البحارة فى
غدوهم ورواحهم .

وعندما اقترب المساء تحول النسيم إلى الشمال الغربى ، وبدأ يهب فى
شدة ، فودعنا التكاسل اللذيذ ، وعدنا مرة أخرى إلى ذلك العراك مع
البحر والهواء ، وأصبح من الواضح أنه لن يكون لدينا من الفراغ ما سوف
نضيعه فى التقاط صناديق فارغة من الخشب . ومع ذلك فإن الجو لم يكن
فيه سحاب كثيف ، إنما هو ضباب خفيف ينسدل حول الأفق . وعندما
تطلعت إلى الغلالة التى تلف الافق عند مغرب الشمس ، أدركت ما يجذب
السياح إلى شمال أفريقية ، حيث يقفون ليتأملوا الشمس الغاربة خلف
أهرام الجيزة .

الفصل الخامس عشر

الجمارك

هأنذا ألمح من بعيد ، على صخرة قائمة فى منتصف البحر ، منار
« سانجاهانب » الذى كنت أجد باحثاً عنه فى الأيام الماضية ، منتصباً عالياً
كتمثال يلبس رداء مخططاً بالأسود والأبيض .

وواصلنا المسير فى أمل وتطلع مشوق إلى المستقبل ، فمررنا فى منتصف
الليل ، بعد ثلاثة أيام أخر ، بـ « الشقيقتان » وهما جزيرتان صغيرتان
مسطحتان كأنهما مائدتان مرجانيتان فى وسـط البحر ، تتخذ إحداهما
كمنارة للسفن .

ولم يكن ليعكر الصفو فى خاطرى إلا سحابات صغيرة من القلق على
كمية الماء المخزون لدينا ، فبالرغم مما راعيناه من الاقتصاد الشديد فى استهلاكه ،
لم يبق لنا إلا ما يكفى سبعة أيام أخرى على أكثر تقـدير . فرأيت من
الحكمة أن نسارع ونختزن كمية أخرى من المياه قبل أن نلج خليج السويس ،
حيث لا نستطيع الاتصال بالسكان على أيِ جانب من الخليج . لذلك اعتزمت
أن أعرج على شاطئ جزيرة العرب ، حيث لا خوف من الظهور بنفسى ،
وحيث من المحتمل جداً أن أجد مورد ماء فى سفح جبال عنترة . غير أننا
ما كدنا ننحرف إلى اليسار حتى اشتدت الريح تدفعنا إلى اليمين ، فكان
لزاما علينا أن نغير من طريقنا حتى توافقنا الريح ، ولكنها زادت من شدتها
وعنفوانها ، وما لبثت عند ما حل الغروب حتى تحولت إلى إعصار ، ثار
البحر فيه وغضب ، وقذفنا بأمواج قصـيرة باطشة . وأحسب أن ما من

فائدة فى أن أصف ماحدث بعد ذلك . ويكفى أن أقول أن كل ما لم يكن موثوقا أو مشدوداً إلى السفينة ، انتزع وقذف به بعيداً ، حتى الفرن وفيه عيشنا لا يزال يخبز . وكان هـذا — لسوء الحظ — يعنى أننا سنقصر غذاءنا ، ولأجل طويل ، على التمر والحبوب المسلوقة . ويالها عندئذ من عيشة مبهجة ! وليت الأمر اقتصر على هذا البلاء وحسب ، فقد كانت المصيبة التالية أشد وأنكى . ذلك أن الأطواق التى تحيط ببرميل الماء تآكات من الصدأ ، ثم انفلقت وضاع كل ما كان لدينا من ماء فيما عدا خمسة وعشرين لتراً . ولم يكن ثم من سبيل أمامنا إلا أن نبحر بكل ما لدى السفينة من سرعة « إلى القصير » ، وهى ميناء صغير يواجه « الشقيقتان » . وفكرت لحظة فى الذهاب إلى المنار المقام على إحدى هاتين الجزيرتين لأسأل الحارس بعضاً من الماء ، ولكن البحر الهائج المضطرب كان يجعل من المستحيل على أن أرسو إلى الجزيرة والموج يصطخب حولها من كل جانب ، أو أن أتوجه إلى إحدى البواخر العابرة وأطلب منها ما أريد من الماء .

ليس هناك مفر إذن من أن أرسو فى « القصير » ، وهى ميناء مصرى لا بد أن يكون فيه جمرك وقوة من رجال الضرائب الذين يقومون بتفتيش السفن عندما تدخل المياه المصرية . وقد ملأتنى هذه الفكرة بالتوجس ، حتى كدت أن أعدل عنها وأبحث عن مورد مياه آخر فى أى مكان على ساحل جزيرة العرب . ولكنى لم استطع أن أتصور لنفسى النكوص إلى الجنوب مرة أخرى ، وأضيع عبثاً كل تلك الأميال التى جاهدنا وجالدنا الرياح من أجلها . ولأية مجازفة تحفها الخطورة خير من النكوص والقهقرى . هذا إلى أنى إذا نجوت من تفتيش رجال الجمرك فى « القصير » ، فسيكون هذا بمثابة أكاليل من الغار على رأسى ، وشهادة تكون أكبر عون لى فى مواجهة ماقد يحدث من التفتيش المحتمل فى خليج

السويس اللعين ، الذى يبلغ طوله مائة وثمانين ميلا . هذا فضلا عن أننى إذا وصلت إلى السويس وليس على أوراقى تأشيرات جمركية منذ قيامى من جيبوتى ، شأن بواخر المحيط العابرة القادمة من الشرق الأقصى ، فليس من شك فى أن سفينتى الضئيلة — وهى حمولة عشرة أطنان — ستكون هدفاً لأكبر الشكوك .

وعاودنى خاطر جديد يشير على بأن أرسو فى مكان منفرد على الشاطىء ، أخبىء فيه صناديق الحشيش قبل دخول ميناء القصير . غير أن تلك الفكرة الطارئة ، ما لبثت أن قبرت فى مهدها عند ما لم أجد مخبأ يصلح لذلك على الشاطىء . هذا إلى أنه بصرف النظر عن رداءة الطقس ، فإنه من المحتمل جداً أن يرانى أحد فى هذه البقعة ، فيدعوه هذا للتساؤل عما أفعله . ومتى أثيرت الشكوك ، فإن الأمر سينتهى بكارثة حتما . مرة أخرى كان على أن أمشى إلى الخطر ، مخادعا الناس بجرأتى . لذلك اتخذت هيئة رجل ليس لديه ما يخشاه أو يرهبه ، ودخلت إلى الميناء مقداما جسوراً .

والقصير ميناء صغير جداً لا يتسع إلا للقليل من السفن الساحلية . وقرية القصير ذاتها — أو البلدة إذا أحببت — تتكون من طائفة من المساكن المتداعية ، وإن كان على رصيف الميناء مبنى كبير ذو طلاء أصفر ، له باب مفتوح على مصراعيه ، وبالقرب منه كشك للحراسة يقف عليه جندى مطربش ، وبجانبه مدفعان قديمان مصبوبان من الحديد ، يواجهان البحر ، فى نهاية ممشى نظيف مفروش بالحصى ومحاط بالسلاسل . وأدركت أن فى ذلك البناء يعمل الموظفون واولو الأمر ، الذين يشرفون على شئون الميناء . وهبط قلبى . . . وتمنيت لو استطعت أن أرجع القهقرى ، وأفر عائداً فى سرعة جنونية قبل أن يفوت الوقت ، إذ لا يعلم إلا الله أية مجموعة خطرة من الموظفين تكمن وراء تلك الحيطان الصفراء . ورأيت أمام

الرصيف مركبين كبيرين منزوعى القلوع تقريباً ، يتأرجحان فى كسل وتراخ . وقد أثار اهتمام الميناء كلها وصول سفينتى الشراعية ، بكسائها المختلف عن بقية السفن فى تلك المنطقة ، يرفرف عليها العلم الفرنسى المثلث الألوان .

ولم تمض دقيقتان حتى ازدحم الرصيف بسادة يلبسون الطرابيش ، وهم يلتمعون التماعا . وتدافعوا هنا وهناك ، ثم نزلوا أخيراً فى قارب توجه صوبنا ، بصحبتهم طبيب الجمرك ، وهو شاب مصرى يجلس متكاسلا فى مؤخر القارب ، عليه سيماء الأهمية . ونادانى باللغة الانجليزية ، وهى اللغة الوحيدة التى يتنازل أن يتحدث بها موظف ذو أهمية ، فسألته متواضعاً ، وعلى شفتى بسمة اعتذار عن جسارتى ، عما إذا كان يستطيع أن يتكلم الفرنسية أو حتى العربية . فنظر إلى ببعض الدهشة وترك الهيئة المتعالية ، كأنها لا تنسجم مع اللغتين السوقيتين اللتين أشرت إليهما ، وتحدث معى بالفرنسية . وصعد رجلان إلى ظهر السفينة ، وبعناية فائقة رشا سطحها بعطهر ذى رائحة سيئة نفاذة ، درج أولو الأمر — بالرغم من ارتفاع ثمنه — على استعماله فى السنين الأخيرة فى تطهير السفن التى تعبر القنال ، حتى أصبح أحد الطقوس المضحكة السخيفة . وقد كنت على استعداد لأن أتسامح فى ذلك الرشاش ذى الرائحة النفاذة والثمن المرتفع ، وكل المضايقات الكثيرة الصغيرة التى تخترعها مصلحة الصحة لتأخير السفن وتعويقها ، كنت مستعداً لأن أتسامح فى كل هذا وأن أقبله بابتسامة راضية على أن يتركوا الصناديق الثمانية فى أمان . وعند ما كان الطبيب يبارح السفينة أعلننى فى شبه مفاجأة طيبة ، بأن رجال الجمارك والبوليس سيصعدون السفينة بعد قليل .

ياللجحيم ... لم أكن أتخيل قط أن هذا الميناء الضئيل ، سيكون مكتظا هكذا بكل هذا الحشد من الموظفين . وحتى أكون على استعداد لأسوأ الأمور ، أعددت السفينة وقلوعها ، حتى إذا بدا من رجال الجمرك ما يشير

إلى ارتيابهم فيما أحمل ، نشرت قلوعى وانفلتّ إلى عرض البحر ، حتى ولو كان على سطح السفينة واحد منهم ، فما من ضير فى أن أنزله فى أول ميناء تصادفنا . ولقد كنت واثقاً من أن المفاجأة الجسورة ستأخذهم ، فلا يبدون حراكا ، إذ أنهم لم يعتادوا من السفن التى تخضع لتفتيشهم سوى الذل والخضوع لسخافاتهم وإجراءاتهم المتعسفة ، وإن كنت أدرك أن معنى هذا العمل الجنونى هو أن كل أمل فى دخولى بالحشيش إلى مصر قد ذهب فى الهواء بدداً ...

وأخيراً وصل « لنش » كبير يرفرف عليه علم أخضر جميل ، مكتوب عليه بحروف بيضاء كبيرة تلك الكلمة المحبوبة « الجمارك » ، يحتشد بموظفين مصريين يصحبهم ضابط فى حلة رسمية كاملة ، يلتمع نظافة وأناقة . وما أن اقتربوا من السفينة حتى نادانى بفرنسية صحيحة جداً ، مما دعانى لأن أعتقد أن الطبيب أنبأه بأمرى . ولما ساعدته على الصعود إلى السفينة ، بدا لى أنه لم يكن يهتم جداً بأن يلعب دور الرجل الإنجليزى ، كزميله الطبيب . وسألنى :

— هل لديك أية بضائع ؟

— كلا ليس عندى إلا مؤونة البحارة .

وشعرت بأن على طرف لسانه يتذبذب ذلك السؤال الطبيعى « ماذا تفعل هنا إذن ؟ » لذلك وقبل أن يجد لديه من الوقت ليطلق السؤال من عقاله ، أخبرته أننى صياد يجوب بحار الشرق يستخلص من أعماقها اللآلىء . وهذه حرفة يضفى عليها الخيال روعة ، حتى لينظر الناس إلى حياة صاحبها وأعماله كأنها صفحة من قصص ألف ليلة وليلة ، هذا فضلا عن أن بحارتى من جنس لا يعرفه المصريون ، مما يخلع على وعلى سفينتى لوناً من الرومانتيكية الشائقة . وتتطلع إلى باهتمام وشغف . ولعه اكتشف فى شيئاً جديداً مبهجاً ،

لم يتعود أن يصادفه فى حياته المملولة وعمله السقيم كضابط الجمارك ، وبينما راح مرؤوسوه ، الذين لم يقعوا تحت سحر رومانتيكيتى ، ينقبون فى السفينة بنشاط شغوف ، مثل كلاب صيد تبحث عن جرذان ، ففتحوا أدراج البحارة ، وتحسسوا براميل المياه الفارغة ، وفردوا القلوع الزائدة — وهكذا وهكذا.

وسألته فى نبرة وضعت فيها كل ما استطعت من الحلاوة :

— هل أستطيع أن أحضر على سطح السفينة كل شىء موجود فى العنبر ، حتى أيسر لرجالك أن يفتشوا تفتيشاً دقيقاً ؟

وأجاب بلهجة من يتلهف إلى العود لقصة صيد اللآلىء قائلا :

— كلا . . كلا . . ليس ذلك ضروريا . إفتح هذه الصناديق وحسب . ماذا يكون بها ؟

— كمك لبحارة السفينة . ولك أن ترى بنفسك فقد فتحنا واحداً منها فى هذا الصباح .

وأريته الصندوق الذى سبق أن أرسلته إلينا يد القدر طافيا على وجه الماء . . ثم أضفت :

— وإذا أحببت فإنى أفتح لك الصناديق الباقية . فليس أيسر من هذا . .

وواصلت قولى كمن لا ينتظر إجابة :

— ولدى أيضاً مجموعة قيمة من اللآلىء الثمينة . هل تحب أن أريك إياها ؟

— آه . . هل لديك لآلىء ؟ . .

— أجل وسأريكها . ولكن أظن أنه يحسن بنا أن ننتظر حتى ينتهى رجالك من التفتيش ، فإنى أفضل أن نكون وحدنا . ما أشد رجالك تحمساً فى أداء مهمتهم ! !

— حقاً . إنك مصيب . ومع ذلك فهاهم قد انتهوا . وليس ثمة من ضرورة لفتح الصناديق الأخرى ما دمنا قد رأينا واحداً منها مفتوحاً . والآن هيا بنا لنلق نظرة على لآلئك .

وأرسل رجاله إلى الشاطىء . ولما صرنا منفردين ، أريته مقداراً صغيراً من اللآلىء كنت لحسن الطالع قد استحسنت أن أحضرها معى . ولم يكن رأى من قبل لآلىء فى كوم كبير بهذا الشكل ، فى قطعة من القماش الأحمر ، زادت من روعتها وبريقها . وبالطبع سألنى الأسئلة المتوقعة التى يسألها الهواة دائماً :

— كم تساوى يا ترى هذه اللآلىء . . ؟

وذكرت له رقماً . فأخذ واحدة منها دحرجها فى كف يده بحنان وشغف وتقدير :

— وكم تساوى هذه ؟

ونظرت إليه وابتسمت . ثم بعد صمت قصير قلت :

— دعنا نقول إنها تساوى شرف التعرف إليك . وإنى لأتشرف حقاً إذا قبلتها كتذكار لزيارتى للقصير .

واحتج احتجاجاً ليس صادراً من أعماق قلبه . ولمع السرور فى محياه :

— أظن أنك أصطدت هذه اللآلىء فى مياه مصرية ؟

وأجبته عفوا واعتباطا :

— نعم . . نعم . . فى المياه المصرية .

— حسنا . . إذن فلن تدفع عليها رسوم . على الأقل هذا ما أظنه ، فهذه مسألة لم تصادفنا قبل الآن . على أنه يحسن بك ألا تتحدث عن هذه اللآلىء عندما تصل إلى السويس . ولأفضل أن تحملها فى جيبك دائماً .

ثم دعانى بعد ذلك لأن أنزل إلى الشاطىء ، وازور قومندان البوليس .

وفى دقائق قليلة أصبحنا أصدقاء متفانين ، كلصين فى منسر واحد . وأخذت معى إلى الشاطىء إثنين من الصوماليين ، حتى يستلفتا أنظار مضيفى بلونهما الرائع وزيهما الغريب ، فيشغلانه عن التفكير العميق فى أمرى . وعرفت أن صديقى هو رئيس الجمرك . وكان شاباً سميناً ، مصرياً جداً ، وشرقياً حقاً . . ما إن تبادلنا بضع كلمات باللغة العربية ، حتى تبدت شرقيته واضحة للعيان . ودهش عندما سمع رجالى ينادوننى « عبد الحى » ، وكاد أن يصعق عندما أنبأته بعدم اكتراث بأننى مسلم ، إلا أن هذا سرعان ما قرب بيننا وأزاح من على كاهله عبئاً ثقيلا . وقبلت دعوته إلى تناول العشاء فى منزله هذا المساء .

وعندما وصلنا إلى بيته تكشفت مصريته القحة ، فخلع حلته العسكرية ، وارتدى غندورة طويلة من الحرير ، ووضع رجليه فى شبشب ، ثم تراخى فى ترف بين وسائد طرية على الأريكة ، وأحضر خادمه النارجيلة والقهوة التركية التقليدية ، مع حشد من الأطباق الصغيرة فيها أنواع من اللحوم مقلية ، وطرائف لذيذة أخرى مطبوخة بالطريقة المصرية . ووصل الطبيب وجلس دون كلفة ، يدخن النارجيلة ويأكل فى تكاسل بأصابعه من أطباق اللحم المقلى . ودار الحديث باللغة العربية . وتساءلت فى سرى : « أين يا ترى مظهر ذلك الإنجليزى الأصيل الذى طالعنا منذ ساعة أو ساعتين ! »

وعندما دارت النارجيلة وجاء دورى ، اتخذت مظهر الرجل البرىء وسألت بسذاجة .

— ما هذا ؟ . . أيكون حشيشاً ؟ ؟ . .

وأجاب ضابط الجمرك ، نصف ضاحك ، نصف مأخوذ :

— يا لك من مسكين . . ألا تعرف أن الحشيش محظور فى مصر ؟

وضحكت . .

— حقاً ! . . لم أكن أعلم . ومع ذلك فقد قرأت أنهم يدخنونه فى مصر . وقد كنت أحب أن أرى شكله وكيف يكون .

— بالطبع إنهم يدخنونه ، وبكميات كبيرة . حتى . . . ولكن يجب ألا تتحدث فى هذا الموضوع قط . أن كلمة الحشيش نفسها فى مصر كلمة محرمة . .

وابتسم الطبيب ولم يقل شيئاً . . . .

ولما كان وقت تناول العشاء لا يزال بعيداً ، فقد ذهبنا لنزور قومندان البوليس ، وهو رجل مالطى يسعى ليكون انجليزياً أكثر من الإنجليز أنفسهم . وككل المالطيين الموظفين فى مصالح الحكومة ، تراه يبدى ترفعا وازدراء باديين لكل ما هو مصرى ، ويتحدث إلى المصريين بتلك اللهجة المؤدبة الباردة ، التى يلقيها السيد لخادم مدرب ، يأمره بأمر ما دون أن يتنازل لأن يوجه بصره إليه .

وكانت ردهة بيته تملؤها مضارب التنس والجولف ، وعلى جدرانها رسوم من الحياة الانجليزية . ودخلنا غرفة الاستقبال بنافذتها الواسعة الرحيبة ، فوجدت فيها كراسى مريحة ، وويسكى وصودا ، وغليونات ورائحة تبغ من فرجينيا ، وسحباً من الدخان منعقدة تأتى من خلف جريدة التيمس . وما لبثت الصحيفة أن خفضت ، وتنازل قومندان البوليس بأن يعترف بوجودنا فى حضرته . وما كان ثمة إمارة فى مظهره تدل على انجليزيته ، إلا شعار جامعة أكسفورد مطبوع على جيب سترته الرياضية . وكان أسمر اللون ، زيتى البشرة ، كأنه رجل من بوليفيا . ولو أن ذقنه كانت محلوقة بدقة وعناية ، إلا أنها كانت خضراء حتى عظمة خده . له حواجب كثة ، وعيون فاحمة السواد ، وأنف كبير بخياشيم واسعة مشعرة ، لم أستطع ان أحول نظرى عنها . وكان يتكلم الإيطالية بصوت

نحاسى بلهجة أهل الجنوب ، ذكرتنى فوراً بالنوتية المالطيين ذوى
اللسان السليط .

وعندما دخلنا الغرفة ، تسللت إلى خياشيمى ، عدا رائحة تبغ فرجينيا ،
رائحة أخرى أعادت إلى ذهنى منظر المزرعة فى « ستينو » ، عندما حرق
بتروس كاراماتوس شيئاً تحت أنفى . ودخل فى التو خادم يلبس ملابس
الصبية الذين يستخدمهم الانجليز فى عدن ، ليزيل نارجيلة كبيرة الحجم . . .
إحم . . إحم . . لم يعد لدى أدنى شك فيما كان يدخنه ذلك المالطى ، عندما
دخلنا عليه غرفته . وقد رده صديقى إلى راحته عندما طلب منه أن يستمر
فى تدخين نارجيلته . فنحى القومندان غليونه الثمين — وقد لاحظت أنه
من صنع متجر شهير فى لندن — الذى أحسب أنه لم يشعله إلا عند
دخولنا ، وأعاد مبسم النارجيلة بين شفتيه .

ومرة أخرى كان علينا أن نأكل الطرائف والمقليات بأصابعنا . وبدأت
أتحدث عن صيد اللآلىء والغطاسين وقروش البحر وغير ذلك . وسألونى
أن أحضر الصوماليين اللذين تركتهما خارج الباب . وما إن دخلا حتى
صوب إليهما القومندان نظرة فاحصة غريبـة ، ومد من خياشيمه كأنه
يحاول أن يشتم رائحة غريبة فيهما . وبلغ من دهشته عند مرآهما أن نسى
قشرته الأوروبية الزائفة ، وعاد إلى شرقيته فوراً ، وتجشأ بصوت عال
متخلصاً من ضغط غازات أكلة من الفجل . وأحسب أن هذا الصوت غير
الإرادى ، غير الإنجليزى ، أعاده إلى أرض الحقيقة ، فأراد أن يستر الموقف
بنوبة من السعال ولبضع لحظات عاد إلى دور ذلك الإنجليزى الجامد
المتحفظ ، حين بدأ يدير الجراموفون الذى لا يمكن تجنبه . وقبل أن
أغادر منزله اهديت إليه لؤلؤة . . . .

وأثناء العشاء فى بيت ضابط الجمرك تحدثنا عن التجارة والأعمال فقال :

— كان ينبغى لك أن تحضر معك من الحبشة حمولة من البن ، فثمنه
هنا ثلاثة أضعاف ثمنه فى جيبوتى . ولو فعلت لكنت قد ساعدتك فى
التهرب من الضريبة المقررة . وتصور أية صفقة رابحة تكون . .
وهكذا . . وهكذا . .

ثم تكلمنا عن التجارة وشئونها نحواً من ساعتين ، لكن كلمة الحشيش
لم تجر على لسان واحد منا قط . كانت كلمة ممنوعة محرمة . . ومن الجلى أن
ضابط الجمرك كان يحسبنى أبله ، لا يعرف شيئاً عن هذه السلعة الثمينة ، هذا
فضلا عن أنه يعرف أن الحشيش يرد إلى مصر دائماً من الشمال ، وعن
طريق اليونانيين الذين احتكروه ، فيكون إذن من السخف أن يتحدث
عن الحشيش إلى رجل فرنسى . .

وقبل أن أغادره زودنى بخطاب توصية حار إلى أحد أصدقائه فى
جمرك السويس .

وفى اليوم التالى نشرت قلوع مركبى وقد استخفنى الفرح ، فأوراقى
مختومة كما يجب ، وبراميلى مملوءة ماء مقطراً ، هذا إلى حمولة تامة من
خضروات طازجة مجلوبة من مناطق بعيدة يرويها النيل ، ذلك النهر
الكريم . . .

الفصل السادس عشر

طرازان من الانجليز

بدأت الريح فى أول الأمر سهلة القياد ، فاستطعت أن أجد فى السير نحو الشمال ، ولكن ما كاد الظلام يسدل ستره حتى انقلب الجو مرة أخرى ، وعنف البحر ، وخشنت الريح ، فانثنيت أسير محاذيا الشاطىء . ولثلاثة أيام ظللت أكافح رياحاً غاضبة ، كان البحر فى خلالها مفلوت العنان يكاد أن يبتلعنا فى جوفه الكبير ، فلم نستطع أن نقطع أكثر من أميال قليلة فى خلال يومين كاملين ، حتى بدأت أتساءل عما إذا كان من الممكن لى أن أدخل خليج السويس عن طريق مضيق جوبال ، الذى بدا صعب المراس مثل باب المندب تماماً . ولكنى رأيت على خريطتى أرخبيلات وتيها من الجزر المرجانية فى خليج جمصه إلى الغرب من المضيق ، وفكرت أنه قد يكون آمن لى أن أسير خلال هذا الأرخبيل ، من أن أواجه تلك الأمواج الخطرة المتقطعة التى تسببها الرياح الشمالية الغربية بين جزيرة « شادوين » وساحل جزيرة العرب ، كما بدالى أنه غير مجد أن أواصل هذا الكفاح المتعب ، فارتأيت ألا أبحر فى الليل ، وأن أبحث عن ملجأ آوى إليه خلف جزر سفاجة ، فى ذلك الخليج الكبير الذى يمتد إلى سفح جبل رائع كالصورة . وكانت الجبال فى هذه المنطقة لا يزال لها الطابع المألوف فى رحلتنا ، جرداء موحشة ، حتى لكأنها هياكل عظمية للجبال ، ذات قمم كالإبر الهائلة ، شامخة فى الفضاء إلى حد يبعث الدوار ، تشقها وديان ضيقة تخترقها أنهار من الحصى تؤدى إلى البحر .

وتميزت على إحدى الجزر مبانى واطئة خمنت أنها لمنجم بترول ، وعلى مقربة منها أكواخ خشبية تحف بمدخنة طويلة لمصنع متداع ، وتميزت أيضاً العربات الهوائية المعلقة التى تسير على أسلاك فى الفضاء . وكانت الجزيرة مهجورة بالرغم مما فيها من صقالات حول آبار الزيت ، وأرغمت إزاء الأحوال الجوية السيئة أن اعتصم بعضاً من الوقت فى هذه الجزيرة ، كملجأ يقينا الرياح . وانتهزت تلك الفرصة السانحة لأصلح حبال السفينة ، وأؤدى ألف عمل وعمل كنت أؤجلها دائماً متعللا بمختلف المعاذير . وتأملت الفضاء الواسع الرحيب ، ورحت أنهل مما يحوط المكان من جمال قديم رائع ، هو جمال العزلة والوحدة الشاملة ، جاءت هذه المصانع والورش البشعة فكادت أن تقضى عليه وتلوثه ، فأصبح يخيم عليه الآن نوع لا يوصف من الكآبة والغم . ومع ذلك فقد بقيت للمكان ألوانه الروائع ، حتى كنت أجد نفسى كل مساء مبهور الأنفاس ، مأخوذ اللب من جديد ، وأنا أرى الألوان الخلابة الرائعة تتمتم فيها نبرات جميلة رقيقة . صور تبدو كأنها غير حقيقية ، غير محسوسة ، حتى ليصعب على المرء أن يجد لها إسماً أو وصفاً ، وليس ثم من قرين لها إلاهنا على شواطىء البحر الأحمر الشمالية ...

ولما استمرت الرياح فى هبوبها العنيف لا تهدأ ولا تلين ، اضطررت أن أعترف لنفسى أن لا بد أن يكون هذا هو هبوبها المعتاد ، وأنه ليس من سبيل إلا أن أواصل سيرى بأية وسيلة كانت ، فأبحر نهاراً بين تيه الجزر المرجانية والشعاب المعقدة ، مستعيناً بهدوء تلك المياه الداخلية واعتدال النسيم الذى يهب من البر ، ومعوضاً ما أخسره من التوقف وعدم السير ليلا . وأعتقد أنه ما من جدوى فى أن أصف الأيام التى تلت ، وكيف قضيناها فى مناورات دقيقة لنسوس المركب فى هذا الخليج الضيق المعتلج بالصخور المرجانية .

واستيقظت ذات صباح لأكتشف أن مشكلة مياه الشرب تهددنا عوداً على بدء . إنها الكارثة لا ريب فيها ، فقد انفجرت إطارات برميلين آخرين من براميل المياه ، بعد أن أكلها الصدأ كما حدث للبرميل الأول . كارثة تهدد حقاً . . فليس فى المنطقة كلها مورد واحد للماء ، وكان لزاماً علينا أن نقطّر ماء البحر حتى نستطيع شربه ، إذ لم يكن ثم من أمل فى أن نحصل على ماء قبل أن نصل إلى السويس . وربطت ضلوع البراميل الباقية بحبال وثيقة ، ومع ذلك فقد ظلت أمامى المشكلة المرعبة تتطلب حلا . ولم أجد أمامى إلا طريقاً واحداً ، وهو أن أذهب لأطلب ماء من إحدى الخيام الكثيرة المقامة حول آبار البترول . وللوصول إلى أقرب نقطة كان علينا أن نبحر فى مواجهة ريح عاتية فى خليج ضيق . وقد استنفد هذا من النوتية محاولات مرهقة ، ومناورات معقدة غاية التعقيد . وعندما وصلنا إلى مكان يدعى « ابو منقار » رأيت على الشاطىء خزانات معدنية لتخزين البترول ، وآلات ميكانيكية كثيرة مبعثرة ، وأنابيب سوداء كبيرة الحجم ، ممدودة فوق الرمال ثم تختفى فى جوف الأرض ، وكان يملأ الجو رائحة مرعبة من النفط . وألقينا مرسانا فى فجوة ملائمة فلم يبد أن أحداً من الذين على الشاطىء أعارنا التفاتاً ما ، وأخذ الحمالون يدفعون عرباتهم الصغيرة ويتسلون برفع عقيرتهم بالغناء حتى لا يناموا . وأخيراً اقترب منا عامل أوربى فى قميص كاكى وبنطلون أزرق ، وأشار إلينا بأن نذهب بعيداً . وعلى كثب من هذا العامل رأيت رجلين يغلب أنهما انجليزيان ، بقبعات شمسية وسراويل قصيرة ، يرقبان تنفيذ ما أشار به تابعهما . فماذا عساى أن أفعل ؟ ورسوت فى مكان آخر ، وصعدت إلى الشاطىء معتزما أن أتحدث إلى هذين الإنجليزيين غير المكترثين . ولكن العامل الذى أشار لنا أول مرة ، اعترضنى هذه المرة أيضاً . وكانت هيئته توحى بأنه

مقدم العمال ، من ذلك الطراز الكلاسيكى للعامل فى الموانىء المصرية ، الذى يتكلم كل لغات حوض البحر الأبيض ، ويصعب على المرء أن يحدد ما إذا كان مالطياً أو يونانياً أو إيطالياً ، ففى لهجته خليط من هذه الألسنة الثلاثة حتى لو تكلم واحداً منها فقط . ولعلنا لن نكون بعيدين عن الصواب إذا أسميناها اللهجة المصرية . وسألنى فى نبرة جافة :

— ماذا تريد ؟

— أريد أولا أن أقابل السيد الذى يشرف على العمل هنا .

— ليس المدير موجودا الآن ، فهو عند الآبار التى تبعد خمسة أميال من هنا ويستغرق الوصول إليها ساعة بالمركبة .

— ومن يكون هذان السيدان ؟

— مهندسان انجليزيان .

وعندما قلت له إنى أريد بعض المؤن ، شرح لى فى إسهاب إنه من غير المستطاع أن أحصل على شىء إلا من المنجم ، حيث يوجد مقصف يستطيع الإنسان أن يشترى منه أى شىء ، إنما من اللازم الحصول على ترخيص بالذهاب إلى هذا المنجم .

وقدمت نفسى إلى الإنجليزيين ، فتطلعا إلى فى احتقار وجفاء ، وبذلك الشك المملول الذى تنظر به إلى تاجر أفاق سىء الحظ طرق بابك ليعرض عليك سلعة ما . وإنى لأعرف حقاً هذه التجربة المريرة . ففى أثناء حياتى المليئة بالمغامرات بعت بنّا بهذه الطريقة التجوالية . وطغت على ذهنى فى هذه اللحظة ذكريات كالعلقم ، وقلت للرجلين إننى فرنسى ، وإننى جئت من جيبوتى ، وفصلت لهما الحادثة التى أدت إلى استنزاف الماء ، فاستمعا إلى فى تبسم لا أثر فيها للتعبير أو الشعور ، ثم تنازل أخيراً واحد منهما ونزع الغليون من فمه ، وأجاب فى فرنسية صحيحة مؤلمة :

— غير مسموح للزوار بالدخـول ، ولا أستطيع أن أتحمل مسئولية السماح لك بالذهاب إلى المنجم . وعليك إذا شئت أن ترسل طلباً بذلك إلى أولى الأمر فى القاهرة .

فرجوتهما ملحاً أن يعطيانى ماء على الأقل ، مادام ليس ثم مورد له على الشاطىء ، وإنه ليس فى أى بقعة من العالم من يصد مخلوقا يطلب ماء حتى ولو كان كلباً .

ولـكنه رد فى إيجاز قائلا :

— مستحيل .

وليبين لى أنه قال كل ماديه ، أعاد الغليون إلى فمه كأنما يقفل بابا . وأدار ظهره إلى ، فلم أدر إلا وأنا أقذفه بمجموعة مختارة من الإهانات والشتائم أهدىء بها غضبى الثائر وكرامتى المجروحة ، ولـكنه بدا كمن توقف عن فهم كلمة واحدة من الفرنسية ، وعاود بكل هدوء وبرود دراسته للخريطة التى كان ممسكا بها زميله ؛ مفتوحـة على ظهر خادم أسود يتخـذانه كلوحة آدمية .

وعند ما عدت إلى الرصيف ، رأيت باخرة صغيرة قديمة يستعملونها كقاطرة تخرج فى دوريات حول آبار الزيت فى خليج جمصة ، وربانها واحد من أولئك الرجال ذوى الجنسيات المختلطة غير المحددة ، إلا أنه كان بحاراً كريماً فلم يعطنى ماء وحسب ، بل أمدنى برغيف وبطاطس .

وأغثّ علىّ المكان بما فيه من رائحة البترول وضوضاء المصانع ، ومرأى هذه الآلات يشرف عليها رجال مقطبو الوجوه كالحوها . وإذ عشت مانيف عن شهر فى أحضان الطبيعة الحرة الواسعة ، مع الصحراء والبحر والهواء ، فقد عانيت آلام الخيبة عند ما فتحت عينى لأجد ذلك السحر يزول برؤية هؤلاء الآدميين التعساء ... إنه المنظر لا يزال كما هو ، بيد أن الروح النورانية

التى أضفاها خيالى عليه قد ذهبت وتلاشت . عند ما كنت وحيداً بين هذه الأصقاع المنعزلة ، كنت أحس بنفسى منفرداً وسط هذه الدنيا الرحيبة الواسعة ، التى تدفعنى فيها نوازع غامضة لأن أطلق نفسى على سجيتها وأهيم فى عالم حر طليق . .

ألا ويل لذلك الإنسان الذى وجد السعادة فى اتصال روحى علوى بالطبيعة ، فهو فى كل مرة يضطر إلى أن يعود ليعيش مع القطيع سيعانى شقاء عزلة رهيبة مخيفة . . .

يممت دفة السفينة بعـد ذلك نحو ساحل جزيرة العرب ، مادام الشاطىء الأسيوى لا تلوثه المصانع والمناجم ، ولا خوف من أن يجد المرء فيه آلات بشعة ، أو يلتقى مع مهندسين إنجليز جفاف الطبع . ولـكنى أدركت أنه فى أقل من ساعتين سيهبط الظلام ، ولن أجد لدي وقتاً للوصول إلى الشاطىء والرسو فيه . وظننت أنه قد يكون من الأحسن لو استطعت أن أدخل مضيق جوبال فى أثناء الليل ، فلعل الريح أن تخفف من حدتها قليلا . غير أن هذه آمال خداعة كشباك الصيد ، والحقيقة شىء يختلف دائماً عما نؤمل ، فإننا ماكدنا نستدير حول الطرف الجنوبى لجزيرة « شادوين » ، حتى كان الليل قد بدأ يهبط . ورأيت هذه الجزيرة الجبلية تحرس مدخل خليج السويس ، كما تحرس جزيرة « بريم » مضيق باب المندب . وقد أقيمت منارة ذات مصابيح حمراء على أقصى نقطة فى جنوبها ، لترشد السفن الداخلة فى الخليج إلى موقع المضيق .

وعند ما قربت من الجزيرة ، ساعدتنى آخر خيوط الغسق على تميز البرج الشامخ القائم عند سفح الجبل ، وبالقرب منه بيت صغير مربع يعيش فيه حارس النار . هذا الراهب القائم على صخرته المنعزلة ، يجد ملهاته أيضاً فى مراقبة كل شىء يبدو على سطح الماء ، كما يفعل الملاحون خلال رحلة طويلة .

ورأيت تحت البيت رصيفاً خشبياً صغيراً مبنياً فى داخل البحر ، لعله المرسى الذى تستند إليه القوارب التى تحمل المؤن إلى الحارس . ويزعم البحارة المصريون أن هناك حيوانات بحرية عجيبة تعيش حول هذه الجزيره ، بل إن بعضهم ذهب إلى حد القول بأنه رأى أنثاها وهى ترضع صغارها . ولعل ما رأوه لم يكن سوى أبقار بحريه ، وهى حيوانات ذات شكل غريب نصفها الأعلى يشبه إلى حد ما أجسام الآدميين ، وقد نسج البحارة القدامى حول هذه الأبقار أول أساطيرهم عن عرائس البحر .

وراح محمد موسى يحكى لرفاقه قصصاً جديرة بالأوديسا ، التى لم يسمعوها حرفاً واحداً بدون ريب . والتف حوله زملاؤه يستمعون إلى هذه الحكايات ، مأخوذين بها ، يكادون يأكلون كلماته أكلا ، وقد حملتهم القصص إلى عالم بعيد مسحور ، وأضرمت أخيلتهم بأحلام وصور وهاجة .. وأمام هذه الصخرة التى لا يكاد يراها المرء ، والظلام يتجمع عليها ويغشاها ، وبين هدير الأمواج ، وتلك الصيحات الخائفة الغريبة التى تطلقها طيور النورس وهى تدور وتلتمع فى ألسنة الضوء التى يرسلها مصباح الفنار — فى هذا الجو الغريب تحدث تلك القصص البسيطة الساذجة تأثيرات عظيمة عميقة لا يستطيع أن يصل إليها أى نوع بليغ من الكتابة .

ولعلى أن أكون قد تأثرت أنا أيضاً ، وأخذت بهذا الجو الساحر العجيب الذى خلقه البحارة ، وهم يستمعون بشراهة وهيام إلى صوت محمد موسى الموسيقى ينطلق من بين حجب الظلام . . .

وما أن برزنا من ملجأنا فى الجزيرة ، حتى هبت الريح بجنون شديد ، وخرج البحر إلينا من المضيق فى قوة عارمة ، وأمواج متدافعة سريعة ، فرأيت أنه ما دامت الأحوال الجوية بهذا السوء ، فليس من المأمون على سفينة صغيرة أن تضرب فى هذا الخضم الأسود ، وما علينا إلا أن نرجع

إلى ملجأنا الأول فى الجزيرة ، حتى ينزل الهدوء على الطبيعة الرعناء . وفى حلكة الظلام كان يبدو أنه من المحال أن نصل إلى المرسى الذى نربط فيه السفينة ، فقد أسدل على جانبى الجزيرة ستار كثيف من الظلام تلمع فيه بين آن وآخر الاضواء التى يلقيها مصباح الفنار الأحمر ، التى تتلألأ فيها ، لحظات خاطفة ، نجوم دقيقة هى أجنحة طيور النورس .

فى مثل هذه الظروف كان من المحال أن يحكم المرء على الأبعاد والمسافات . غير أنى رأيت فجأة نجماً متلألئاً صغيراً ، يظهر فوق مستوى البحر ، فأدركت فوراً أنه نور مصباح يحمله إنسان ، فقد كان يعلو ويهبط قليلا ، ويتحرك فى بطء ذات اليمين وذات الشمال ، ويختفى بعض الأحيان خلف الصخور . ثم توقف الضوء عند نقطة ثابتة لا يتحرك . هذه بلا شك إشارة مرسلة إلينا ، ولعلها مرسلة من حارس المنار الذى كان يرقب محاولاتنا العابثة ، فتصاعد الأمل إلى نفوسنا بعد أن خنقنا اليأس . وظللنا نتقدم نحو تلك النقطة الضيئلة لمدة تقرب من الساعة . وكنت أحسب أننا لا نزال بعيداً عن مكان الضوء عند ما رأيت الرصيف يبعد عنا بما يقرب من عشرين ذراعاً فقط . ولمحت رجلا جاثماً على الرصيف ، على أهبة أن يمسك بالحبل الذى سنرميه إليه . وقذفنا إليه الحبال فربط السفينة فى مرسى متين . وقبل أن أستطيع أن أجمع شتات أفكارى المبعثرة ، تناول الرجل مصباحه وبدأ يصعد ظهر الجبل كمواطن مسالم عائد أدراجه فى المساء ليأوى إلى فراشه . وبينما كان يصعد المرتفع أرسل إلى تحيته فى صوت ودود : « طاب ليلكم » . . . راقبت الرجل بمصباحه المضىء وهو يصعد جانب الجبل حتى اختفى . هذا طراز آخر من الرجل الإنجليزى . . فتى طيب . . راهب وبحار معاً . . وبارحنا مرسانا فى صباح اليوم التالى متجهين صوب الشمال . وظللنا نضرب فى طريقنا المائى الكبير بدون حادث يذكر . واعتدل الجو قليلا

وطاب النسيم الذى يهب من البر ، يرسل الرعشة اللطيفة إلى أجساد الذين جاءوا من المناطق الاستوائية الحارقة . وكان علينا أن نغذ فى السير مادام موعدنا فى الثامن عشر من أغسطس يقترب مسرعا . ليس من سبيل إذن إلى التلكؤ فى انتظار ريح مواتية ، بل ينبغى أن نصعد إلى الشمال بأى ثمن حتى نصل فى الموعد المضروب ، أو على الأقل لا نتأخر عنه كثيراً .

واستيقظت ذات ليلة على صوت البحارة وهم يتصايحون فى فرح وقمت أستطلع الخبر . فرأيت أنواراً بيضاء تلمع فى الأفق ، وبين حين وآخر يشق كبد السماء لسان من النور . إذن فقد وصلنا إلى السويس ، وهذا هو السادس عشر من أغسطس ، أى أننا ظللنا فى البحر ستة وثلاثين يوما . ولقد وعدت ألكسندروس أن أقابله فى الثامن عشر من أغسطس ، وكما قلت من قبل ، كنت قد حددت هذا الموعد لأبدو فى ناظريه رجل أعمال بالغ الثقة بنفسه ، وإن لم يكن لدى فى الواقع أدنى أمل فى أن أصل فى الموعد المضروب . وأحسب أيضاً أنه لم يأخذ التاريخ على أنه موعد جدى . وهأنذا فى الميعاد الذى حددت . شىء مسل حقاً ..

والآن وقد أوشكت الرحلة على نهايتها ، شعرت بقدر كبير من الراحة وفى الحق لقد أنستنى متاعب الملاحة الدائمة ، والغرائب المتجددة على الشاطىء ، والمفاجآت الكثيرة المتعددة ، هدف الرحلة الأساسى وما أبغيه من ورائها . . الآن أجد نفسى مضطراً إلى أن أفكر فى هذا الجانب ، بعد أن انتهى الجانب الآخر — الجانب الرياضى المغامر من الرحلة . الآن حان وقت العمل ، فقد وضعت مستقبلى ومالى فى هذه المضاربة ، وفى تلك الصناديق الثمانية الموضوعة فى قاع السفين . فإذا أخفقت فليس يعنى هذا إلا التلف والبوار ...

وداعاً للبحر العظيم والهواء الطلق . ووداعا للحياة الفسيحة الحرة التى طالما عشقتها ، لأنى سأكون ، لفترة قد تطول ، مرغم الأنف على قبول حياة العبودية بين جدران سجن تعس كئيب ، وسانقلب إلى شر من حيوان أو بهيم . وقد أعاد إلى هذا التأمل كل شجاعتى وهمتى ، اللتين كانتا قد تراختا للحظات قصيرة ، عندما تصورت أنى سأنزل إلى الشاطىء لأختلط برجال يتعيشون من وراء عمل قذر ، ويحاربون بأسلحة أكره أن أحارب بها ، وتذكرت تلك المشارب اليونانية التى ألقيت عليها لمحات سريعة فى السويس ، والحان الذى زرته فى بيريه . وثبت فى معتقدى أن كل من رأيتهم ولقيتهم فى تلك الأماكن ، كانوا ذوى وجوه شريرة ، وسحن آثمة ..

ترى هل أكون فى حلم ، وما هى إلا سويعات تكون بعدها اليقظة المؤلمة ؟ ..

إن الأخطار الحقيقية على وشك أن تبدأ . وإنى لأرتجف من تلك الأخطار وأهابها هياباً لاحد له .. إنى أخشاها أكثر من الرحلة المغامرة التى انتهيت منها الآن ، لأنى سأضطر أن أحارب الجبن ، والجشع ، والخداع ، حربا ملتوية دنيئة تدور فى أقذار بالوعة ..

الفصل السابع عشر

المخبأ

حين طلع النهار لمحت شراعاً صغيراً يغادر الساحل الأسيوى ، لعله أن يكون قارب صيد ينتظر ريحاً مواتية . وكنا لا نزال على مسيرة ثلاثين ميلا من السويس ؛ فلم يكن فى وسعنا أن نرى الأشياء بوضوح . وتبادر إلى رؤوس البحارة أن يصعد كل واحد بدوره إلى أعلى صار فى السفينة ليلقى نظرة شاملة على المدينة التى طالما كانت محوراً لحديثنا . هذا الهدف الذى بلغناه بعد الكثير من الكفاح الشاق . ويجدر بى أن أقول إنى قررت منذ وقت طويل ألا أدخل الميناء ببضاعتى . فإننى وإن كنت دخلت بها القصير ومررت من جمركها ، فليس فى هذا ضمان بأننى سأكون بمنجاة من التفتيش فى جمرك السويس . فما من بلد تحليه قشرة خفيفة من المدنية ، إلا ويتوهم الموظفون فيه أنهم لا يقومون بواجبهم كما ينبغى ، ولا يبررون ما لديهم من سيطرة ونفوذ ، إلا إذا جعلوا من أنفسهم مصدر قلق وتعب للناس . لذلك عزمت على أن أقلد السلحفاة ، فأبحث عن مكان مهجور على الشاطىء أخبىء كنوزى فى رماله . غير أن ذلك الشراع الأبيض الذى رأيته منذ هنيهة هدد بالفشل المشروع الذى وضعته ، ولولاه لاقتربت من الشاطىء واستودعت الرمال صناديقى العزيزة . بيد أنى رأيت أنه يحسن بى أن أدعه يمر ، ولنر ما يكون من الأمر بعد ذلك . واحتضنت الريح حتى تتباطأ السفينة فى سيرها ، ريثما يختفى هؤلاء الصيادون المتعبون ، ولكن وا أسفاه . . . لقد اتضح لى أن سفينتى هى التى تثير اهتمامهم ، لأنهم

اقتربوا ثم اقتربوا حتى صاروا على بعد قليل جداً لا يتجاوز قامتين . وتأملت مركبهم فوجدته من النوع الذى سبق أن رأيته فى السويس يحوم حول عابرات المحيط الكبيرة . واستطعت أن أتميز رجاله ، فوجدتهم ستة كلهم فى جلابيب زرقاء وعمامات صغيرة بيضاء ، يجلسون القرفصاء على سطح القارب وعيونهم تحدق فينا . واستمر القارب متجهاً إلى الشمال الغربى ، بينما أطلقت العنان لسفينتنا لتسير فى الاتجاه المضاد ، حتى إذا اختفى القارب وجهت الدفة إلى الشاطىء الأسيوى . وكانت الريح رخاء طيعة ، حتى قدرت أننا نستطيع أن نخبىء صناديقنا قبل أن يهبط الظلام .

واستطعنا أن نرى فوق الأفق خزانات البترول العالية فى بور توفيق ، وأعالى الصوارى فى السفن الكبيرة محددة على صفحة السماء . وأخيراً بدت المدينة البيضاء ذاتها . ولما أدركت أننا وصلنا إلى مكان مأمون ، انحرفت بالسفينة نحو الشرق ، حيث لم يكن يبعد عنا الساحل الأسيوى بأكثر من عشرة أميال . ولكن على حين بغتة برزت من الشمال مجموعة من الأشرعة البيضاء ، تسبح كأنها سحابة من الفراشات تطير مع الهواء . هذه أيضاً قوارب صيد تبارح السويس كل يوم فى الظهيرة عندما تثبت الريح ، وتأتى لتصطاد على سواحل الخليج جنوب المدينة بخمسة عشر أو عشرين ميلا . وفى أقل من ثلاثة أرباع الساعة كانت هذه القوارب تقف بيننا وبين الساحل الأسيوى ، وراح البعض منها يخفض شراعه استعداداً للبدء فى الصيد . إذن فليس ثمة فائدة من البحث عن مخبأ فى هذا الشاطىء ، وهؤلاء الصيادون لن يبارحوا مكانهم قبل صباح اليوم التالى . وخفت أنى إذا غلبنى التهور وبدأت فى أية محاولة من المحاولات فسيلفت هذا أنظارهم ، ويدركون أن سفينتى ليست من سفن الأسطول التجارى الذى يجول فى الخليج ، وأنه لن يأتى اليوم التالى حتى أكون

وسفينتى محور الحديث على كل الشفاه فى المقاهى البلدية التى يغشاها البحارة .
وإذن فما على إلا أن أعود من حيث أتيت . ووجهت الدفة إلى الغرب ، فى الاتجاه الذى كان يسلكه القارب الذى لمحناه هذا الصباح . وأدركت فوراً أن هذا القارب لا يشبه البتة تلك القوارب التى رأيناها الساعة ، فهو مختلف عنها طرازاً وحمولة . تلك قوارب صيد حقاً وصدقاً . أما هذا فإن فى حركاته ومناوراته ما يجعل الأمر يبدو غريباً . ففى هذه البلاد يسيطر « الروتين » على كل شىء ، وهو القانون النافذ المتحكم . والابتكار والتجديد شيئان غير مفهومين للقوم . وكل شىء إنما ينفذ طبقاً لتقاليد وأوضاع لا تتبدل قط . وذلك حكم عام ينطبق حتى على الصيد ، فالصياد لا يعمل وفقاً لأفكاره وتطبيقاً لرأى يرتئيه ، وإنما يسير وراء أسلوب محلى تقليدى يتبعه كل صياد آخر . تأكد لى كل هذا من ملاحظة العدد الغفير من القوارب التى بقيت بقرب الساحل الأسيوى . وإذن فهذا القارب المفرد المنعزل ، له غاية أخرى غير السمك وصيده .

وبينما كنت أتجه ناحية الغرب ، راح فكرى يدور تلك الدورة : إن ألكسندروس ينتظر حضورى فى اليوم الثامن عشر الذى حددته موعداً لأوبتى . ونحن الآن فى السابع عشر . وما دام يعلم أنى آت عن طريق البحر بحملى الثمين ، فليس من شك فى أنه يترقب وصولى بين ساعة وأخرى ومعى حمولتى القيمة . ولكن .. ولكن .. ماذا لو كان قد ثرثر بأمرى لرواد تلك المقاهى الغريبة المريبة ؟ وأنا أعلم أنهم قوم كسالى لديهم من الوقت فسحة يحيكون فيها ما شاءوا من مكائد ، وليس عندهم شىء آخر يصنعونه غير نصب الفخاخ . وهم يعرفون البلاد والمدائن ، وعلى اتصال وثيق بالشركاء على شاكلتهم ومن لونهم . ألا ويل لى من فريسة سهلة إذا عرف واحد من تلك الطغمة سرى وسر مركبى ...

وبعد تفكير متصل ، وثقت من أن هذه السفينة كانت مرسلة للبحث عنى . ولكن لم ؟ إنها بدون شك كانت تنتظرنى ، لأنها قربت منى إلى الحد الذى تريد أن تتعرف فيه من شخصيتى ، وبعد أن تأكدت من هذا اختفت .. هل ذهبت لتخطر خفر السواحل بوجودى ؟ كلا .. سيكون هذا شيئاً مضحكا وسخيفاً ، لأنه لن يضع شيئاً فى جيب ألكسندروس ، ما دامت المكافآت التى تعطى من الجمارك للمرشدين تكون عادة بنسبة ريال لكل أقة مضبوطة ، بينما لو اشترى هو بضاعتى فإنه سيربح من وراء ذلك ثلاثة أو أربعة جنيهات فى كل أقة . وهكذا ابتلعنى يم من الافتراضات كلها سخيف . ونفضت نفسى مما أنا فيه من رياضة عقلية خطرة ، قد تدفع إلى اتباع فروض خاطئة لا يمكن تجنبها أو إصلاحها .

هذه هى الحقيقة كما رأيتها : إن سفينة صغيرة كانت ترقبنى وتتلصص على ، ثم لم تلبث أن اختفت حين تأكد لمن فيها أننى أبحر صوب الشمال .

لذلك لم أقف متردداً بل أمعنت فى طريقى ، حتى أبدو لمن يراقبنى عن بعد أننى أبغى السويس . غير أنه ما إن هبط الظلام ، حتى يممت بالسفينة صوب الساحل المصرى ، بالرغم من أننى لم أكن أعرف عن طبيعته شيئاً ، إنما خمنت أنه لابد وأن يكون مهجوراً ، على الأقل فى أثناء الليل .

وبعد أن اختفى الغسق طلع فى السماء قمر جديد ، ثم ما لبث أن اختفى وراء جبل عتاقة الكبير ، وتركنا فى ظلام لا تنيره إلا أضواء النجوم المتلألئة . وظللنا نتحسس قاع الماء حتى نعرف مدى اقترابنا من الشاطىء ، حتى إذا بلغ ارتفاع الماء نحواً من عشرة أقدام خفضنا الأشرعة . وقد فعلنا كل هذه الحركات والمناورات بقدر ما استطعنا من سكون وصمت ، بعد أن زيتنا كل البكر حتى نتحاشى الصرير والخشخشة اللذين يصحبان إنزال الأشرعة . وكان فى طبيعة أحمد من الفيض والحيوية الذاخرة ما لم

يستطع معه أن يحبس نفسه عن إخراج الصيحة تلو الصيحة فى كل مناسبة ، حتى لقد احتاج الأمر منى إلى أن أسدد له لكمة على أذنه ليقلع عن ضوضائه وحماسته . وأنزلنا المرساة باحتراس فانغمست فى الماء ومست الرمال . وهكذا وقفنا بدون حراك ، فى وسط سكون كسكون الموت. وكنا نقطر خلفنا زورقاً أعددته بعد الظهيرة ، لعلمى من طريق التجربة أنه من المستحيل إنزال قارب من السفينة بدون ضوضاء . وفى هذا القارب نزلت مع عابدى وعلى عمر ، فهما الوحيدان اللذان أستطيع أن أعتمد على شجاعتهما وثبات أعصابهما ، فقد كان عابدى يتجاهل الأخطار ويتحداها ، ويعتقد أنه لا يمكن أن يُنال ما دام معى . أما على عمر فقد كانت شجاعته حقيقية خالصة ، ويزين تلك الشجاعة ذكاء ودهاء .

وبرغم ضحالة الماء فى النقطة التى تركنا فيها السفينة ، فإننا كنا لا نزال بعيدين عن الشاطىء . وبعد أن توارى رسم السفينة خلفنا بمسافة طويلة ، لم تبد اليابسة لنا . وعلى حين فجأة توقف على عمر عن التجديف ، وأشار إلى شىء أسود غامض إلى يسارنا بمئآت الأقدام ، فنظرت بنظارتى التى أحضرتها معى فرأيت على حافة الأفق رسم سفينة منزوعة الصارى ليسهل تمويهها وحجبها عن الأبصار . واستطعت بكل يسر أن أرى شراعها مكوماً فى مؤخرتها . عجباً . . . هذه هى المركب التى رأيناها فى الصباح ! ولم أدر لم كانت تتلكأ هناك منزوعة الصارى ، غير أننى كنت واثقاً من شىء واحد ، وهو أن هذه السفينة ليست مشغولة بصيد السمك . ولم يكن من المستطاع أن تكشفنا أو تلمحنا وزورقنا فى مستوى منخفض على سطح الماء ، وانزلقنا إلى اليمين فى سكون ، ثم تلك السفينة من ذلك المدى البعيد . وبعد أن قطعنا نصف ميل فى هذا الضرب من السير الذى يشبه سير الأشباح ، مس قاع الزورق الرمل ، فربطناه فى محاذاة ابتلعنا ظلام الليل .

ثبتناه فى الشاطىء ، وتقدمنا ببطء فى ذلك الماء الضحل ، نخطو ببطء وحذر حتى لا نسبب صوتاً ما . وذعرت ، فى نومها ، بعض الحيوانات المائية اللاسعة ، وبدأت تسبح فى الماء . وخشية أن تصيبنا لسعة سامة من إحداها ، تقدمنا فى بطء وسكون . على أنه بقى هناك الخطر فى أن ندوس إحداها وهى مستوية ونصف مدفونة فى الرمال ، فصمم عابدى على أن يتقدمنا ليكون له شرف إيقاظ النائمات الخطرات .

وأخير وصلنا إلى اليابسة . ولم تكن لدى أية صورة واضحة عن المكان الذى نزلنا فيه ، لأن الليل كان شديد الظلمة فى ظل الجبال التى تحجب جزءاً كبيراً من السماء . وتميزت تحت أقدامنا أرضاً يغطيها الحصى ونتف من الصدف ، وحولنا هنا وهناك كثبان صغيرة بيضاء ، والسكون والمجهول . ومن خلال نظاراتى كنت أستطيع أن أتميز ببعض الصعوبة صوراً غامضة لكثبان أخرى ، مما دعانى لأن أظن أننا فى سهل رملى مهجور . وبدأنا بعناية واهتمام ، نفحص التربة التى تحت أقدامنا ، لنستكشف عما إذا كانت مناسبة لندفن فيها بضاعتنا . وتحسسنا الرمل بأيدينا لنعرف طبيعته ، وفجأة هبط على شعور مرعب مخيف . . ذلك أننى أحسست أنه ولو أن يدى تمس حصى ، إلا أن قدمى تغوصان فى الأرض التى نطأها . وبذلت كثيراً من الجهد لأخلص نفسى ، إلا أننى رايتنى أغوص وأهبط فى الطين النزز حتى وصلت إلى ركبتى . وانقذتنى المصادفة الحسنة إذ وجدت بجوارى كثيباً من الرمال جاهدت لاهثا حتى أدركته ، قبل أن يغوص جسدى كله فى الطين . وحدث لعابدى وعلى عمر مثل ما حدث لى تماماً ، فقررنا أن نعود أدراجنا ما دمنا فوق رمال خداعة لا نعرف مدى عمقها . وأسعفتنا المصادفة الحسنة مرة أخرى ، فاكتشفنا آثار أقدامنا وتبعناها فى عودتنا حتى وصلنا إلى البحر فى أمان . وأشهد أن الحظ الحسن ، وأيم الحق ، كان

يسدد خطانا ، فإننا أدركنا أن النقطة التى هبطنا عندها على الشاطىء لم تكن إلا لسانا ضيقاً من الأرض الصلبة متداخلا فى تربة لينة رخوة كأنها المستنقع . ولست أدرى ماذا كان يحدث لنا لو كنا رسونا فى نقطة أخرى غير ذلك اللسان الصلب . . .

ولقينا بسبب الظلام بعضاً من التاعب حتى اهتدينا إلى السفينة ، وصعدنا إلى ظهرها حوالى الساعة الواحدة تقريباً . فكان لا يزال لدى الوقت لأن أنشر الشراع ، واختفى عن العيون المتطلعة ، قبل ظهور الفجر . فالحق أنه كان يركبنى كابوس من القلق من جراء السفينة التى تحوم حولنا ، والتى لم أستطع أن أجد تفسيراً مقبولا لوجودها بقربنا . وما أن حلت الساعة السابعة صباحاً حتى كنت قد عبرت الخليج ، ورسوت فى الجانب الآخر من الشاطىء الأسيوى على بعد ثلاثمائة قامة من ساحل مهجور فى جنوب « رأس مدور » . وكانت قوارب الصيد قد اختفت ، فهى تقفل راجعة إلى السويس قبل الفجر ، ولن تعود مرة أخرى إلا قبيل الظهر . وكانت الرمال على هذا الشاطىء صلبة جافة ، وتتدرج صاعدة فى منحدر رقيق يؤدى إلى حائط صخرى صغير ، يبعد عشرين ذراعاً عن الساحل . وفى سفح هذا التل الصغير الذى لا يزيد ارتفاعه عن أربعة عشر قدماً ، حفرت حفرة لأضع فيها صناديق الثمانية . وبينما كان رجالى يحفرون ، كنت أدور بمنظارى المعظم مستكشفاً كل بوصة من هذا السهل الفسيح . وتركت للحراسة رجلا أوقفته فوق أكمة صغيرة ، ثم عدت إلى رجالى حيث يحفرون . وفى هذه الأثناء كان صبى النوتية يتسلى لاهيا ، وينتزع من الصخور بعض الأصداف التى انحسرت عنها مياه البحر . وتناولت إحداها وفتحتها فى شىء من الاستطلاع ، ولشد ما كانت دهشتى عندما رأيت بداخلها بعضاً من اللآلىء الصغيرة ! ودونت مالاحظته فى ذاكرتى

الواعية لأفيد منه مستقبلا ، فقد كنت فى هذه اللحظة فى شغل شاغل عن أى شىء آخر إلا أحضار بضاعتى إلى اليابسة .

ولم يكن من المستطاع أن نحضر كل الصناديق الثقيلة مرة واحدة ، فقد كان الزورق لا يتسع لأكثر من صندوق واحد . وهذا يعنى أن عملية إنزال الحشيش إلى الأرض ستستغرق وقتاً طويلا جداً . وخطر لى أنه ما دامت الصناديق مغلفة بالزنك ، فلماذا لا أقذف بها فى البحر فتطفو ويدفعها رجالى بمساعدة النسيم إلى الشاطىء ؟ وفى لحظات قليلة كانت البضاعة طافية فوق سطح الماء يدفعها بحارتى أمامهم فى جذل وانشراح وروح معنوية عالية . وعندما كنا على وشك أن نضعها فى الحفرة التى أعددناها ، دهشت حين شممت رائحة الحشيش المألوفة ، ولاحظت مذعوراً أن الماء الملح الذى يقطر من الصناديق مشبعا إلى حد كبير بتلك الرائحة . وفى لمحة خاطفة أدركت ما حدث . يا لها من كارثة ! لقد تسرب الماء إلى الصناديق التى لعلها لم تغلف جيداً ، أولعل حرارة جيبوتى قد مددت ما تحويه من هواء ، فكان من أثر ذلك أن فك رباطها .

وإذن فليس ببعيد أن تكون البضاعة كلها أصيبت بالتلف ، لأنى أذكر أن بتروس قد حذرنى من أن أدع الحشيش يبتل . ولم يكن هنالك من الوقت ما نضيعه ، فالخطر الأكبر هو تلف البضاعة . وفتحنا الصناديق إلا واحداً منها وجدته سليما . أما السبعة الأخرى فقد ابتلت كل الأكياس التى كانت بداخلها . بيد أن الشمس كانت فى كبد السماء ، وستجفف وشيكا الاربعمائة كيس التى وضعناها فى نظام على الرمل . وفكرت فى الفرحة التى تنزل على أية دورية من خفر السواحل تمر عندئذ فى هذه المنطقة .

وعقدت العزم على أن أمضى فى هذه المغامرة إلى نهايتها ، فليس هناك

من سبيل إلا أن أروض نفسى على تحمل تبعات ما يحدث ، مهما تكون هذه التبعات . وأعترف أنى قد أعدت إلى ذات نفسى ثباتها وهدوءها بعد اتخاذ هذا القرار ، فاحتفظت معى بعابدى وعلى عمر ودنقليين آخرين وبكل الأسلحة التى لدينا ، أما محمد موسى فرجع إلى السفينة مع بقية البحارة . واحتفظت أيضاً بالزورق لنعود به إليهم بعد أن ننجز مهمتنا إذا سمح القدر بإنجازها ، ثم أمرت السفينة بالإبحار بعد ذلك حتى لا تستلفت الأنظار بوجودها على كثب من الشاطىء ، وشددت الزورق إلى الشاطىء وخبأته فى سفح التل . واختفى الآن شراع السفينة ، وبدا كل شىء ساكناً فى نسيم الصباح الصافى . ولم تكن هناك فوق السهول الرملية الفسيحة أية إشارة للحياة مهما تباعد البصر . أما فى داخل البحر فتمر سفن وقوارب للتجارة غير مبالية إلا بالطريق الذى تسلكه .

وباعتناء قلبنا الأكياس مرة أخرى على ظهورها حتى يجف جانباها . ورأيت على عمر راقداً على التل يرقب ويرصد . وما هى إلا هنيهات حتى رأيته ينتصب فجأة ويتسلل إلينا ، وعلى وجهه سحابة من القلق والكمد . وقفز قلبى بين أضلعى كأنى طعنت بخنجر وسألته لاهثاً :

— هل رأيت شيئاً ؟

— ليس على الأرض . ولكن هناك باخرة غير محملة ببضاعة آتية من السويس وقريبة جداً من الشاطىء .

ومن النقطة التى كنت واقفا فيها لم أر إلا دخانا يتصاعد من مدخنتها ، ولما صعدت إلى التل رأيت مدخنة لباخرة صغيرة ذات صار مفرد . ولم أستطع أن أرى هيكلها ، ولكن مدخنتها — وهى صفراء — دلت على أنها من سفن خفر السواحل . هذه سفينة تفتيش ، ولدى رجالها بكل تأكيد منظارات بعيدة المدى . ورميت الأكياس الفارغة فى الخندق . ولما كنت

أخشى أن لن يكون لدينا الوقت لنعيد الأكياس إلى صناديقها ، فإنى غطيتها بطبقة خفيفة من الرمال حتى يستحيل أن يراها أحد على هذا البعد . وجثمنا فى الجزء الباقى من الحفرة حتى لا يبدو منا شىء يلفت الأنظار . واقتربت الباخرة مسرعة وظهر هيكلها الأبيض يؤكد أنها لخفر السواحل . واستطعت أن أتميز أنوارها الكشافة على مقدمتها ، والعلم الحربى على شراعها . وكانت تسير على بعد ميل تقريبا من الشاطىء . ألا أى إلهام موفق ذلك الذى دفعنى لأن أرسل سفينتى بعيداً عن مخبئنا ، فلو أنها تأخرت نصف ساعة لفقدنا كل شىء ، إذ لم يكن هناك ثمة أمل فى الاشتباك مع سفينة حربية من هذا الطراز . ولما مرت قبالتنا خفت أن تقف وتتجه صوبنا . كنت أسمع دقات قلوبنا جميعاً تدق كالمطارق بين ضلوعنا . على أن الأمواج التى كانت تفور وتتدافع حول مقدمها وهى تشق الماء ، دلت على أنها لازالت تندفع فى طريقها . . إنها تمر ... لقد مضت . . إنها لم تر شيئاً .

وتنفس رجالى الصعداء جميعاً وقالوا : « الحمد لله . . . »

خمس دقائق من العذاب الأليم مرت بى ثم انطوت . أيكون ما تصورته من الخطر المهدد وهم خيال سقيم ؟ . . لا أدرى . فالحق أنه إلى جانب إحساسى بالخوف ، كنت أشعر كذلك باطمئنان غريب ، وبأن ما من خطر سيدهمنى . إنه هاجس هجس فى ضميرى أن لا كارثة ستنزل بساحتى . وتذكرت الصندوق الذى التقطناه طافيا على وجه الماء . لماذا أرسلته إلى الاقدار ، إلا أن تكون ساعية إلى إنجاح مشروعى ؟ وأشهد أنه بفضل ما دار فى رأسى من خواطر كهذه قائمة على الاستبشار والتفاؤل ، استطعت أن ألم أطراف شجاعتى فى لحظات الحرج . على أنه حتى هذه الفترة من هدوء البال لم تدم طويلا ، فإنى كنت ثبت عينى على شراعنا وهو فى البحر صوب الجنوب ، فإذا بسفينة خفر السواحل تلمحه وتتجه إليه . أذاهبة هى إلى

سفينتنا لتفتيشها ؟ . . ياسوء الطالع إذا كان الأمر كذلك ! فلو أن ضابطها ألقى نظرة على سفينتنا ، لملأه العجب حين يكتشف تغيب ربانها وأربعة من بحارتها .

ترى أى تفسير سيقدمه له محمد موسى ؟ إنه حتى إذا أبلغهم أن وباء الكوليرا قد قضى علينا . فسيزداد الأمر تعقيداً وارتباكا ، ولا يعلم إلا الله ماذا تكون النهاية عندئذ . ومع ذلك فإن الخطر الأعظم قد زال . وأسرعنا لنفيد من هذه الحقيقة ، فاستخرجنا الأكياس الملعونة بعد أن جفت ؛ ورحنا ، لاهثين عجلين ، نعيدها إلى صناديقها توطئة لدفنها فى الرمال . ولكن كما يحدث دائماً عند فك رباط الأشياء وإعادة حزمها مرة أخرى ، فإننا لم نستطع أن ندخل الأكياس جميعاً فى الصناديق . ويظهر أنها انتفخت قليلا من أثر البلل فتبقى اثنا عشر كيساً صغيراً عزمت على أن أحتفظ بها معى كعينات لبضاعتى ، فتسهل لى بيع الحشيش بأسرع ما يمكن عند وصولى . وربطنا هذه الأكياس فى ربطة واحدة صغيرة ليتيسر لنا أن نتخلص منها حين يدهمنا الخطر .

وفى هذه الأثناء كانت باخرة خفر السواحل تقترب من مركبنا ، فرأيت محمد موسى يرفع العلم الفرنسى ويخفضه ثلاث مرات بالتحية المألوفة . وجمد دمى فى عروقى . ياله من عمل ينم عن أعصاب هادئة ثابتة من الصعب التفوق عليه ! . كم كنت أفضل لو أنه مر بجانبهم دون أن يلفت أنظارهم لفتة خاصة ، كما لو كانت « فتح الرحمن » سفينة مصرية عادية . . . فهذه الراية الفرنسية بألوانها ، وهذه التحية القانونية ، قد يبعثان على الريبة . أو لعل هؤلاء الذين على ظهر باخرة السواحل قد لا يكون لديهم ما يشغلهم ، فيخطر ببالهم أن يزوروا تلك السفينة الشراعية المهذبة ، ولكن يظهر أن سفينة الدورية كانت على عجل ، فاكتفت بأن ترد التحية بمثلها ، وصعدت فى طريقها إلى

الجنوب . وأسقطت منظارى المربوطين حول عنق ، وتنفسنا جميعا الصعداء ورحنا نرقص على رمال الساحل ، ثم ألقينا بأنفسنا فى مياه البحر الدافئة ، ورحنا نغوص ، ونأتى كافة الألعاب البهلوانية ، وخرجنا من فرط السرور والجذل لننهى حفلنا بالاشتباك فى مصارعة عنيفة.

كان هذا الضرب من التراخى شيئاً لا بد منه ، بعد ما نالنا فى ثلاثة أرباع ساعة من توتر أعصاب منهك . وأحسسنا بالزورق خفيفاً كالريشة عندما حملناه بين أذرعنا الفرحة إلى الماء ، وجذفنا بثلاثة مجاذيف فانفلت طائراً كالعصفور نحو « فتح الرحمن » .وقال لى محمد موسى بعد ذلك إنه لم يفكر فى تحية سفينة السواحل إلا بعد أن رآها تغير من اتجاهها ميممة نحوهم ، ثم أردف قائلا إنه يتذكر أيضاً أنه سبق أن رآنى أفعل مثل هذا فيما مضى مع طرادة انجليزية .

وبقلوب مرحة خالية من الهم ، شاعرة بأن ليس فى عنبر السفينة ما يبعث على القلق ، أبحرنا خفافا نحو السويس . ورأينا الشمس تغرب عندما استدرنا حول منار بور توفيق ، وهو مبنى كبير قائم فى وسط الخليج . وكانت مسالك الماء ملأى بالسفن ، وأنوار المنار ، حمراء وخضراء ، تومض وميضا ؛ وفى الخلف نقط مضيئة لماعة هى المدينة ذاتها ممتده مع الأفق . ورقدنا على ظهر السفينة دون حراك ، تحت عين المنار الحمراء الوهاجة ، وران الهدوء على الخليج ، واكتسى بصفاء جميل كما هو العهد به دائماً إذا هبط الليل .

وفى اليوم التالى بعد الظهيرة ، رأيت على الساحل الأسيوى امتدادا طويلا من الرمل يسهل أن نخبىء فيه ما تبقى لدينا من عينات الحشيش ، لأن رجالى رغبوا ألا يكون معهم ، وهم يدخلون ميناء كبيراً مجهولا ، ما يثير قلقهم ، ويكدر صفو البهجة التى يستشعرونها . ونزلت على ما أرادوا راضياً أن نخبىء ما نحمل على هذا الساحل ، ما دامت الحالة الجوية هادئة ، مما يتيح لنا أن

نبقى فى هذا المكان حتى الصباح . وقدّرت أننا إذا مررنا من الجمرك فى أمان أول مرة ، فإننا نستطيع بغير ما صعوبة أن نعود بالزورق فى الليلة التالية لنلتقط تلك العينات . وأخذت معى عابدى ودنقلين آخرين لننجز آخر عمل لنا ، بينما بقيت السفينة فى عرض البحر ، ثابتة لا حراك بها ؛ حتى إننا لم نربطها إلى مرساة .

وبعد ساعتين عدنا . فقد وجدنا على بعد قليل من الساحل تلا صغيراً يسهل التعرف عليه ، بجانب برميل قديم من الحديد مدفون فى الرمل إلى نصفه . وفى هذا البرميل الصدىء ، خبأت الأكياس .

وأخيراً . . وفى صباح اليوم الثامن عشر من أغسطس ، رسونا فى بور توفيق عند مدخل القناة ، أمام مبنى مصلحة الصحة ، ذى الطلاء الأصفر . . .

الفصل الثامن عشر

السويس

لقد تحقق أننا أصبنا عند ما خلصنا السفينة من كل ما فيها من بضاعة مريبة ، فإن رجال الجمرك المصريين أتوا وفتشوا فى كل ركن ، ونقبوا فى كل ثقب فى « فتح الرحمن » ، حتى فى بوصلة الملاحة . ولم يكن ذلك بسبب الاشتباه فى أى شىء ، بل من قبيل التسلية ، وما يجدونه من تلذذ فى نبش الأشياء وبعثرتها ، أو عساهم كانوا يرجون من وراء ذلك أن أمنحهم حلوانا يجنبنى قلب هذه الأشياء ونبشها . وفى الحق كنت أستطيع أن أفعل ذلك ، لو أنه كان لدى ما أخشاه . أما وليس فى حوزتى شىء فليفعلوا ما يريدون ، وليبعثروا ما شاءت لهم البعثرة . هذا فضلا عن أن فى إعطاء الرشوة ما يثير الريب والشكوك . . .

وأخيراً ، وعند الظهيرة تقريباً ، استطعت أن أطأ أرض مصر ، وقبلتى بور توفيق ، وهى مدينة نشأت سريعاً عند شق القناه ، كل شىء فيها جديد وعلى أحدث طراز ، وليس فيها من شىء إلا مساكن تحوطها حدائق ناضرة لموظفى الحكومة ، وبيوت صغيرة للعمال . وطفقت أجوب طرقات المدينة باحثاً عن مطعم أجد فيه أكلة طيبة ، فيها خبز أبيض ومشهيات وفوطة للمائدة . ولكن عبثاً ذرعت الشوارع أبحث عن مطعم ، فلم أجد أمامى إلا شوارع أنيقة مزينة بالأزهار على الجانبين ، ومحلاة بالحدائق وبتماثيل من البرونز . وعلمت أنه لكى أصل إلى مدينة السويس القديمة يجب أن أركب قطاراً محلياً صغيراً يجرى بينها وبين بور توفيق . وكان رصيف المحطة

مزدحماً بعمال الأرصفة والكتبة ، عائدين من أعمالهم فى الميناء . ونظرت إلى المصريين يلبسون جلابيب طويلة ، وهم ذوو أجسام رشيقة ، متينة البناء ، غير أنهم فى حالة شديدة من القذارة . وهذا طبيعى جداً فى بلد لا يمكن العيش فيه بغير ملابس . وكنت مستغرقا فى تأملاتى عند ما شعرت بيد توضع على ظهرى . وصعقت كأن عياراً أطلق على . والتفت فرأيت ألكسندروس قبالتى . وقال مجيباً على نظرة التساؤل والدهشة التى تجلت فى عينى :

— لقد جئت إلى بور توفيق طبقاً لوعدك بأن نتقابل فى اليوم الثامن عشر . هل تمتعت برحلة طيبة ؟

— لا بأس . . . وكيف حالك أنت ؟

وتحيرت ، إذ لم يبد الرجل دهشة ما من وجودى فى الميعاد المحدد ، كأنه كان شيئاً متوقعاً أن يرانى أصل فى الأجل المضروب ، وكأن المسألة لا تستدعى سوى أن أركب قطاراً يصل بى إلى النقطة التى أريدها . . .

وذكرنى هذا الرجل بابتسامته المستكينة الهادئة ، وأنفه الكبير ، وعينيه النائمتين ، وأصابعه الملوثة بأثر التبغ وهى ترتعش قليلا عند ما تلعب بحبات مسبحته الكهرمانية . أقول ذكرنى كل هذا بجو المقاهى التى شهدتها فى صحبته ببور سعيد . حقاً كيف يكون لمثل هذا الرجل المسكين ، نصف الأبله ، أية معرفة بالكفاح المرير ضد الموج والرياح الهوج ؟ . . .

وأوشك القطار أن يسير ، فصعدنا سويا وجلسنا صامتين لا نتكلم ، وألقيت ببصرى من النافذة إلى البحيرات وإلى السكة الحديدية التى تربط بور توفيق بمدينة السويس . واستغرقنى التفكير والتأمل الطويل . فما دامت عيناى تقعان على البحر ومائه الملح ، فإنى شاعر بأن معى رفيقاً وصديقاً . ونظرت إلى تلك البحيرات ملياً ، ورحت أفكر كيف أفيد

منها ، وكيف أجد فى تلك القلعة المنيعة منفذاً ألج منه بحشيشى . . وأعترف أنه مادامت تملأ رأسى فكرة ما ، فإنى لا أنظر إلى الأشياء إلا من خلال المنظار الذى أفيد منه لأحقق هذه الفكرة التى تأسرنى وتأخذ على السبيل ، ويقف بينى وبين العالم الخارجى سد لا تنفذ منه من الخواطر إلا ما قد يكون ذا فائدة لى . وأشهد مرة اخرى أن هذا الأسلوب من التفكير يكاد يصل إلى أن يكون نوع من المرض .

ووصلنا إلى السويس بعد سبع دقائق أو ثمان .

وبالرغم من أن فى المدينة أحياء أوروبية حديثة ، إلا أنها لا تزال المدينة المصرية القديمة التى تتمسك بأذيال الماضى الغابر ، حينما كانت تصل إليها المراكب الشراعية محملة بالتوابل والعطور ، والبن المجلوب من بلاد اليمن . أما الأحياء الأوروبية فهى التى يصادفها المرء عند ما يغادر المحطة ، فيجد فيها محلات لبيع الأقمشة ، وأخرى تعرض قبعات من طراز باريسى ، ودمى الحائكين (الترزية) فى داخل الواجهات الزجاجية تبتسم فى بلاهة وقبح . وهذه ساعة كبيرة معلقة تعلن عن محل لبيع الساعات وإصلاحها ، ثم هاهى عانس عجوز متغضنة ، تحرس محلا لبيع الخردوات ، بينما تنام قطتها على النافذة . . . حتى إذا ما مررنا بجانب بقال تسللت إلى الخياشيم رائحة السمك القدد . وبكل الحوانيت أجراس ترن عند ما يفتح الباب .

وتوجهنا مباشرة إلى ميدان يقوم فيه مقهى ذكرنى جيداً بتلك المقاهى التى رأيتها فى بورسعيد ، فيما عدا أن رواد هذا المقهى كانوا أناساً مسالمين ، تجاراً أو كتبة وادعين ، ينتظرون أن يحين الوقت الذى يعودون فيه إلى مكاتبهم أو متاجرهم ، وإن كانت لهم ذات النظرة الكسلانة المتوانية ، كأنهم قضوا كل حياتهم فى هذا المشرب أمام قدح من الماء ، أو فنجان القهوة التركية . وكان معظمهم يجلسون فى الشرفة الخارجية للمقهى ، لذلك قادنى

ألكسندروس إلى ركن مظلم فى الداخل ، يكاد أن يكون مهجورا .
وجلسنا ، فاتخذ هو هيئة متآمر لم أجد ما يدعو لها البتة ، مادام أحد
لا يعرفنى وأنا فى ملابسى الكاكية . ولعل أن يكون سبب هذه الهيئة
أنه كان معروفا لدى القوم ، بيد أننى لم أستطع أن أكتم شعورى بأن
ذلك اليونانى الساذج كان يستشعر لذة كلذة الأطفال عند ما يتآمرون .

وأحسب أنه ليس من داع إلى الإشارة بأن صاحب المقهى كان يونانياً
أيضاً ، وقد جاء إلينا وصافح ألكسندروس ، وأخذا يتحدثان سوياً فى
صوت خفيض ، ثم أرسلا الندل — وهو يونانى كذلك — فى مهمة
غامضة اضطرته إلى أن يخلع مئزره ، ويخرج من باب خلفى . ولما صرنا
منفردين ، قذفنى ألكسندروس بوابل من الأسئلة ، فقلت له :

— لا ليس معى بضاعة فى السفينة ، فلست ذلك المخبول الذى تظن .
ولكن لا تخش شيئاً فالبضاعة كلها فى مكان مأمون وأستطيع ان
أحضرها عند ما أشاء .

وأحدثت عبارتى الأخيرة أثراً عميقاً فى وجه صديقى ، فسكت قليلا ،
بينما رحت أحدثه عن السفينة الشراعية التى رأيتها تتلكأ فى الخليج ، ثم عن
مقابلتى لرجال خفر السواحل . ومن إجاباته الغامضة ، وثرثرته عن
بورسعيد التى لم تكن تهمنى البتة ، استنتجت أنه لا يعرف الشىء الكثير
عن السويس . وبدأت أفكر مشغولا ، أى رجل أبله يكون
ألكسندروس هذا ، وكيف أستطيع أن أفيد منه . وفى هذه اللحظة رجع
الندل ، وهمس بكلمات قليلة فى أذن ألكسندروس ، ثم ارتدى مئزره ،
وذهب يعدو بصينية عليها أقداح كثيرة من القهوة .

ونظرت إلى ألكسندروس متسائلا فأجاب :

— الليلة الساعة الثامنة سنذهب لنرى الرجل الذى سيشترى كل
بضاعتك .

فقلت له :

— إذاً فلم تعد لك أنت رغبة فى الشراء ؟

— آه .. كم كنت أتمنى ذلك ... ولكنى لا أستطيع أن أفعل شيئاً
بدون ذلك الرجل الذى نتحدث عنه ، فهو يمسك كل شىء فى هذه التجارة
بين قبضتيه .

— أيجرى تهريب هنا ؟

— أجل . ولكن كل البضاعة تمر عن طريق القنال . فالبحارة والخدم
والميكانيكيون والمهندسون وخدم السفن ، كل هؤلاء يقذفون فى البحر
بأكياس الحشيش ملفوفة بالمطاط ، حتى تطفو ولا يتلفها الماء الملح ، وهم
يقذفون بها عند نقطة معينة ، فتذهب سفينة وتلتقطها .

وتبادر إلى ذهنى فى تلك اللحظة أن السفينة التى أقلقتنى كثيراً ربما
كانت مشغولة بمثل هذه المهمة ، فقد كانت تسير بقرب رمال الساحل حتى
يتسنى لها أن تقذف بما تريد إلى شريك على الشاطىء .

كل هذا كان معقولا ومقبولا . على أنه لم يكن مؤكداً ...

الفصل التاسع عشر

القنصلية

لم يبق ثمة عمل أستطيع إنجازه مع ألكسندروس فى ذلك الحين ، فتركته وتوجهت لزيارة القنصل الفرنسى . طرقت الباب ففتح لى قواس زنجى كهل ، تنم عدم الكلفة التى يقابل بها الناس على أنه قضى فى خدمة القنصل زمناً طويلا . وهو يرتدى قفطانا عليه الشارة الفرنسية المثلثة الألوان ، ويتمنطق بحزام من الصوف الأحمر . وما أن تخطيت عتبة الباب حتى شعرت بأنى فى فرنسا ، أرض الوطن والعشيرة ، فامتلأ قلبى بعاطفة عذبة حنون . وتقدم سكرتير القنصلية مرحباً بزيارتى ووجهه طافح بالبشر والإيناس . ولم يكن فرنسياً كما كنت أظن ، بل هو مصرى قبطى من بلدة الطور ، وهى ميناء بحرى صغير يقع عند سفح جبال سيناء . وكان اسمه سبيرو ، نشأ فى القنصلية منذ شبابه الباكر ، فاشترك القناصل المختلفون — الذين يأتون عادة إلى السويس للتمتع بوظيفة هادئة مريحة — فى تنشئته وتهذيبه ، حتى صار مثالا للسكرتير المكتمل الصفات . وأصبح السيد سبيرو على مر الأيام المتصرف الوحيد فى كافة ما يعرض من الأمور فى أية ساعة من ساعات النهار ، وهو وحده الملم بسائر الأعمال ، فلو ان القنصلية خلت من قنصليا لسبب من الأسباب ، لما شعر الناس بغيابه ، ولسارت الأمور فى مجراها المرسوم دون أدنى تغيير .

كان أعزب فى نحو الثلاثين ، ولكنه بحسب مظهره ، لا يكاد يجاوز

الثمانية عشر عاما . وهو لماع شديد التأنق ، حتى لتحسبه قد أخرج من العلبة لتوه . وأول ما يستلفت النظر منه ، سترته المتقنة التفصيل ، والصدار الأبيض الذى يبرق من خلال فتحتها ، وثنية سرواله التى أودع فيها الكواء عصارة فنه . ومن عجب أن له ملامح كملامح اليهود ، وإن كانت بشرته النحاسية السمراء لا تفترق عن بشرة الأعراب ، وذلك بالرغم مما عرف عنه من كراهية شديدة لأشعة الشمس تدفعه إلى تجنبها كلما أمكن . أما شعره ففاحم السواد ، يميل إلى التجعد فى عناد وإصرار ، بالرغم من تحايل صاحبه على تثبيته وتسويته بالأدهنة المعطرة . ورأيت على مكتبه آنية بها ورد ، وتفوح من أركان الحجرة رائحة عطرية تجعله أشبه بمخدع غانية . ولقد نشأت بينى وبين سبيرو فيما بعد صلات كثيرة جعلتنى أعرفه جيداً وأقدر نواحى الحسن فيه .

وأول هاته أنه رجل خدوم إلى أقصى حد ، لا يتأخر عن استخدام كل من يعرف من الأصدقاء فى سبيل تأدية أية خدمة تطلب منه ، وله حشد كبير من هؤلاء الأصدقاء الأعزاء ، وهو لا يتكلم عنهم إلا ليكيل لهم المدح ، فيخيل إليك وأنت تسمعه أن الإنسانية بأسرها تنضح بمختلف الفضائل وضروب الخير . ولم أسمعه مرة يتفوه بعبارة فيها مساس بشخص مهما يكون . وأنت إن تماديت فى حضرته إلى حد انتقاد امرىء ما ، أو نسبت إليه واقعة مهينة سمعتها عنه ، سارع سبيرو إلى التماس العذر له ، وعلى شفتيه ابتسامة سمحة ، وفى قسماته احتجاج صامت ، ولكنه مع ذلك لا يصل أبداً إلى حد معارضة رأيك ، فهو لا يطيق أن يقع بينه وبين أحد الناس خلاف مهما كان طفيفاً .

ويتكلم هذا السكرتير الفاتن سائر اللغات تقريباً ابتداء من العربية

والفرنسية واليونانية — التى تعتبر فى حكم لغاته الأصلية — إلى مختلف لغات حوض البحر الأبيض بما فيها التركية . وهو يعيش على النمط العربى تحت رعاية سيدة عجوز يدعى أنها خادمته ، وإن كان من المحتمل جداً أن تكون والدته . ولقد بقى أعزب لغير سبب واضح . فهو جميل الهيئة جذاب ، فضلا عما يستمتع به من مركز ممتاز . وكان من الطبيعى أن يتقول عليه أصدقاؤه بمختلف الأقاويل ، مومئين إلى جو المخادع الذى يسود مكتبه ، وإلى غرامه بالملبس ، وتأنقه النسوى فى كل مايفعل . ولكننى لا أصدق حرفا مما يقولون . كل مافى الأمر أن سبيرو من نوع الفتيان القليلى الحيلة ، الهيابين الوجلين كالنساء . فهو يخاف كل شىء ، حتى لتستولى عليه الرعدة إذا لم يعد فى وسعه أن يبتسم .

وبعد أن تبادلنا بعض الأحاديث الودية ، طلبت منه أن يستأذن لى فى مقابلة القنصل . فقال لى بلهجة تفيض بالغموض : إن ذلك قد لا يكون مستطاعا ، إذ من المحتمل أن القنصل لايزال فى قيلولته حيث لم تكن الساعة تعدو الرابعة . وأضاف قائلا :

— لقد وصلت السفينة « بول لوكات » فى الحادية عشرة من مساء أمس ، وهذا معناه ليله ساهرة إن علمت أن الوصول إلى السفينة يستغرق ساعة كاملة بواسطة زورق شركة « المساجيرى » .

فسألته قائلا :

— وهل القنصل مطالب بأن يصعد إلى ظهر كل سفينة تدخل الميناء ؟

فأجابنى وقد بسط عينيه نحو السماء وقال :

— أجل ياعزيزى . وهو أمر شاق لو تعلم . حسبك تصور أن تكون مضطراً إلى التوغل داخل الميناء مرتين فى كل أسبوع مهما تكون حالة الطقس !

فأجبت وأنا أغالب الابتسام ويغالبنى :

— أجل ، أجل . بغير شك ، إننى أفهم تماما أنه مادام القنصل قد صعد إلى ظهر السفينة « بول لوكات » أمس فلابد أن يطيل من قيلولته اليوم . سأعود لرؤيته باكر صباحا .

— لا ، لا . انتظر هنيهة فقد يأتى فى أية لحظة الآن . ومع ذلك فإنه فى الحقيقة كان يوشك أن يصعد إلى ظهر « بول لوكات » لولا أن بدا فى الجو مايهدد بالانقلاب ، مما دعا المشرفة على بيته إلى عدم السماح له بالخروج .

ثم اضاف قائلا :

— إنه شديد التأثر بالبرد ، وعلى المرء أن يكون جم الحيطة فى مثل هذا الجو . . .

وفجأة أمسك سبيرو عن الكلام ، وكاد يمسك عن التنفس أيضاً ، ثم وضع أصبعه على شفتيه ، بينما زحفت ابتسامة بطيئة إلى ثنايا وجهه :

— هس . . . أظننى أسمعه قادما .

كان المسيو « دى جارديه » — القنصل الفرنسى — فى حوالى الخمسين من العمر ، ويضع على عينيه نظارات ضخمة ذوات إطار عريض . وهو رجل ممتاز ، كريم الطباع ، ذو ثقافة عالية . ويلوح لى أنه التحق بالسلك القنصلى لكى يحمى نفسه أعاصير الحياة . فهو بطبيعته لا مطمع له ولا مأرب ، وحيثما يرسل كانت السلطات قمينة بأن تنساه ، كما نسيته فى السويس لا أدرى كم من السنين . وقد رحب بى فى بساطة ملؤها الود ، وهى طريقة ذات نفع كبير يصطنعها من فى مثل مركزه ، إذ هى تملأ أنداده غرورا وانبساطا ، كما تثير الهمة فى صدور مرؤوسيه .

وكان من الطبيعى أن أحدثه عن صيد اللآلىء حتى أبرر رحلتى الطويلة

فى تلك البحار القليلة الرواد . فقصصت عليه ما تخلل رحلتى من مغامرات ، مبالغا ما استطعت فى طريقة عثورى على اللآلىء فى شعب الخليج . وقد سمح لسبيرو بالبقاء معنا ، و بالاشتراك فى الحديث ، فكان يستمع إلى قصتى مبديا ما يناسب الحديث من إشارات ، وما تقتضيه المواقف من مختلف التعبيرات التى كانت تتلاحق على وجهه بحرارة مبالغ فيها حتى لتوحى بالاصطناع . لكم كان يجهد المسكين نفسه ليبدو مؤدبا ودودا . . .

كان دى جارديه ينتسب إلى أسرة بريتونية عريقة أنجبت قراصنة عتاة ، كما أنجبت مستكشفين رادوا أقاصى البحار . وقد قال لى ، وعلى شفتيه ابتسامة زهو ، إن بعض دماء هؤلاء الرواد لا يزال يجرى فى عروقه ، مما يجعله شديد الشغف بركوب البحر .

— آه آه . . . كم كنت أود لو كتبت لى حياة كحياتك . إنها حياة أحلامى ، وإنى لأحسدك على ما تلاقيه من مواقف مثيرة ؛ وأخطار محدقة ، ومغامرات تلهب النفس . ولكن ماذا فى استطاعتى أن أفعل . . .

وأشار إشارة تتضمن معنى اليأس ، إلى مكتبه وملفاته ، وإلى سائر ما يحيط به من متعلقات أعزب كهل يعيش عيشة رضية سهلة .

والحق أنى وجدت « دى جارديه » مستحقا للشفقة أكثر منه مثيرا للسخرية . فإن كان قد أصبح كهلا زائطا منطويا على نفسه ، أو طفلا كبيرا لم يكن فى حياته « شقيا » أو مندفعا ، فرد هذا إلى حياته الناعمة التى لم تعترضها عقبات او فقر أو كفاح .

تمثل لخاطرى أولئك الصبية المساكين الذين ينتظرهم الخادم بباب المدرسة ، ولا يعبرون الطريق إلا بمعاونة الشرطى ، واللذين ينشأون فى اللفائف ، ويربون فى القطن والصوف ، حتى يبلغوا مبلغ الرجال . وعندئذ يتوصل

آباؤهم — بطريقة أو بأخرى — إلى إعفائهم من الخدمة العسكرية ، ثم يغرسونهم بعناية آخر الأمر — كما تغرس النباتات الرقيقة فى بيوت الزجاج — فى وظيفة مريحة سهلة تحميهم غوائل الحياة . لا عجب أنهم يبلغون سن الشيخوخة بنفوس أطفال صغار . أناس قد ذوت فيهم خصائص الرجولة الحقة ، فأصبحوا بغير قدرة على المقاومة أو الدفاع ، شأن طيور الزينة التى ترى فى الأقفاص . طالما شعرت بأسى عميق نحو هؤلاء الرجال ! وفى ظنى أن أولئك الآباء الذين يضحون بأبنائهم عن طريق عطفهم المبالغ فيه ، إنما يلحقون بهم أذى كبيراً . وما عطفهم فى واقع الأمر سوى أنانية وجبن ، فهم إنما يريدون إعفاء أنفسهم عناء الإشراف على أبنائهم ، حين يشبون عن الطوق ويتعرضون للتجارب والأخطار ، تلك التى — وحدها — تكون الشخصية ، وتصهر الإرادة ، وتخلق الرجال .

قدم لى « دى جارديه » أخاه ، وهو رسام يشتغل فى خدمة الحكومة ، يأتى لزيارة أخيه كل عام ، ويرسم مجموعة من الصور الصغيرة التى لا ضرر منها . وقد وجدته صورة حية لأخيه فيما عدا أنه لا يلبس عوينات . وكان من الواضح أن كلا منهما يحب الآخر حبا جما ، فهما يعيشان سوياً فى سعادة شاملة ، ومن ورائهما مربيتهما العجوز ، تعاملهما كما لو كانا طفلين شقيين غير مسئولين . وكان الرسام قد عاد لتوه من نوبة عمله الصباحى ، التى تمتد من العاشرة إلى الثانية عشرة .

ولكنه قبل أن يأخذ مكانه بيننا ، انهالت عليه العجوز تعنيفاً وزجراً لما لاحظته من ابتلال نعليه ، فما كان من أخيه إلا أن أخذ بذراعه وأرسله ليزيل السبب الذى اثار الطاغية .

ولقد روع القنصل حين علم بوجود اللؤلؤ فى الخليج القريب ،

وانفتحت عينا سبيرو حتى صارتا كالفنجان ، إظهاراً لما استولى عليه من دهشة عظيمة . وكان على أن أعدهم بالخروج فى رحلة لصيد اللآلىء حتى يروا بأنفسهم طريقة استخراجها .

وصرح « دى جارديه » بعزمه على دعوة علية القوم فى السويس لمشاركتنا هذه الرحله ، وبدا عليه أنه فخور لعثوره على مواطن يشتغل بهذه الصناعة الشاعرية الجميلة . وتذكرت أكياس الحشيش المغمورة فى الرمال فابتسمت .

الفصل العشرون

ستافرو

وجدت ألكسندروس لايزال مرابطا فى القهوة اليونانية يغالب النعاس . ولكننى لم أستطع حمله على اصطحابى لرؤية الشخص الذى ألمع إليه فى الصباح إلا بعد أن خيم الظلام . وسار بى إلى حى العرب ، فما أن أوغلنا فى شوارعه الضيقة ، حتى تصاعدت إلى أنفى — إلى جانب الروائح المختلطة المنبعثة من البخور والمياه العطنة والزيت المغلى — رائحة أخرى غامضة هى رائحة الدخان الأزرق الساحر . ولكنها بدت هاهنا عنصراً طبيعياً من عناصر الجو المحيط . ولم يبد على ألكسندروس أنه شم شيئا ، فقد كان معتاداً عليها كبقية سكان الحى . ولعله لابد لهذه الرائحة من أنف أجنبى ليدركها .

غادرنا الحى العربى إلى شارع متسع نوعا ، يقوم على جانبيه منازل مكونة من أربع طبقات ، لها شرفات طويلة فى كل طابق ، ويتحامل بعضها على بعض بواسطة دعائم رأسية ، مما جعل المنازل تبدو كالأقفاص . هاهنا يقطن العرب واليونانيون والكتبة المالطيون — وعلى العموم كل هذا الخليط الدولى العجيب الذى يكون سكان مدن السواحل فى مصر . ولقد حرصنا على السير بجانب الحوائط بناء على نصيحة ألكسندروس ، فقد كان ثمة مصرف مكشوف يجرى فى منتصف الشارع ، تلقى فيه القاذورات من كل نوع بصفة مستمرة من النوافذ المفتوحة على الجانبين ، مما يتعرض معه المرء لخطر اعتراض طريق اللفائف المتساقطة من كل فج .

كان الطريق منحدراً صوب البحر ، وفى نهايته قام آخر المنازل كطود أسود مرتسم على صفحة السماء . وكان المد عاليا ، فلم تكن سوى خطوات معدودات تفصل حوائط المنزل عن ماء البحر الذى كانت أمواجه تتلاطم فى همس وسكون ، وكأنما قد مد البحر شواربه فى تلصص ليعابث انعكاس الضوء المنبعث من آخر مصباح غازى فى الطريق . فى هذا المنزل يقطن الرجل الذى نقصده .

ولقد وافقت فى قرارة نفسى على اختيار الرجل لهذه البقعة . فقد كان المنزل قريباً من الماء لدرجة أن البحر قد بدا فى هذه الليلة الهادئة كما لو كان كلباً مقعياً تحت أقدام صاحبه . وكان شبح المنزل القائم يلفه الغموض والتسرر ، وهو منعكس على صفحة السماء المرصعة بالنجوم ، ومن أمامه مرآة البحر العميق المحجب . وثمة زقاق بالغ الضيق يفصل هذا المنزل عن المنزل المجاور ، ومن ورائه أرض فضاء لاشك أنها تغمر بمياه البحر فى فترة الاعتدال الشمسى .

وبالرغم من أن الوقت كان لايزال مبكراً جداً ، فإن نهاية الشارع المستعرض كانت خالية تماما من المارة ، كما لم يظهر دليل من دلائل الحياة فى المنزل الذى نوشك أن ندخله . وسار بى ألكسندروس إلى الشارع الجانبى حيث طرق بابا صغيراً . وتصرمت دقائق عدة ، فلو كنت بمفردى لما ترددت فى أن أعيد الطرق مرة أخرى . إلا أن ألكسندروس أوضح لى أن واقعة طرق الباب مرة واحدة ، هى التى تجعل من فى الداخل يدركون أننا أصدقاء .

انتظرنا مايقرب من خمس دقائق ، ثم سمعنا وقع أقدام تسير فى دهليز طويل ، وإذا بالباب يفتح بضع بوصات دون أن نسمع صرير مفتاح يدور ، أو صوت مزلاج يفتح . وتعرف الفاتح على ألكسندروس فسمح لنا بالدخول .

وقعت عيناى على امرأة بدينة تضع على رأسها منديلا أسود ، كعادة الفلاحات اللاتى رأيتهن فى اليونان . ورحبت بى بابتسامة صامتة ، فتميزت على ضوء المصباح وجهاً ممتلئاً ، عليه ملامح الطيبة والمسالمة كأنه وجه راهبة . وكانت ترتدى السواد من قمة رأسها إلى أخمص قدمها . وقادتنا إلى حجرة كبيرة ذات أرضية خشبية ، يضيئها مصباح ضئيل يحترق أمام أيقونة ، وتفوح منه رائحة كرائحة القطران ، فشعرت كما لو كنا على ظهر سفينة . وأشعلت السيدة مصباحا كبيراً متدلياً من السقف ، فانقشعت الظلال التى كانت تهيم فى جو الحجرة .

كان فى وسط الحجرة مائدة مستديرة ، وفى محاذاة الحوائط صفت كراس ذات مقاعد من القش . وثمة نافذتان أسدلت عليهما ستر ناصعة البياض متقنة الكى ، فيما بينهما دولاب صغير قد برزت أدراجه المفتوحة . ومن فوقه وضع الهيكل الصغير والمصباح الخفاق الذى لاينطفىء . وعلى الحائط بندقية قديمة الطراز لها فوهة متناهية الطول ، ويتدلى من فوقها صورة فحمية لشيخ مكتئب العينين ، يضع على رأسه قلنسوة سكان الجبال بجزيرة كريت . هذا هو أب صاحب المنزل ، وقد كان زعيما من زعماء الجبال ، وقائداً للمسيحيين فى ثورتهم ضد الأتراك ، الذين ظل يتحداهم ويراوغهم ثلاثين سنة ، إلى أن وشى به ، فقبض عليه وأعدم رمياً بالرصاص وهو فى سن السبعين . أما البندقية اللتمعة على الجدار فى الضوء الهادىء لمصباح الهيكل ، فقد قتل بها ستمائة تركى أو يزيد ، فلا عجب أن كانت موضع احترام العائلة ، التى تنظر إليها نظرتها إلى أثر ثمين مقدس . وراح ألكسندروس يروى لى هذه القصة ، بينما كانت عيناى تجولان فى أنحاء الغرفة ، إلى أن وقعتا فى ركن قصى على كتلة قاتمة مغطاة بقماش ، فلما تأملتها أدركت أنها قارب صغير .

ولعل هذا هو ما كانت المياه الصامتة تنتظر نزوله إلى عتبة هذا البيت المحجوب بالأسرار .

وبينما نحن جلوس ، إذ فتح باب جانبى من الزجاج ، ودخل منه عملاق ضخم أضطر إلى الانحناء حتى يستطيع المرور . وكان على رأسه قبعة كبيرة سوداء ، لها إطار بالغ الاتساع ، يلقى على أعلى وجهه ظلا كثيفا أشبه بقناع أسود .

وصاح العملاق فى وجهى قائلا :

— مرحباً بك . إننى مسرور لرؤياك ، كما أهنئك على رحلتك الناجحة . فى الليلة الماضية رأيت فى الحلم خزانة كبيرة مملوءة خبزاً . وفى هذا الصباح رأيت قطة سوداء ميتة . كلا هذين دليل على الحظ . ولسوف نقبر أعداءنا . . .

ثم جلس . كان يرتدى قميصا بغير صدار ، وزناراً واسعاً من الصوف الأسود . ولما رآنا عارى الرؤوس بادر بخلع قبعته ، فظهر من تحتها جبهة مائلة ورأس صغير ، يعلوه شعر غزير صلب ، وكانت عيناه الغائرتان تلتمعان تحت حاجبين كثيفين ، لهما لون رمادى ضارب للزرقة ، وينظران إليك مواجهة وفى صراحة .

وبدا عليه فى تلك اللحظة أنه منشرح الصدر ، مما يشعرك بأنه قد طرح الريبة جانباً . وكان شاربه الغزير يتدلى فوق ذقن بارز عنيد ، بينما ألقى أنفه الأقنى ظلا متراقصا على الحائط . ولقد كان غاية فى الضخامة والقوة ، حتى لقد خشيت على الكرسى الضعيف أن يتحطم كقشر البيض تحت حمله الثقيل .

هذا هو ستافرو بن ديمترى ، ذلك الشيخ الذى قضى فى سبيل الحرية ، بعد أن قتل ستمائة تركى ببندقيته المعلقة على الجدار . وقد لحظ أننى أتأمل صورة أبيه فقال بحماس :

— آه يا صديقى . كان يوجد رجال فى تلك الأيام . كانوا يعيشون للجهاد ويموتون كرماء . أما اليوم فنحن نقتل أنفسنا بكفاحنا فى سبيل رغد العيش . لم أكن تعديت الثانية من عمرى حين قتل أبى . كنا إثنى عشر أخاً أنا صغيرهم . ولقد رأيته بعينى رأسى وهو يقع تحت وابل رصاص الأتراك ، حين هب لمساعدة ذلك العبد الوضيع الذى وشى به واستدرجه إلى كمين . هذه أشياء تكون شخصية الطفل . . . وقد جلبنى أخى الأكبر إلى هنا ، حيث تلقيت العلم فى مدرسة فرنسية ، فى زمن كان موضع فخار كل من فى مصر أن يستطيع التحدث بلغتكم . أما اليوم فعلى المرء أن يتكلم الإنجليزية ، وأن يقبل إقدام موظفى الحكومة الإنجليز ، وأن يتجسس للجنود الإنجليز . دعنى أصارحك بأنك إذا أردت أن تشق طريقك فى هذا البلد ، فعليك إما أن تكون قواداً أو عيناً من عيون الشرطة .

فسألته مستفسراً :

— ولكن ما شأن الأهالى من المصريين ؟ هل هم أيضاً كما تقول ؟ .

— لك أن تثق بذلك ، فهذا كل ما يصلحون له . إنهم ضعاف القلوب ، جبناء ، كسالى ، وكلاب جشعة . ولكننى أغالى . فهم حتى إن كانت فيهم كل هذه الرذائل ، فإنها لا تمنعهم من أن تكون لهم شخصية . ولكن نظير دراهم معدودات . وهم لا يعملون إلا تحت تهديد السوط ، فهم ليسوا سوى دواب للحمل ، والانجليز محقون إن عاملوهم على هذا الأساس[1] .

(١) هذا الكلام — إن صحت روايته — فهو إنما صادر عن مهرب حشيش . والضرير إذا قدح ، فلأنه ووجه بأخيار لا يستطيع معهم ما يستطيعه مع أمثاله من حثالة الأرض . وسنرى فيما بعد أن هذا الرومى السليط يعتبر الموظف الأمين مستحقاً للزراية لمجرد أنه يؤدى واجبه بإخلاص .

(المترجم)

— فكيف تدبر امورك إذن إن كان عليك أن تعامل أناساً كهؤلاء؟.

— هذا هو الشكل. واعلم أن هناك طريقتين للتهريب، الأولى وهى الطريقة المألوفة — عمادها الاتفاق مع البوليس ورجال الجمرك، فكل الموظفين هنا يعيشون على الرشوة، فيجمعون الثروات ويشيدون القصور. أما شركاؤهم من المهربين، فالخراب مصيرهم المحتوم، إذ سرعان ما يوشى بهم حالما يعرف عنهم إنهم قد صاروا أغنياء موسرين. إننى أعرف رجلا كان يعمل بالاتفاق مع أحد مفتشى الجمارك. وفى يوم من الأيام نقل هذا المفتش من منصبه، فما كان من الضابط الذى حل محله إلا أن كشف الستر عن الأمر بأكمله. وكانت النتيجة أن بيعت كل ممتلكات الرجل، وفازت الحكومة بربح يربو على ثلاثة مليون جنيه. ولم يكن الأمر سوى مجرد مؤامرة دبرت بالاتفاق بين رئيس الجمارك وكل من الضابطين. فالجمارك إنما تحمى المهرب وتعلفه، لكى تلتهمه حين يستحق الالتهام. أما الطريقة الثانية — وهى طريقتى — فهى أن يعمل المرء بمفرده، وألا يكون له ضلع فى أية صفقة يشترك فيها موظفو الجمارك. فهم إن كانوا غير أمناء فى تأدية الوظائف التى يتقاضون رواتبها، فما هم إلا خونة — والخائن لا يتورع عن قتل أبيه. وإلا فإنهم يتفقون مع رؤسائهم على التظاهر بالخيانة، وهم حينئذ يستحقون الزراية عينها(1).

وتابع كلامه قائلا:

— لدى هنا رجال من بلاد العرب. وهم ما بين جبليين صلاب الأعواد، وبحارة من الحجاز. ويشتغل بعضهم بالصيد، بينما يعمل الآخرون فى المناجم والمحاجر المنتشرة فى أنحاء البلدان المجاورة. ولكن مهما تكن

(1) أرأيت ... (المترجم)

الظروف، فإننى لا استخدم مصرياً قط. إن قارب الصيد الذى روعك صباح أمس مملوك لى، وقد كنت أعلم هذا الصباح أنك فى السويس.

فسألته ضاحكا:

— إذن فقد كنت تنتظر حضورى؟.

— بطبيعة الحال. ولك أن تشكر طالعك السعيد الذى جعلك تقصدنى رأساً. فلو أنك قمت بأية محاولة للاتصال بأى شخص آخر، لكانت النتيجة وبالا عليك. ولكننى كنت أرقبك بغير علم منك، وذلك أولا لأنك فرنسى وأنا أحب الفرنسيين، وثانياً لأنك قمت بهذا العمل الباهر، فاستطعت أن تصل ببضاعتك إلى هنا دون أن يكون لك أى علم بتجارة الحشيش. إنك رجل ممتاز، وقد ولدت تحت نجم سعيد الطالع. وإن أكثر الرجال مهارة وخبثاً لتتقصف أعوادهم إن هم حاولوا الإيقاع بك.

— إذن فأنت تؤمن بالقضاء والقدر!.

— ليس فى وسعى تصور عدم الإيمان بهما. إن هؤلاء الذين يسخرون بمثل هذه المعتقدات، لم يتح لهم قط أن يتأملوا تلك العوامل الحاسمة التى توجه أفعالهم، أو لم يحاولوا فهم تلك الطريقة العجيبة التى تتفرع بمقتضاها هذه الأفعال بعضها من بعض. وما ذلك إلا لأنهم يعيشون حياة مصطنعة، وينغمسون فى طينة المجتمع، أشبه بلبنة من ألف ألف مخصصة لبناء حائط ضخم. ولكن حالما يستعيد الإنسان شخصيته فيواجه المجتمع كرجل حر، وحين يستخدم إرادته فى إثارة غرائز القتال الكامنة فى نفسه، حينئذ فقط يكتمل نضجه كالنبات حين يغرس فى أرض طيبة، حينئذ يشعر بأن يد القدر تحلق فوقه، فتقوده فى كفاحه وترشده فى معضلاته ومشاكله. إنه إذا استطاع أن يدرس نفسه حق الدرس، لسمع أصداء غريزة قديمة تدله على أحسن طرق العمل التى توفر له السلامة والنجاة.

وصمت هنيهة ثم تابع حديثه قائلا :

— إننى أومن بالأحلام أيضاً . فالعقل ينظم حبائل الأحلام دون تقيد بعلة أو بمنطق ، وهذه ميزته العظمى . فإن كانت المعقولية والقانون هما عماد الحياة على الأرض ، إلا أنهما عديما الفائدة حين السعى إلى اختراق ما هو وراء عالم الأرض .

جلست أستمع إلى هذا العملاق ذى الجبهة الضيقة ، وهو يترجم عن أفكار طالما خطرت ببالى منذ أن نزلت إلى معترك الحياة مستفرداً .

وبعد لحظات دخلت فتاة علمت أنها ابنة أخيه ، فقدمت لنا بعض المنعشات . ولم يكن ثمة سبيل للشك فى أنها ابنة تلك المرأة البدينة ذات الوجه الشمعى الباهت ، التى فتحت لنا الباب . وكانت ضخمة الجثة كامها وعمها .

ومن بعدها دخلت فتاتان أخريان هما أختاها الصغيرتان ، فصافحتانى ثم اتخذتا مجلسيهما إلى جوار عمهما ، وكان ثلاثتهن يرتدين السواد كأمهن .

هذه هى عائلة الأخ الأكبر لستافرو . وقد توفى تاركاً زوجة وأربعة أطفال — هم هؤلاء الفتيات الثلاث وصبى — حين لم يكن ستافرو قد بلغ الثامنة عشرة من العمر . ومع ذلك فقد أخذ على عاتقه مسئولية العائلة بأكملها . فضلا عن رعاية أخت عجوز أقعدها المرض . وبالرغم من أن تعليمه كان قد قارب التمام ، إلا أنه كان عليه أن يطرح من صدره كل طموح ، وأن يبدأ العمل مباشرة كبحار عادى ، كى يوفر القوت لهذه العائلة . وهو لم يتزوج قط ، حتى يستطيع ان يبر بالعهد الذى وعد به أخاه وهو على فراش الموت . ومنذ ذلك الحين عاش عيشة العزوبة ، مكرساً نفسه لبنات أخيه ولأخته المريضة ولزوج أخيه ، التى كانت بدورها تقوم بالإشراف على شئون منزله . كانت هذه النسوة المتسربلات بثياب الحداد ، وعلى رؤوسهن منديل الأرامل الأسود ، يجسن فى صمت خلال الحجرات

البيض العامرة بالظلال والأشباح ، فيسبغن على بيت هذا المهرب جوا من الهدوء والسلام ، أشبه برائحة البخور الناعمة الرطبة .

وفى خلال حديثى مع ستافرو ، ظل الكسندروس قابعاً فى ركن مظلم وهو صامت لا ينبس ، فأثار فى مخيلتى ذكرى تلك المقاهى المعتمة التى يبدو فيها منسجما تماما مع عنصره . وكان منزل هذا المهرب يختلف تماماً عن سائر ما كنت أتوقع ، فرحت أفكر فى ستافرو ، وفى بتروس وضيعته الكائنة فى « ستنيو » ، وفى بابا مانولى الطبيب المرح ، فشعرت أنهم من طينة تختلف كل الاختلاف عن طينة ألكسندروس ومن على شاكلته .

وبدأنا نتكلم فى المهمة التى حضرت من أجلها ، فلما تطرقنا إلى موضوع الأثمان ، لحظت أن ستافرو قد تغير تغيراً تاما ، فاستحال شخصاً حاذقاً حريصاً ، وهو دور لا بد له من القيام به حتى ينجح فى مهنته المحفوفة بالأخطار . وكنت أعلم جيداً أننى تحت رحمته ، فلم يكن فى وسعى إلا أن أقبل السعر الذى عرضه على . وللتو أبرمت معه صفقة بيع الكمية الصغيرة التى تركتها فى البرميل الحديدى القديم . قال :

— عليك أن تسلمنى البضاعة فى المدينة ، فليس فى وسعى أن أرسل من يبحث عنها فى البحر ، وإلا فإنه ، فى خلال يومين اثنين ، سيعرف الحى الوطنى من أقصاه إلى أقصاه ، نوع المهمة التى حضرت من أجلها ، وسرعان ما يضعك البوليس تحت المراقبة . إن ميزتك الكبرى هى أنه ليس ثمة أحد يعلم بأن لك أية علاقة بتجارة الحشيش ، وعليك أن تحرص على ألا تضيع هذه الورقة الرابحة من يدك . لقد زرت القنصل الفرنسى ، ولسوف يقدمك إلى أناس ستكون معرفتك لهم أكبر معين على إبعاد الشبهات عنك ، إذ أن الجالية الفرنسية فى مصر تعتبر فى حكم المعصومة من الإشتراك فى أى

عمل من أعمال الغش والخداع . وليس لك أن تسر ، فإن القوم هنا ينظرون
إلى جاليتكم نظرتهم إلى عصبة من البلهاء ، الذين لفرط غبائهم لا يستطيعون
استخلاص أقل نفع من أى شىء . وعليك أن تبذل كل ما فى وسعك لكى
تبدو أكثر أفراد الجالية بلاهة وغباء . أما سبيرو فإنه تحفة لا تقدر ،
إننى أراه أحياناً عند الحلاق ، فنتحادث سويا باليونانية التى يتقنها . إننا
أصدقاء موثقو الصلات ، وهو قد يكون ذا نفع لنا ، إذ فى وسع المرء أن
يتحادث معه فى اى أمر من الأمور .

— ماذا تقول ! أمستعد هو لقبول هدية مثلا ؟

— كلا ، بحق السماء . حذار أن تلمح له بشىء من هذا ، وإلا مات المسكين
فرقاً لمجرد فكرة تعريض نفسه للشبهات . كل ما أعنيه هو أنه بطبيعته
يحب أن يكون خدوما للناس . وهو يضمر لى إعجاباً خفيا ، ويعلم علم اليقين
أننى أشتغل بالتهريب ، ولو أنه لم يتعرض قط لهذا الموضوع بكلمة واحدة .
كل ما فى الأمر أن هذه الفكرة تثير فى قلبه خفقات خفيفة من الخوف ،
تستمرئها نفسه ما دام أن الخطر متخيل فحسب ، وهو فى هذا مثله كمثل
سائر الجبناء والمخنثين . المهم فى الأمر هو أنه مغرم بى ، وهو لذلك كثيراً
ما يلقى إلى بأنباء عظيمة القيمة ، دون أن يبدو عليه أنه قصد إلى ذلك .
فضلا عن هذا فأنا لا أراه إلا عند الحلاق ، أما فى الشارع فلا يعرف أحدنا
الآخر . وبين حين وحين أرسل إليه سلة من فواكه مختارة ، على سبيل
اعتزاز الصديق بصديقه ، لا أكثر .

وفى هذه اللحظة فتح الباب ودخل منه إعرابى شاب ، يرتدى جلبابا
أزرق كثير الترقيع ، وإن يكن نظيفاً للغاية . كان حافى القدمين ، يلف على
رأسه عمامة بيضاء مشدودة . وله وجه صغير شديد الجاذبية ، ذو تقاطيع
حادة صارمة كأنما قدت من خشب التك ، قد لفحه هواء البحر فجعله فى

لون البرونز . وعلمت أنه ليس مصرياً بل حجازى من سكان الجبال .
وحين تقدم لمصافحتى لاحظت أن له عيناً واحدة .

قال ستافرو وهو يقدمه لى :

— هذا هو جبيلى . ولو أن كل امرىء ينال ما يستحق لصار ملكا
أو أميراً ، إذ لا يوجد فى كل عشرة آلاف رجل من له قلب كقلبه ، لقد
أنقذت حياته مرة ، وهو يعرف ذلك . لهذا فهو يعتقد أنه من الطبيعى جداً
أن يبذل حياته من أجلى ، لو دعت الحاجة إلى ذلك . سوف أقص عليك
قصته يوماً ما . ولقد طلبت منه أن يحضر هذا المساء لمقابلتك حتى تستطيع
أن تتعرف عليه غداً ، فهو الذى سيتسلم منك البضاعة .

ثم تابع حديثه فقال :

— إن مهمة ألكسندروس قد انتهت . ولو أنك شوهدت معه فى
المقاهى التى يتردد عليها لضاع كل شىء . غداً صباحاً سترى جبيلى مستلقياً
فى أشعة الشمس بالقرب من المحطة ، وسوف يراك من تلقاء نفسه دون
حاجة إلى أن تلفت نظره بأدنى إشارة تصدر منك . وعليك أن تقتفى أثره
عن بعد ، وسيقودك إلى المكان الذى يجب أن ترسو عليه بالبضاعة . هذا
المكان هو الحائط البحرى الجارى بناؤه الآن ، وسيجلس جبيلى فوقه بعض
الوقت . فلترقبه من بعد ولكن لا تقترب من الحائط بشخصك . حسبك
أن تستوعب المكان فى ذهنك جيداً ، إذ من الصعب الاهتداء إليه حين
يخيم الظلام . ويوجد فى شارع قريب من الحائط ، مطعم صغير يديره
رجل يونانى . هناك تستطيع أن تحادث جبيلى وأن تتخذ أهبتك وأنت
مطمئن ، فإن صاحب المطعم يشتغل لحسابى .

ولما كان ألكسندروس قد غادر المنزل منذ حين ، فقد سلمت على
أفراد العائلة جميعاً واستأذنت فى الانصراف . وفيما كان ستافرو على وشك

أن يفتح الباب ، توقف قليلا ليدلى إلى بالتعليمات الأخيرة :

ــ خذ حذرك من الحارس الذى قد يكون واقفاً على الحائط البحرى ، إذ لا يجب أن يراك وأنت مقبل من البحر . فأنت على الماء تمكن رؤيتك بوضوح ، بينما يكون هو مختفياً فى ظل الصخور . فضلا عن هذا فإن هؤلاء الوحوش سريعو المبادرة إلى إطلاق النار ، إذ أن رؤوسهم قد ملئت فى زمن الحرب بأشتات من قصص الغواصات .

فأجبته قائلا :

ــ أعرف ذلك ، فلا يشغلن بالك . إن لى مراناً طويلا فى مراوغة مثل هؤلاء الناس .

ــ حسناً . إن كان الأمر كذلك فلن أنشغل عليك . الله معك :

تمتمت المرأة البدينة ببضع كلمات يونانية ، ولعلها كانت تقول إنها سوف تصلى من أجلى أمام الأيقونة . ولما هممت بمغادرة المنزل ، لمحت الفتيات الثلاث الشاحبات الوجوه يحدقن فىّ بقلق . وانفتح الباب الصامت على الليل المدلهم ، ثم أغلق من ورائى . كنت وحيداً وسط السكون ، وكأنما كل ما شاهدت لم يكن سوى حلم من الأحلام .

رجعت إلى بور توفيق بالقطار الأخير :

« حذار من الحارس ! » بخ بخ . . . مادام الحظ إلى جانبى فعلام التردد ! ولعل ستافرو كان على حق ، فكل شىء مكتوب . وفى هذه الحالة . . .

الفصل الحادى والعشرون

الحائط البحرى

اتفقت مع جبيلى على أن ينتظرنى عند الحائط البحرى فى الساعة العاشرة مساء ، عند ما يغرب القمر . ولقد أعطيت نفسى فسحة من الوقت حتى لا أكون فى عجلة من أمرى . وكان مكان البرميل الذى أخفيت فيه الحشيش يبعد أكثر من ستة أميال ، فإذا اتفق أن كان الجو هادئاً سار كل شىء على مايرام ، إذ فى وسعى أن أذهب إلى هنالك ثم أعود فى أربع ساعات . ولقد تفحصت الحائط جيداً أثناء النهار ، فإذا به حاجز من صخور ضخمة ألقيت فى البحر بكميات عظيمة ، بقصد استكمال بنائها فى المستقبل ، حيث قد جعلت الحرب الشروع فيه متعذراً فى ذاك الوقت . وكان على ان أدون سائر التفاصيل فى ذاكرتى ، ففى الظلام لن يكون فى وسعى تمييز أى شىء بوضوح .

فى تمام الساعة الخامسة نزلت إلى القارب بصحبة عابدى وعلى عمر وأحد الدناقلة لاستحضار عبنة الحشيش . وأخذنا نجذف بعيداً عن « فتح الرحمن » بزعم أننا نصطاد السمك ، حتى لا نثير انتباه أحد . وكانت ريح الشمال تهب بأكثر قوة ، فلما أصبحنا من البعد بحيث تتعذر رؤيتنا من بور توفيق ، طرحنا الادعاء جانباً ، وشققنا الطريق إلى هدفنا مباشرة . صعدنا إلى « فتح الرحمن » وأعملنا المجاذيف فطارت المركب مع الريح . وما لبث الريح بعد أن هاج شيئاً فشيئاً ، ولكننا لم نلق إليه بالا حيث كنا نسير مع الريح . وهبط الليل سريعاً على خلاف ما كنت أود ، فقد كنت أحب أن

أصل إلى مكان البرميل قبل أن يسود الظلام . وخشيت أن أجد مشقة فى التعرف على المكان ، فقد كان الشاطىء الرملى يمتد على وتيرة واحدة وهو خلو من العلامات المميزة .

كانت منارة بور توفيق الخارجية هى أول علامة تدلنا على اقترابنا من المكان الذى أخفينا فيه الأكياس . فيممنا صوب الشاطىء ، إلا أن ارتفاع المد جعلنا نتوغل فى الداخل أكثر مما توغلنا فى المرة السابقة . وأخيراً شعرنا بتقدم السفينة يصطدم برمال الشاطىء ، فتركنا السفينة حيث هى ، ونزلنا فى الماء الذي كان يصل إلى منتصف الفخذ . وكان القمر لا يزال وليداً ، وضوؤه الباهت يلقى أمامنا ظلالا خفيفة متراقصة . وامتدت رمال الصحراء أمامنا إلى غاية مرمى البصر . ولقد تعرفت على طبيعة الأرض التى تركت فيها الأكياس ولكننى لم أستطع أن أتميز شيئا يشبه البرميل . وأكد لى على عمر — بما له من حاسة توجيه غريزية يتميز بها معظم الأهالى — أننا ابتعدنا كثيراً نحو الجنوب ، ولذلك عدنا أدراجنا صوب السويس فى محاذاة حافة الماء .

وعلى حين غرة توقف عابدى عن السير ، وارتمى على أربع ، ثم نادى علينا وأشار إلى آثار أقدام حديثة مطبوعة على الرمل الطرى . وحين يقوم المرء برحلة ليلية كهذه ، فإن أتفه الأشياء تتخذ أهمية تبعث على الذعر . وسرعان ما شطحت مخيلتى بسرعة فائقة . إن هذه الآثار لا يمكن أن نكون نحن الذين خلفناها فى المرة السابقة ، إذ أننا لم نسر فى هذا الاتجاه من قبل واستخلصت أن الصيادين لابد يأتون إلى هنا ، وهو شىء طبيعى محض . إننا لم نعد فى أماكن مهجورة بعيدة عن مساكن الرجال ، وليست آثار الأقدام هنا بالشىء الذى يقلق البال .

وبينما نحن نتابع السير ، إذ لاح على البعد شبح أسود ، فانطرحنا على

وجوهنا بأسرع ما يمكن . وأخذنا نرقبه لحظات ، فكان أشبه برجل رابض يلتزم السكون المطلق ، فلا حركة ولا بادرة . من المحتمل أن يكون هذا الشىء هو البرميل عينه ، فنازعتنى الرغبة فى أن أقفز إليه وأتحقق منه ، ولكننى أمسكت خوفاً مما قد يترتب على هذا من نتائج ، لو اتضح أنه رجل فى واقع الأمر . فلو أنه كان صياداً من الأهالى ووقع بصره علينا ، لأدرك فوراً أننا غرباء ، وحينئذ سرعان ما تصبح رحلتنا الليلية موضع ثرثرة فى مقاهى الأهلين ، مما يلصق بنا الشبهات فيما بعد .

ووجدت من الأفضل أن أترك رجالى منطرحين حيث هم ، وقمت أنا وسرت فى غير تحفز على امتداد الشاطىء ، بحيث أتمكن من اجتياز تلك الكتلة السوداء على بعد ما يقرب من عشرين خطوة . بذلك أستطيع تميز كنه هذا الشىء . فإن كان رجلا وأقرأنى التحية ، رددتها عليه ، وواصلت سيرى فى سكون . وسرعان ما رأيت كم كان ذعرنا بغير موجب ، بل ومضحكا فى الوقت عينه . لم يكن ذلك الشىء الأدكن سوى البرميل الذى نبحث عنه ، وإن كان ضوء القمر قد أكسبه هيئة غريبة بما ألقاه عليه من ظلال إشعاعه الباهت .

انطلقنا عدواً . ولم تبدر من شىء بادرة ، بل كان كل شىء كما تركناه . إلا أننى وجدت آثار الأقدام قد انقطعت عند البرميل تماما ، فتصبب منى عرق بارد . ولمدة عشرين ثانية استولى على اعتقاد بأننا كنا مراقبين من النار ، وبأن هناك من أتى وبحث عن مخبئنا حتى عثر عليه ، ولكن عندما التقت يداى المتحسستان بالأكياس الصغيرة ، شعرت بأن معجزة قد وقعت ، لفرط ما كنت متأكداً من أنها قد سرقت ، وكنت وضعت الأكياس فى البرميل دون أن أحاول إخفاءها إلا بطبقة خفيفة من الرمال ، ولقد كان فى هذا نجاتها ، إذ من الواضح أن أحداً من الناس قد جاء وبحث

فى كافة الرمال المحيطة ، كما تدل على ذلك آثاره المرتسمة على الرمال فى وضوح . ما أصدق قولهم إن أفضل مكان للإخفاء ، هو أظهرها وأكثرها تعرضاً للعين .

استخرجت الأكياس ، فكانت عشرة فقط ! وعبثاً أنفذت أصابعى خلال الرمل الذى كان فى البرميل فلم تعثر بشىء . وكنت على ثقة من أننى وضعت اثنى عشر كيساً ، كما قرر على عمر أنه أحصاها أيضاً فكانت هذا العدد . وإذن فالمخبأ لم يكن بالمناعة التى تصورتها ، فقد أمكن اكتشافه آخر الأمر ، وإن كان اللص لم يستول إلا على كيسين ، بنية أن يعود لاستلاب الباقى فيما بعد . واستولى على قلق شديد ، فقد أهمنى هذا الاكتشاف إلى درجة لا مبرر لها . من المحتمل أن يكون على عمر مخطئاً مثلى . إلا أن الوقت على أى حال لم يكن يتسع للحدس والتخمين . ووضعنا الأكياس فى ثلاث حقائب من المطاط ، كان جبيلى قد أعطاها لى بقصد حماية الحشيش من أخطار نقله ليلا على مركب صغير كمركبى . وعدنا إلى الزورق وفى قلوبنا نوع من الرضاء ، وسرعان ما تلاشينا فى جوف الليل .

كان الريح قد اشتد فى ذلك الحين . ولما كنا نسير فى عكس مهبه ، فلم يكن حالنا مما يسر كثيراً . وكان علينا أن نتجمع فى مؤخرة المركب حتى لا نغترف من مياه الأمواج ، إلا أنه بالرغم من هذا الاحتياط اضطررت طيلة الوقت إلى الاشتغال بتفريغ المياه . ولقد دعوت فى سرى لحقائب المطاط . ومع ذلك فحين بلغنا منتصف الطريق ، ازداد ارتفاع الموج وصار الريح أكثر عنفاً . وتوقف الدنقلى الذى كان أمامى عن التجذيف ، ليساعدنى فى مهمة تفريغ المياه . إلا أنه بالرغم من هذه الجهود ، ظلت المركب ممتلئة بالماء إلى نصفها ، وكان من الطبيعى أنها كلما ازدادت ثقلا ، ازدادت كمية ما تغترفه من المياه . وجال فى ذهنى خاطر يائس بأننا لن نصل أبداً .

وحدث أن طغت موجتان متتابعتان على مقدم المركب ، فملأتها بالمياه إلى حافتها . وقفزنا جميعاً فى البحر لكى نفرغ المياه بواسطة هز المركب أماما وخلفاً . ووقعت حقائب المطاط فى البحر ، ومن حسن الحظ أنها طفت ، ولكنها كانت قد ابتعدت مسافة ما قبل أن يتمكن عابدى من الإمساك بها . وعدنا جميعاً إلى المركب فيما عدا عابدى الذى صاح قائلا :

– انطلقوا بدونى . فى وسعى أن أعود عائما ، فالمركب — كما هى — تحمل أكثر مما تستطيع .

وما أن تم كلامه حتى دفع المركب دفعة قوية ، ثم غطس فى الماء ليضع حداً للجدل . واختفى فى الظلام . ولوقت ما كان فى وسعنا أن نسمعه يغنى ما كنت أدعوه « أغنية عابدى » وهى الوحيدة التى يعرف ، وكانت تنطلق من فيه فى أشد المواقف حرجا ، بنغمة تنبض بغبطة من لا يشغل باله شاغل ، وكأنما هو نقاش يقطع الوقت وهو جالس على العارضة يعمل . وفى لحظة تلاشى صوته وسط زمجرة البحر وصفير الريح . ولأن المركب قد أصبح الآن أخف حمولة ، فقد سار فى طريقه بشىء من الثبات . وقل اغتراف الماء وازداد ابتعاد مصباح المنار الأحمر عن مؤخرة المركب ، كما لاحت البواخر فى الميناء تحت نجومها المزدوجة ، وهى إضاءتها المتعارف عليها حين ترسو فى الموانى .

كان البرد يقضى على تدريجا . كنت أرتعش بعنف ، وأسنانى تصطك . ولكننى بذلت ما فى وسعى لمواصلة التجذيف . وأخيراً اعترى البحر بعض الهدوء حينما اقتربنا من السويس . وسرنا على غير هدى وقتا ما ، وفى النهاية تمكنا من رؤية الحائط البحرى ، التى زادت أنوار المدينة المتألقة من ورائه فى صعوبة التعرف عليه . وتركنا الدنقلى يجدف ، وانطرحت أنا وعلى عمر فى قاع المركب ، ورحنا نحدق من فوق حافتها علنا نتميز هيئة حارس متخف فى غضون

الصخور . وعند ما صرنا على بعد مائة خطوة ، وفى قبالة المكان الذى كان على جبيلى أن ينتظرنا فيه ، تقدمنا من الحائط بمقدم المركب مواجهة ، فصرنا أقل وضوحا على سطح الماء ، ومع ذلك كانت المخاطرة عظيمة .

وعلى حين غرة لاح لنا من ظلال الحائط أشعاع أحمر يصدر وميضا متقطعا ، وكأنه سيجارة مشتعلة . حدست أنه جبيلى ، وتقدمنا بأكثر سرعة فقد بدا الضوء كأنه يومىء إلينا . ولما صرنا على بعد عشرين خطوة نهض امامنا شبح أبيض فتعرفت على جلباب جبيلى . وبغير أن نتبادل كلمة واحدة أسلمناه حقائب المطاط ، فلما أخذها أشار إلى نتوء فى البحر وهمس بسرعة قائلا :

— كن على حذر فثمة عسكرى هناك . أخرج إلى عرض البحر ولا تجب إن نودى عليك . ليس الأمر بذى بال بالنسبة إلى فأنا أعرفه .

ولكن صوتا مالم يصدر من جوف الظلام . وفى الساعة الواحدة صباحا كنت على ظهر سفينتى « فتح الرحمن » . لم يكن عابدى هناك . ولقد أفسد غيابه كل شعور بالفرح كنت قمينا بأن أحسه لقاء نجاح محاولتى الأولى فى تسليم بضاعتى . وحين فكرت فى أننا ، ونحن فى زورق سريع ، قد استغرقنا ثلاث ساعات لقطع تلك المسافة ، تعجبت لما يكون من أمره ، وليس لديه مايعتمد عليه سوى قوة ساعديه . لم ينم أحد من البحارة هذه الليلة ، وبقينا جميعاً نرقب المياه السوداء فى لهفة ووجوم . وفى الفجر هدأت الرياح ولكن البحر لم يرد عابدى إلينا .

الفصل الثانى والعشرون

أنا وستافرو نتقارع بالسيوف

حتى القهوة كان لها طعم مرير فى حلقى ، وبهاء الشمس المشرقة التى نشرت بساطاً من ذهب فوق الجبال والصحراء ، بدا بمثابة سخرية قاسية تهزأ بالحزن والألم اللذين يملآن قلبى . ومع ذلك لم يكن فى وسعى الاعتقاد بأن عابدى قد لاقى مثل هذه الميتة البلهاء . عابدى يموت غرقا ! إنه سخف لا يعقل . لقد بقى فى الماء مرة ستا وخمسين ساعة ، ولم يظهر عليه حينئذ أنه يجد فى ذلك شيئاً خارقا للعادة . ظللنا نشجع أحدنا الآخر بالتحدث عن الملابسات المتعددة التى تجعل من عودته للظهور أمراً قريب الاحتمال . ومالبث انصراف كل منا إلى أعماله العادية على ظهر السفينة ، والحياة الصاخبة فى محيط الميناء ، أن صرفت عقولنا عن التفكير والتلهف .

حدثت نفسى فى حزم بأنه ليس مايدعوا إلى استشعار القلق قبل حلول مساء اليوم التالى . وتركت الأمور تسير على هذا الوضع ، إلا أن ذلك لم يمنع عقلى من أن يغشاه انقباض مزعج وخوف معاود ، كأنه خوف فاجعة تحلق فوق الرؤوس . وحين دخلت لأقيل لم أستطع النوم ، فبقيت راقداً أحدق فى أسى فوق الصحراء ترعشها الحرارة ، والتى تمتد جنوبا حتى الشاطىء الأسيوى . وعلى حين غرة رأيت نقطة سوداء بارزة على صفحة الرمال الصفراء . وهرعت إلى نظارتى المكبرة . إنه من الصعب على المرء أن يرى فى تلك الحرارة الخفاقة التى تمسخ صورة الأشياء . ولكننى استطعت فى النهاية أن أميز شبح إنسان . إنه عابدى ، وأنا واثق من ذلك .

كان من المستحيل التعرف عليه ، ولكن ثمة شيء حدثني بأنه هو ، وبعد ساعة استطعت أن أرى أنني كنت محقا . كان يمشي على طول الشاطىء . ورأيته ينحني ثم يقف ، ثم راح يجرى فى أثر « أبى جلمبو » وكأنه رجل خلى يجمع طعما لصيده . ولما أصبح قبالتنا فى الناحية الأخرى من القنال نزل إلى الماء فى هوادة ، فكان رأسه يظهر فوق السطح بين الفينة والفينة ثم يغطس ثانية ، وبعد ربع ساعة كان متعلقا بالمركب .

وراح يفسر تأخيره قائلا :

— الأمر غاية فى البساطة . لم يكن فى وسعى أن أسبح ضد الريح حين تركتمونى ، أو على الأصح لم أرغب فى ذلك ، ففضلت أن أعوم إلى الشاطىء ثم أتوجه إلى السويس مشياً على الأقدام . ولكن فيما أنا سائر التقيت بثلاثة رجال متجهين نحو الجنوب ، فرقدت فى الماء حتى جاوزونى . وبعد ذلك خطر لى أن أسلى نفسى باقتفاء آثارهم عن بعد ، مسترشداً بآثار أقدامهم . وحين بلغوا البرميل الحديدى وقفوا عنده ، وأخذوا يحفرون من حوله حتى تمكنوا من رفعه ، ثم قلبوه رأساً على عقب ، ومن بعد ذلك واصلوا سيرهم صوب الجنوب .

ولقد وافقنى عابدى على أن أكياسنا كانت قد اكتشفت بواسطة الرجل الذى شاهدنا آثار أقدامه ، ولكنه لم يكن حينئذ قادراً على حمل البضاعة ، ولاعتقاده بأن المخبأ أمين ، فقد ترك الأكياس حيث كانت ثم عاد فيما بعد بصحبة أصدقاء له . ولقد سبقناهم إلى هناك بساعتين قصيرتين فحسب .

واختفى عابدى بعد انصرافهم وراء كثيب من الرمال ، وظل يرقب إلى مطلع الفجر ، ولكن أحداً لم يعد .

أصبحت أبعد ما يكون من راحة البال . ماذا يكون من أمرى لو أن هؤلاء الأفاضل ظلوا ينقبون فى الجيرة حتى يهتدوا إلى المكان الذى

أخفيت فيه بضاعتى الأصلية ؟ وارتعدت إشفاقا على صناديقى ، لأنه إذا شك أحد فى وجودها ، فإن العثور عليها يصبح لعب عيال . واستولى على اضطراب شامل فوددت لو قصدت المخبأ على الفور . غير أننا كنا نرسو فى ميناء ، وكان علينا أن نمر بإجراءات طويلة قبل أن يسمح لنا بالإبحار ، فضلا عن أن هذا الرحيل المفاجىء لا بد أن يبدو غريباً منتهى الغرابة . ورأيت من الأفضل أن أستشير ستافرو فيما يلزم عمله ، فهو الوحيد الذى يستطيع مساعدتى . كان على أن أذهب إلى منزله هذه الليلة على أى حال لإنهاء صفقة الحشيش الذى سلم إليه ، وفى وسعى حينئذ أن أحدثه بمخاوفى .

توجهت إلى السويس بعد العشاء ، وأخذت معى عابدى وعلى عمر ليعرفا محل إقامة ستافرو ، وأمرتهما بأن يقتفيا أثرى عن بعد . كان ضوء الشفق لا يزال يتسكع فى شوارع الحى الوطنى ، وحرارة النهار تشع من من الأرض والحوائط أشبه بتنهدة ضخمة . وما لبث الضوء الخافت أن تلاشى فى ظلام الليل — إنها الهدنة اليومية من حرارة الشمس المحرقة . وكان الشارع المؤدى إلى البحر مقفراً من السابلة ، وإن كان مع ذلك ينبض بالحياة الشعبية المستترة . فقد بدت الأنوار الملتمعة من خلال النوافذ الكثيرة للمنازل المتعددة الطبقات ، كما تصاعد فى الجو هدير غامض قوامه اصطكاك الأطباق ، ونغمات الموسيقى المنبعثة من آلات الجراموفون ، وصراخ الأطفال ، وضحك النسوة وسبابهن ، وسعال مريض متهالك ، وطنين آلة خياطة — وفى كلمة ، تلك السيمفونية العريضة غير المنسجمة التى تنبعث من أفراد الطبقة العاملة ، وقد تخففوا وتبسطوا ، مغتبطين بعودتهم إلى منازلهم بعد يوم من العمل والكدح .

ولاح فى إحدى الشرفات شبح امرأة رأيتها تأتى بحركة فاتنة ، فلما تأملتها وجدتها تطوح بلفيفه مملوءة بالنفاية ، وسرعان ما اصطدمت

بأرض الشارع فتناثرت محتوياتها ، وصدر منها صوت موسيقى هو رنين الزجاج المتكسر . وقبالة مدخل كل منزل جلس الرجال يدخنون فى غبطة ، وينشقون الهواء الدافىء المختلط برائحة المياه العطنة . وكلما اقتربت من نهاية الطريق كانت الحركة تخف تدريجاً ، إلى أن تلاشت تماماً تاركة المنزل الأخير كالمهجور ، وقد شمخ فى سكون أمام مياه البحر الناعسة . انحرفت إلى الشارع الجانبى فابتلعتنى ظلماته على الفور . ودققت الباب ، فخضرت المرأة المتشحة بالسواد ، ففتحت وأذنت لى بالدخول . وكانت ابتسامة التحية التى وجهتها إلى هذه المرة توشك أن تكون مرحة . ثم قادتنى فوراً إلى الغرفة الرهيبة حيث الأيقونة السرمدية لا تنى عن السهر والحراسة . وخاطبتنى باليونانية ثم ضحكت حين رأت أننى لم أفهم ، وعادت فأخبرتنى بالعربية أن ستافرو غائب ، ولكنه سيعود حالا . أما تابعاى فقد تركا فى الردهة جالسين القرفصاء .

وأخيراً حضر سيد المنزل . ولقد بدا لى حينئذ أضخم منه فى المرة السالفة . ما أبهاه منظراً لقاطع طريق ! وألقى قبعته بحركة مسرحية ، ثم حيانى بنبرة مرحة . وصاح مناديا زوج أخيه بصوت مخيف كصوت الغول ؛ ولكنها حضرت إليه هادئة متئدة شأن المعتاد على مثل هذه الضجة الراعدة . وقدم إليها ستافرو لفيفة صغيرة كانت مختفية تماماً فى قبضة يده الضخمة ، فإذا بها تحتوى على شمعتين صغيرتين فى حجم الأصبع ، اشتراهما لمحراب الأيقونة .

أخبرته بما رواه عابدى عن الرجال الذين رآهم أثناء الليل بالقرب من مخبئنا ، فراح يهز رأسه شأن المستغرق فى التفكير ، ومع ذلك فقد راودنى شعور بأنه مرتبك أكثر منه منزعج . وأخيراً قلت :

— ما أظن أن فى الأمر ما يدعو إلى كثير من القلق . لقد توقعت

أنك تعرف هؤلاء الرجال ؛ وإنى أعجب كيف أنهم إلى الآن لم يبلغوك نتيجة بحوثهم ، شأن أولئك الذين كانوا فى القارب .

— أى شىء تعنى ! أتظننى هذا الحمار حتى أخاطر بإفشاء سر صفقتنا لمجرد التلذذ بالتجسس عليك ؟ إن مهنتنا تحتم على المرء أن يكون أميناً وقادراً على بذل ثقته التامة بغير تحفظ . حقيقة إن التجارة العادية قوامها الغش المتبادل ، والتاجر المتميز هو الأكثر مهارة فى وضع أو تفسير بنود أى عقد لمصلحته ، وبغير خروج عن نطاق القانون ، فيمارس بذلك لعبة التطاحن التجارى التى من أجلها اخترع القانون . أما حالتنا فتختلف تمام الاختلاف ، فنحن خارجون على القانون . القاعدة الوحيدة فى لعبتنا هى الإخلاص للكلمة المبذولة . وصدقنى إن قلت لك أنه حين يشعر الناس بالحاجة إلى إثبات معاملاتهم فى محررات ، فلأنهم يريدون إراحة ضمائرهم فيما بعد ، إذ يضعون كل ما يصدر منهم من غش وإعنات على عاتق ما فى العقد من بنود وأحكام . ولا ينبغى أن تقع فى خطأ الخلط بين المهربين وبين من يتعيشون على حساب التهريب . ولقد أبعدت ألكسندروس لأنه ينتمى إلى حد ما إلى تلك الفئة الأخيرة . إنه ليس بالرجل الشرير ، ولكنه من الضعف وقلة الحيلة بحيث قد يموت جوعاً إذا لم نلق إليه ببعض الفتات . إلا أنه كما رأيت يعيش فى هذا المجتمع المحوط بالشبهات ، الذى تزين به شرفات المقاهى . إننا نحتاج هؤلاء « القاطيع » أحياناً ، ولكن علينا أن نلتزم غاية الحرص فى طريقة استخدامنا لهم .

قلت له :

— إنى متفق وإياك تمام الاتفاق ، ولست أعنى — بل ولم أفكر قط أنك قد تغدر بى . ولكن لم لا تخبرنى بما تراه فى أمر أولئك الرجال الكامنين فى الظلام ؟ يبدو أنك تجد الأمر طبيعياً محضا .

— أجل ، لقد اجترت خطراً عظيما يا صديق ، فلو أنهم عثروا على بضاعتك لما كان فى وسعك أن تفعل شيئاً . لتشكر طالعك إذ لم تفقد سوى أفتين فحسب . وإنى أخشى ألا يكون المكان الذى أخفيت فيه بقية سلعتك مأمونا بالقدر الذى تظن .

لم أملك التفكير فى أن هـذا الرجل كان يحاول الـكشف عن مكان كنزى ، ولعله فى هذه اللحظة كان يعرف سرى . قلت له مبتسما :

— لم لا تخبرنى فى صراحة أن الأفتين قد أحضرتا لك هذا الصباح ؟

— وهل نصبتنى حارساً على بضاعتك ؟

— كلا . ولـكننى جئتك للاتفاق معك على شرائها .

— كان هذا بعد أن استشرت عمال الـكهرباء فى القنال . لقد أخبرنى أحدهم كيف أنك حدثته بمشروعاتك . وعلى هذا الأساس فكل ما يخصنى هو أن أدفع ثمن ما تحضره إلى .

استشطت غضباً ، وعانيت جهداً كبيراً فى سبيل إخفاء هزيمتى . فلقد كان حقاً أننى تصرفت بغباء . ولم يكن فى وسعى إلا أن أعترف بعدالة منطق هذا الرجل ، الذى كان يدافع عن مصالحه عن طريق استغلاله لمناحى ضعفى . وأدركت أنه لن يكون رحيما إذا زلت بى القـدم ، وأن على أن أتلمس طريقى معه بمنتهى الحذر .

أجبته وأنا أحاول الاحتفاظ بابتسامتى قائلا :

— أرى أنه فى مهنتك — أعنى فى مهنتنا — توجد قواعد من المتعين على المرء التزامها . شكراً لك على هذا الدرس ، وعليك الآن أن تدفع ما أنت مدين به إلى ، فقد حان وقت الرحيـل . إننى لم أنم ملء عينى مثلك فى الليلة الماضية .

ولابد أن ابتسامتى كانت ممسوخة مسخاً ملحوظا ، فقد تأملنى ستافرو فى سخرية ، ثم قال لى بلهجة ودية :

— لا تغضب ، فليس ثمة فائدة . لقد كنت مخطئاً حين اتهمتنى بأننى أعاملك بوجهين . فلو كنت مخادعا لأمكننى بالأمس الحصول على بضاعتك كلها ، دون أن أدفع دانقاً واحداً . وما كان على إلا أن أستغل خوفك من الحارس ، فلعلك مدرك أنه قد تقاضى ثمن سماحه لك بالاقتراب من الشاطىء . إنه من أصدقاء جبيلى ، وإن ريالا بين الحين والحين لـكفيل بالمحافظة على حرارة هذه الصداقة . لقد كان فى وسعنا فى يسر تام أن نصطنع التظاهر بضبط أكياسك حين كنت تسلمها إلى جبيلى . ولقد كنت ستولى الأدبار شاكراً حظك الذى مكنك من الهرب بهذا الثمن الرخيص ، دون أن ينالك من الضرر سوى ضياع ما كان معك من الحشيش . ولكن هذا يكون بمثابة سرقة ما دمت قد وضعت ثقتك فى . ومع ذلك فعليك ألا تنسى أن كل هؤلاء الكلاب الـكسالى الذين يعيشون على حساب التهريب ، ما كانوا ليترددوا فى استخدام مثل هذه الوسائل ، او حتى فى التخلص منك إن استطاعوا ذلك دون مخاطرة .

كان شعورى بأننى اصبحت فى قبضة هذا الرجل يزداد باطراد . وأحسست أن الشبكة المعقدة لهذا الفخ اللئيم الذى دسست برأسى فيه ، قد أخذت تضيق حولى رويداً رويداً . كنت كتلك السمكة الصغيرة التى تحكى عنها الأساطير ، والتى ظلت تناضل عبثا فى سبيل الخلاص ، إلى أن قال لها الصياد معزيا : « مهما تفعلين ، فلسوف تشوين هذه الليلة »

التزمت الصمت هنيهة ثم قلت :

— إننى غـير غاضب ، بل ليس لدى علة تدعونى للغضب . إنما نحن نتحدث ، وأنت تعلمنى أشياء عدة . ولما كنت عليما بأصول هذه

اللعبة ، فعليك أن تخبرنى فى صراحة ما يجدر بى أن أفعل .

أدركت والحسرة تملأ قلبى أن مثل هذا الطلب هو اعتراف منى بالضعف، يخول له فرصة التفوق على . ولكن لما لم يكن فى وسعى أن أكون صاحب اليد العليا ولو فى الظاهر ، فمن الأفضل الالتجاء إلى نهاية الطرف الآخر ، وأن أجعله يظن أنى قد سلمت له أمرى دون قيد أو شرط . فمن شأن هذا المسلك تملق ما يملؤه من غرور ، وأنت إن تملقت إنساناً صار أدنى إلى ارتكاب الأخطاء . وفى مثل هذا الصراع ، إذا بدا أن قد ضاع كل شىء ، فالمهم هو كسب الوقت وإتاحة الفرصة للعدو حتى ينتشى بخمر النصر ، وفى تلك الأثناء قد يتيسر للمرء أحياناً أن يعثر بوسيلة تمكنه من قلب الموائد رأساً على عقب .

اتخذ ستافرو هيئة المتفكر ، وأخذ يدمدم ويزمزم شأن الطبيب حين تواجهه حالة محيرة ، وما ذلك إلا ليخفى غبطته من صيرورتى تحت رحمته .

ثم قال وهو يتحسس شاربه :

— أما وقد طلبت نصحى ، ففى ظنى أنك لو كنت قد أخفيت سلعتك تحت الرمال فى بعض جهات الشاطىء ، فمن الأوفق أن تذهب بأسرع ما يمكنك ، وفى هذا المساء إن استطعت ، فتنقلها إلى مكان ناء . إننى أعرف ما قد تثيره من اعتراضات — الوقت الذى تستغرقه إجراءات الخروج من الميناء ... الخ . لا تهتم بهذا . أعطنى رجلا من عندك يعرف مكان الصناديق ، وأنا كفيل بإحضارها .

— حسناً جداً . إذن فسوف تبتاع الكمية كلها ؟ .

— بطبيعة الحال ، وإلا فما الداعى لاهتمامى بالأمر ؟

— هذا حق ... وكم تدفع لى مقدما ؟

— ماذا ! أتريد شيئاً تحت الحساب ؟ آه ، أرى أنه لا ثقة لك بى .

— من منا تنقصه الثقة ؟ إنك الآن ترينى الطريق ، مادمت تخاف أن تقدم لى شيئا من الثمن .

— بعد كل هذا ! ماذا تريد منى أن أفعل ؟ . كل ما فى الأمر أننى لست أدرى من أين أحضر لك النقود . لعلك تظن أننى أراوغك ؟ إذن فاعلم أن الثلاثين جنيهاً التى دفعتها لك ثمناً لأقق الحشيش العشر التى سلمت بالأمس ، إنما اقترضتها من زوجة أخى .

— هذا لا يعنينى فى شىء . إذا تقدم لك رجل كمشتر ، وادعى بأنه الوحيد الذى يمكنك التعامل معه ، فمن المحقق أن تكون لديه النقود التى يدفع بها الثمن . لا تجعلنا نضيع وقتنا فى المساومة والمماحكة ، فهذا خليق بالأرمن أو بالعرب . دعنا نتكلم فيما يفيد . اعطنى خمسمائة جنيه وأنا أريك مكان الثلاثمائة وثمانية وثمانين أقة من الحشيش .

وطفقنا نتناقش قرابة نصف ساعة دون أن نتقدم قيد أنملة . وضاق صدرى بالأمر جميعه ، فحاولت التخلص من الموقف بوعود مبهمة ، تسمح لى بالانصراف وأنا على علاقات طيبة مع خصمى ، دون أن أقيد نفسى بالتزام ما .

واصطنعت هيئة المغلوب على أمرى مرة أخرى وقلت له :

— حسنا . فالحق أنها ليلة بديعة تصلح لهذه الرحلة . إلا أن الوقت قد صار متأخراً جداً ، بحيث إن الزمن الذى يستغرقه العثور على قارب ...

فقاطعنى ستافرو قائلا :

— قارب ! ها هو ذا القارب الذى يلزمك . وهو مستكمل العدة سواء من حيث الشراع أو المجاديف ، وبه أيضاً صندوق من الكعك وبرميل به ماء .

وأشار بيده صوب القارب الداكن الموضوع قبالة الأيقونة .

فاستغرقت فى الضحك وأنا أنظر إليه ، ثم سألته قائلا :

— وهل قاربك هذا يجرى على عجل ؟ .

وبدون أن يجيب سؤالى ، فتح مصراعى نافذة عريضة فبدت مياه البحر من ورائها ، وإذا بها تبلغ حد الحائط الخارجي . ولكن النافذة كانت ككل نوافذ الطابق السفلى محصنة بقضبان من الحديد ، ونظرت إلى ستافرو وأنا غير فاهم ، فابتسم الرومى وقال :

— لعلك قلق بسبب القضبان الحديدية ؟ أنظر كيف نتخلص منها .

وعندئذ أدركت أن القضبان لم تكن مثبتة فى إطار النافذة ، ولكنها تدور على محور تاركة فتحة متسعة تؤدى إلى البحر . وكان هناك خطافان مثبتان فى عوارض السقف ، يتدلى منهما حبلان وبكرتان ، بحيث يتيسر لأربعة رجال (وستافرو يضارع أى اثنين من الرجال العاديين) إنزال القارب إلى الماء فى أقل من دقيقة . كان الأمر منظما تنظيما يدعو إلى الدهش . سألته قائلا :

— هل تستعمل هذا القارب كثيرا ؟

— بل نادراً جداً . ليس إلا فى الأحوال الاستثنائية كالليلة .

فبادرته قائلا :

— لا تهتم بهذا الموضوع اليوم . إننى كاليهود لا أقوم بعمل فى أيام السبت . فلتتخذ أهبتك مساء الغد ، وسأرسل إليك رجلين يدلانك على المكان .

فقال ستافرو متفكهاً :

— ولكن السبت ينتهى عند غروب الشمس ...

— يجوز أن يكون هذا بالنسبة للعرب . ولكننى لست يهودياً ولا عربيا ، وأيام السبت عندى تمتد إلى منتصف الليل . وعلى أى حال فإننى

متعب إلى حد الموت وأكاد أنام وأنا على قدمىّ .

واصطحبنى إلى الباب وهو لا يزال يحاول إقناعى :

— هيا ، فكر فى الأمر مليا . إن حظك السعيد قد ألهمك بأن تستحضر معك اثنين من رجالك . ها نحن أربعة رجال . وفى دقيقة واحدة يكون القارب فى الماء . إن المد مرتفع ، والقمر قد غرب لتوه ، والساعة لاتزال الحادية عشرة . فى ثلاث ساعات نكون قد بلغنا مكان المخبأ .

والحق أن الرجل كاد يغرينى بالقبول . فإن الجانب الرومانتيكى للمغامرة ، وتلك الرحلة المفاجئة ، والنافذة السرية ، وذلك القارب الغامض المغلف بالسواد ، كل هذا كان من الممكن أن يخرج من قصة لألكسندر ديماس ، كأنه أثار تشوقى إثارة بالغة . ولكن سانكوبانزا الأمين الكامن فى أعماق نفسى ، ما لبث أن حذرنى مغبة إفشاء سرى لهذا الرجل الذى يحترق شوقاً لمعرفته . إنك لا تدرى إلى أين يؤدى الطمع بالنفوس . فإننى إن كنت قد شعرت بميل نحو ستافرو ، وإن كان هو قد أعلن عن نفسه بأنه لص شريف يحترم كلمته ، إلا أن المال كان فى واقع الأمر محور اهتمامه . وهو على أى حال رجل يتأثر بالإغراء . ولو وجد فى حيازته كل هذه الكمية من الحشيش التى تتيح له ربحاً ضخماً فمن المحتمل أن يزل .

وقلت لنفسى إنه من الأفضل ألا أستثير الشيطان . فضلا عن هذا فقد كنت وقعت على فكرة بارعة .

الفصل الثالث والعشرون

واخيراً أغلق الباب من ورائى ، ووجدت نفسى مرة أخرى فى الطريق مع تابعىّ . وقد أراد ستافرو ساعة الرحيل أن يكتسب ود النوتيين اللذين كانا يحدجانه بنظرات تدل على منتهى الريبة ، لما جال فى خاطرهما وقتا ما من أنى موشك على الاشتباك معه ، ولذلك فقد أهدى عابدى نارجيلة مصنوعة من جوز الهند (جوزة) كتلك التى يدخنها البحارة فى تلك الانحاء . ولم يكن عابدى يدخن ، إلا أن هذه الهدية قد مست قلبه وأفرحته ، فود لو جلس إلى جوار الطريق ليختبرها . وما أن وصلنا إلى سفينتنا حتى راح ينفخ فى نار الموقد إلى أن عثر بفحمات مشعلة ، ثم أوقظ كافة البحارة ، فلم تمنعه اللعنات التى قذفوه بها وهو ينتزعهم من نعاسهم فى خشونة ، من إرغامهم على تجربة جوزته الجديدة . وأخيراً لم يرتح بال عابدى الا بعد أن تعب تعباً شديداً لكثرة ما ابتلع من الدخان .

توجهت إلى القنصلية فى اليوم التالى ، عالما أن سبيرو سيكون هناك بعد حضور القداس . وكان غرضى أن أدعوه إلى مرافقتى بعد ظهر هذا اليوم فى رحلة لصيد اللآلىء ، وهى أول رحلة من نوعها فى خليج السويس . ولقد أردت أن يعثر القنصل على أول لؤلؤة ، حتى يسبغ على المشروع نوعا من الطابع الرسمى . وتحمس سبيرو للفكرة تحمسا عظيما ، وأخبرنى أن القنصل ذهب إلى قداس الساعة العاشرة ، ولكن من المؤكد أنه سيسر بالحضور . ثم سألنى قائلا :

— هل فى وسعى أن أدعو بعض الأصدقاء ؟

فأجبته بقولى :

— إن الأصدقاء قد يسببون شيئاً من المضايقة ، فإننى أود أن تتم الرحلة بتكتم ، إذ ليس ثمة فائدة من إعلان من هب ودب بوجود اللؤلؤ فى خليج السويس . إن فى نيتى أن أطلب احتكار صيد اللآلىء ، ومن المحتمل أن يؤدى ذيوع الأمر إلى أن تغالى الحكومة فى تقدير الثمن .

— أنت محق ، فهذا من الأهمية بمكان .

قالها سبيرو بصوت خفيض ، وهو يختلس النظر إلى ما حوله كما لو أن هناك من يستمع من ثقب الباب ، ثم استطرد قائلا :

— ومع ذلك فإن لدى صديقا عزيزاً هو ضابط بوليس ، ولابد أنه سيتحرق شوقا للحضور . لقد حدثته عنك فوجدته شديد الرغبة فى التعرف إليك . هذا فضلا عن أنه صديق لمساعد مدير الجمارك الذى أوصاه بك مفتش القصير ، والذى سيسر هو الآخر كثيراً لو حضر .

— حسناً . فى وسعك أن تحضر هذين الصديقين دون غيرهما .

ثم أضفت قائلا :

— لا داعى للقول بأننى أطلب منك ألا تذكر شيئاً عن الرحلة لأى مخلوق . . .

— لا تخف من هذه الناحية .

واصطحبنى سبيرو إلى باب القنصلية وهو يمشى على أطراف أصابعه ويتكلم همساً ، ليظهر لى أنه يعرف كيف يكتم السر .

انعقد الاتفاق على أن يتصل بى فى التليفون ببور توفيق ، ليحيطنى علما برد القنصل ، وبالساعة التى يمكننا الإبحار فيها . وقد وعدنى كذلك بأنه سيرتب الأمور مع صديق عزيز آخر (وما أكثرهم !) يعمل فى الميناء ، بحيث تستطيع سفينتى مغادرة المرفأ بدون أى إجراءات .

وبينما أنا فى طريقى إلى المحطة ، إذ مررت بحانوت ستافرو ، الذى كان يشتغل خضريا فى حياته العادية . دخلت الحانوت بدعوى شراء بعض الخضروات ، ولـكننى فى الحقيقة كنت أريد التحدث إليه . ورأيته واقفاً فى مؤخر الحانوت ، يحدجنى بنظرات مذعورة ، وقد بدا عليه أنه يجد زيارتى محرجة ومثيرة للشكوك . ولـكن سرعان ما أدرك أن لابد من وجود دواع خطيرة حملتنى على الحضور ، فاختفى فى حجرة خلفية أشبه بمطبخ ، وأومأ إلى بأن ألحق به ، فاختفيت بدورى وراء أكوام الطماطم .

وبادرته بغير تقديم قائلا :

— سأحدثك بسبب حضورى . إن صديقك سـبيرو — والقنصل الفرنسى فى الأغلب — سيحضران إلى سفينتى بقصـد النزهة ، وسوف ابحر بها جنوبا إلى جبل عتاقة . لم يكن فى وسعى أن أرفض ، فضـلا عن أن رؤيتى مع موظفين رسميين لابد أن يعلى من قدرى فى نظر الناس . ولـكننى فى حيرة من أمرى ، إذ كيف أستطيع أن اطلب من مثل هـذه الصحبة النابهة ركوب قاربى الحقير . إننى فى حاجة إلى قارب لائق يتسع لخمسة أو ستة أشخاص لأنقلهم فيه إلى سفينتى . ومن الأفضل أن آخذ هذا القارب معى ، فلربما رغب ضيوفى فى النزول إلى الشاطىء ، عند سفح الجبل .

— إنها لفكرة بارعة حقاً أن تصطحب مثل هؤلاء القوم فى نزهة بحرية . وسوف أرسل جبيلى ليأتيك بالقارب الذى تحتاج إليه . واقتصاداً للوقت يحسن بك أن ترسل أحد رجالك للبحث عنه ، فلعله فى المقهى الوطنى المجاور « للمزلقان » . ولـكنى أضرع إليك ألا تعود إلى هنا . فبالرغم من كل هذه الخضر البريئة المظهر ، فإن المعروف عنى أننى شىء يختلف تماما عن البدالين ، وسيجد رجال الإدارة أنه من المستغرب جداً أن

تتوطد بيننا الصداقة بعد يومين من وصولك ، فلا تلبث أن تحيط بك الشبهات . . .

— لا تنزعج ، فسأحذو حذو سبيرو من الآن فصاعداً ، لن أراك فى الطريق .

وسرعان ما عثر على عمر على جبيلى ، فأخبره أن ستافرو يريد رؤيته ، ثم عدنا أدراجنا إلى السفينة .

كان فى نيتى أن أهب ضيوفى كل اللآلىء التى قد نعثر عليها فيما نصطاد من محار ، وذلك على سـبيل التعبير عن شكرى لهم لإعفائى من تحمل الإجراءات المتعبة التى تستلزمها مبارحة الميناء . ولـكننى خشيت ألا نعثر على شىء من اللآلىء ، كما يحدث عادة حين يعتمد المرء مقدما على وقوع شىء فى المستقبل . ومع ذلك فلما كانت نيتى قد انعقدت على أن أقدم لهم هذه الهدية ، فلم لا أبذل للحظ بعض العون بأن أضع فى الأصداف ماعندى من لآلىء ! إن القيمة الجوهرية لهاته اللآلىء فى نظرهم ستنحصر فى أنها قد عثر عليها فى حضورهم . فمن الأفضل أن أضعها فى القواقع مقدما ، حتى تتم الخدعة . ولقد كان لهذه الخدعة فى نظرى مايبررها . فأرسلت اثنين من رجالى إلى ميناء السويس الداخلى ، حيث تغطى الأرصفة بطبقة من المحار تظهر عند انحسار ماء الجزر . وهى بطبيعة الحال خالية من اللآلىء ، إلا أن أصدافها رائعة . وعادا وشيكا بسلة مفعمة ، ففتحت المحار فى الشمس ، ثم دسست فيه اللآلىء . وبهذه الوسيلة صرت واثقا من أنه حتى إذا لم تنجح الرحلة فى تحقيق غرضها ، فإن ضيوفى لن يخيب رجاؤهم .

وفى الساعة الحادية عشرة رأيت « ساعيا » من القنصلية يلوح لى من فوق الرصيف . ولقد أرسله سبيرو ليخبرنى بأن القنصل يأسف لعـدم استطاعته الحضور ، ويسأل عما إذا كان فى وسعى تأجيل الرحلة إلى يوم

آخر . فأجبت بأنه من أيسر الأمور أن نقوم برحلة أخرى ، غير أنى مع ذلك سأنتظر سبيرو وصحبه فى تمام الساعة الثانية .

والحق أننى ارتحت لتخلف القنصل ، فقد شعرت أنه من النذالة أن أشرك هـذا الرجل الفاضل فى مثل تلك المشغلة . ولـكن ماذا كان فى وسعى أن أفعل ، وهذا هو المخرج الوحيد من موقف صعب ! إن أسوأ ما فى تلك المغامرة التى ولجت بابها ، أننى كثيراً ما اضطررت لإتيان أفعال يعتبرها ضميرى على قدر من الضعة . ليست الأخطار مما يهمنى ؛ أما هذا الخروج على مبادئى الخلقية ، فقد كنت أجده بغيضاً للغاية .

وصل القارب الذى طلبت ، يجدف فيه إثنان من العرب . وكنت قد ابتعت بيرة وكعكا وشمبانيا وثلجاً . وما دام جيبى يحوى ثلاثين جنيهاً ، فلا بأس من أن تـكون الوليمة على نطاق واسع . واخيراً ظهر ضيوفى يتقدمهم سبيرو ، ومن فوق رأسه مظلة ، ومن ورائه اثنان من الموظفين يعملان فى شرطة الجمرك . وكان يصحبتهم خادمان يحملان الطعام . إلا أننى أصررت على بقائهما على الشاطىء ، لما قدرت من أنهما سيسببان لى مضايقة كبرى . ولـكننى بطبيعة الحال ادعيت أن ذلك إنما تتطلبه دواعى التكتم الواجب مراعاتها بدقة .

وبعد لحظات كنا جميعاً على ظهر « فتح الرحمن » ، نجر وراءنا القارب الذى ارسله ستافرو ، وقد استلقى فيه الأعرابيان واستسلما للرقاد . وكنت قد نصبت مظلة على السطح ، ومددنا فوق مؤخرة السفينة بساطاً عجمياً أحضره سبيرو . وانطلقنا بخفة فوق مياه الميناء الساكنة ، وقد نشرنا الشراع جميعاً . وقد سرنى أن تلاقينا مع قارب الجمرك وهو فى طريقه لزيارة باخرة كبيرة آتية من الجنوب ، فقد تعرف ملاحو القارب على السادة المضطجعين على ظهر سفينتى ، وحيوهم باحترام . وقهقهت فى قرارة نفسى .

وسرعان ما خلفنا زحمة الميناء وراءنا . وكان سبيرو قد استولت عليه نوبة شعرية ، فراح يقارن الشراع المنتفخ بأجنحة الفراش ، والبحر بأكوام من الزبرجد والياقوت ، واخذ يعجب برشاقة طير النورس وهو يعلو ويهبط على صفحة الماء ، وهكذا . . . أما الآخرون فقد أحضروا معهم (جراموفون) صغيراً ، لعلمهم بأنه يستحيل الاستمتاع بروائع الطبيعة إلا على توقيع تلك الموسيقى المحفوظة فى العلب . وكانوا يديرون أغانى عربية محاولين بذلك إيقاع الدهشة فى قلوب رجالى الذين ظنوهم متوحشين من قلب أفريقيا . ومع ذلك فلشد ما أعجبوا ببساطة لباسهم المؤلفة من قطعة من القماش يلفونها حول مناطقهم ، وبنعومة نسيج بشرتهم اللتمعة الصافية . واستلقينا على البساط نشرب البيرة وندخن لفائف من ذوات الإطار الذهب ، بينما شرع تابعى « فيران » فى اصطناع التهريج بصحبة اثنين من الدناقلة ، وأخذ ثلاثتهم يرقصون رقصاً هو أعجب ما فى بلادهم وأبعثها على الضحك ، رغبة فى تسليتنا . ولم أكن قد أطلعت أحداً منهم على الغرض الحقيقى من رحلتنا ، ولـكنهم شاهدونى وأنا أضع اللآلىء فى الأصواف ، وحزروا أن ثمة دعابة تعد ، فعملوا ما فى وسعهم لمضاعفة جو الحبور فى تلك الفكاهة المستغربة .

لا ريب فى أن القارىء قد حزر ما كنت بسبيله . فلقد أردت أن أذهب إلى الشاطىء الذى دفنت فيه صناديق الحشيش ، لأرى ما إذا كانت فى أمان . فإن كانت لا تزال كما تركتها ، فعلى أن أحاول نقلها إلى مخبأ آخر ، أو أن آخذها معى على ظهر السفينة . وسرت فى حذاء الساحل زاعماً أننى أبحث عن مكان لائق لصيد اللآلىء . وغابت السويس عن الأنظار ، ثم بدا الشاطىء المعهود للعيان . كان قلبى يدق دقاً خليقاً بالانفجار ، حين تناولت منظار البحر وأخذت أذرع به الرمال جيئة وذهاباً . وشاركنى

رجالى جميعاً فى لهفتى ، فحاولوا إخفاء عواطفهم بأن شرعوا يغنون بصوت أكثر ارتفاعاً عن ذى قبل . ونزلنا إلى القارب واقتربنا به من الشاطىء بقدر الإمكان ، ثم ألقيت المرساة فى مياه ضحلة . وحينئذ لاحظت رجلين مختبئين تحت صخرة ، لم يلبثا أن نهضا من مكمنهما حين اقتربنا منهما . ولم يكونا إلا على بعد خطوات قليلة من المكان الذى دفنت فيه سلعتى . وشعرت بعلى عمر يلكزنى فى ضلوعى ثم أشار ناحية البحر ، فرأيت شراعاً مقبلا صوب المكان الذى كنا فيه ، ولقد استطعت أن أعرفه بسهولة ، إذ لم يكن سوى ذلك المركب الذى أقلق بالى يوم وصولى إلى السويس . وساءلت نفسى عما إذا كان ذلكما الرجلان ينتظران قدوم المركب . أصبح من الحتم الآن أن أبادر بنقل بضاعتى من مكانها ، ولكن على قبل ذلك أن أتخلص من الرجلين . إلا أن المظهر الرسمى للطرابيش الحمراء التى يرتديها اثنان من ضيوفى كان قد بدأ يفعل فعله ، إذ سرعان ما شرع الرجلان ينسحبان فى حذر صوب كثبان الرمال .

وقلت لسبيرو :

— أنظر إلى هذين الأعرابيين . . . لست أرغب أن ينطلقا فيذيعا بين الناس أننا نصطاد اللآلىء

— لا تقلق فإن صديقى الضابط سيلقى إليهما بكلام ، وأنا الكفيل بعد ذلك بأنهما لن يتوانيا فى الانصراف .

ولكن يظهر أن الرجلين المجهولين كانا يتمتعان ببصر حديد ، مكنهما من التعرف على شخصيات ضيوفى عن بعد ، فقد رأيتهما يطلقان أرجلهما للريح ، ويتخذان طريقهما هربا صوب الشمال .

وعندئذ خاطبت ضيوفى قائلا :

— إن كنتم لا تخافون الشمس ، فسنبدأ الصيد من الآن فى الشعب

الواقعة خلف هذه الصخرة الممتدة فى البحر . لقد وجدت فيها من قبل أصدافا تثير الاهتمام ، ومن المحتمل أن يلازمنا الحظ مرة أخرى . هلموا نتوجه لمراقبة الغواصين ولمشاهدة العمل بأكمله .

اتخذ سبيرو وصديقاه مجلسهم فى مؤخرة المركب الذى استعرته من ستافرو ، ونشروا فوق رؤوسهم مظلاتهم التى لا غنى لهم عنها . وشرعنا نتقدم صوب الشعب ، يتبعنا الدنقليان فى قارب صغير ، وقد استكملا عدتهما . كان معهما النظارات الخاصة التى تمكنهما من رؤية قاع البحر ، والحراب التى يطعنان بها الحيوانات الخطرة ، كما وضعا فوق أنفيهما « الخرطوم » الذى يساعدهما على الغوص فى الماء . وكنت بطبيعة الحال قد أخفيت الأصداف المحتوية على اللآلىء فى القارب الصغير ، بغية استخدامها فى حالة عدم عثورنا على سواها . ولما التففنا حول الصخرة الناتئة ، اختفت « فتح الرحمن » عن أبصارنا ، فيما عدا ذؤابة الصارى التى كأنما برزت من بطن الأرض . وتمتم الغواصان بالبسملة ، وعهدا بروحيهما إلى الله الرحمن الرحيم ، وملأ كل منهما رئيته بالهواء ، وغاصا فى جوف الماء .

كان المحار كثيراً فى المكان الذى كنا فيه ، وفى وقت وجيز أصبح فى القارب كوم كبير منها . ودفع الغواصان القارب إلى محاذاة المركب . وشرع أحدهما فى فتح الأصداف . وإنها لعملية مثيرة للنفوس على الدوام كألعاب الحظ . ولفرط دهشتى عثرنا أول الأمر على بعض اللآلىء الجميلة فى جوف الأصداف ، فعلا الفرح بضيوفى إلى السماء السابعة . وحينئذ فتح أحد الغواصين محارة من تلك التى أعددناها من قبل ، وقبل أن أستطيع منعه كان قد استخرج منها لؤلؤة مستديرة رائعة . واعتقد سبيرو أن ثمة معجزة قد وقعت .

— ما أروعها حقاً ! لم يخطر ببالى مطلقاً أننى سأرى هذه الأعاجيب

بعينى رأسى . ترى ما يكون ثمن هذه اللؤلؤة ؟

وأخذ يديرها بين أصابعه فى شغف وحنان ، فأجبته مبتسما .

— عليك أن تسأل صائغك . . .

— لا ، لا ، مطلقاً . إن كان فى نيتك أن تعطى هـدية ، فصديقاى يأتيان أولا .

فأجبته قائلا :

— انتظر هنيهة فنحن لم نفرغ بعد ، ولربما وجدنا غيرها .

بدأنا الصيد عوداً على بدء . وكانت نفوس النظارة فى هذه المرة ثائرة ، فقد تحركت فيهم شهوة المقامرة ، وجعلتهم لا يلقون بالا لتصرم الزمن ، وحين فتحت أصداف الدفعة الثانية لم نجد فيها شيئاً يذكر ، فارتسمت أمارات الخيبة على وجه ضيوفى . ولم يكن فى وسعى أن أنهى الصيد بهذا المنظر الخائب ، فأطلقت الغواصين إلى جوف الماء مرة ثالثة ، عاقداً العزم على التضحية بلؤلؤتين أخريين من لآلئى ، ومضى الوقت كالبرق فى حسبان سبيرو وصديقه ، وكان فى نظرى اماداً طويلة لا تنتهى . فقد كنت أرقب بلهفة تلك الصخرة التى تفصلنا عن « فتح الرحمن » لعلمى بأنه حالما تنقل الصناديق إلى السفينة ثم يغلق عليها المخزن ، فسوف يظهر على عمر على قمة الصخرة ويلوح لى .

كان قد مضى على الدنقلين ساعة ونصف فى الغوص والصيد ، من قبل أن يظهر على عمر على الصخرة . ورأيته يومىء إلىّ بأن كل شىء قد تم ، فتنهدت ارتياحا وناديت الغواصين بأن يحضروا ما جمعا من محار ، وكانا قد دسا فيه محارتين من تلك التى تحوى لآلئى . وكان المصريان يتحرقان شوقا ، فبدوا كمقامرين ينتظران فى لهفة نتيجة آخر أدوار اللعب . وما كان أشد انفجار فرحتهما حين بدت اللؤلؤتان للعيان :

— أى خاتم جميل يزين هذه اللؤلؤة ! ما أبهاه دبوساً لربطة العنق ! ما أروعه من ذكرى — لآلئ اصطادها المرء بنفسه . . .

فى وسعى أن أقرر بأننى لم أهد لآلئ إلى أحد قط ، بمثل طيب الخاطر والارتياح اللذين شعرت بهما فى هذه المرة . وحين عدنا إلى المركب كانت الشمس قد قاربت الغروب . وأنبأتنى غمزة من عين على عمر ، فضـلا عن شعور الارتياح الذى ساد رجالى جميعاً ، بأن كل شىء قـد تم وفقاً للخطة المرسومة ، وأن صناديق الثمانيـة أصبحت فى أمان فى المخزن الواقع تحت أقدامنا .

فتحنا علب الطعام وشربنا الشمبانيا فى حبور ، فتميزت عودتنا بشعور من الانبساط العام الذى جعلنا جميعاً نرضى برحلتنا تلك . وكان الليل قد انتصف حين ألقيت المرساة فى مكانى القديم قبالة رصيف الحجر الصحى .

الآن صرت فى مركز يسمح لى باستئناف النقاش مع ستافرو . وفى وسعه أن ينقب ما شاء فى شتى أنحاء الشاطئ ، فلعله أن يفوز من ذلك برياضة طيبة .

الفصل الرابع والعشرون

ملك المهربين

ومع ذلك فلم أكن هادىء النفس . كان موقفى اشبه برجل يرغم على التدخين إرغاما ، بينما هو جالس على برميل من البارود . وعقدت العزم على الأخذ بنصيحة ستافرو فلا أوردبضاعتى بمقادير صغيرة . إن أتفه الحوادث قد تترتب عليه نكبة عظمى . على أن أذهب هذا المساء عينه لأعقد صفقة جديدة عن المقدار كله . إننى الآن فى مركز مكين ، وفى وسعى أن أنتظر إذا لم يرقنى العرض .

ولكننى حين بلغت منزله ، لم أجد به سوى زوج أخيه والتى أخبرتنى بأنه متغيب ، ولكننى لم أصدق حرفا واحداً من الكلام الذى قيل لى تبريراً لرحيله المفاجىء . لم ألحف فى الاستفسار ، ولكن ثمة شىء بدا لى على قدر كبير من الغرابة ، ألا وهو أن جبيلى قد اختفى هو الآخر . لقد بحث عنه على حمر فى كل المقاهى الوطنية دون جدوى . لم يكن لدى ما أفعله سوى أن ألوذ بحبل الانتظار .

تصرمت أيام ثلاثة فى كسل وتباطؤ فبدأت أشعر بشىء من الضيق . فالحق أنه كان مما يلفت النظر كثيراً أن يختار ستافرو هذا الوقت ، الذى أوشك فيه على عقد صفقة عظيمة الربح ، لكى يقوم بتلك الرحلة الغامضة . وكان بحارتى قد تقاضوا حلوانا سخيا يوم الأحد ، وشعروا بالنقود تثقل جيوبهم ، فما كان منهم إلا أن أسلموا أنفسهم لحياة المتعة والانغماس . ولقد عشقوا السينما التى كانوا يرونها لأول مرة ، كما استهوتهم سائر الفاتن التى

يقع عليها المرء فى عرض الطريق . وصادفت صعوبة كبيرة فى منع تابعى كاديجيتا من الوقوع فى حبائل طبيب أسنان أرمنى ، ظل يحضه على خلع نابين سليمين ليضع له مكانهما آخرين من الذهب الوهاج . ولم يجد « عابد » وجهاً لإنفاق نقوده أفضل من إغداقها على أحد النصابين لقاء خلع ضرس من أضراسه . وقد كان ضرسه سليما متيناً ، إلا إنه أخذ بروعه الملابس الملونة البراقة التى كان يرتديها ذلك الدعى . وكان شديد الفخر بهذه المغامرة ، فهو لا يكل من إعادة روايتها لأى كان .

وفى اليوم التالى بدا على الجميع سيماء المرض والانقباض ، ولم يكن من بينهم من يرغب فى النزول إلى الشاطىء . ماذا حدث ! إن عابد وحده هو الذى كان فى أسعد حال ، يردد أغنيته الخالدة بينما يوهم بأنه يدخن جوزته الحبيبة . لعل نقودهم قد نفدت . ولكننى عرفت الحقيقة آخر الأمر . لقد أحضر لى عابد الصبى فيران المكلف بالإشراف على نظافة المركب ، وأخبرنى بأنه قد مضى عليه أربع وعشرون ساعة وهو ملقى فى قاع السفينة كالفأر المسموم . كان زملاؤه قد رأوا أنه حان الحين لكى يجعلوا منه رجلا ناضجاً ، فذهبوا جميعا إلى حى ناء حيث يستطيع النوتية أن يبتاعوا الحب لقاء دراهم قليلة . ولم يشاركهم عابد فى هذه المغامرة لانشغاله بخلع ضرسه فى ذلك الحين . ولقد عادوا فى حال يرثى لها ، وإن لم يلحق بهم أذى كبير لحسن الحظ ، فلم يستدع الأمر سوى علاجهم ببعض المطهرات .

ولقد سررت فى قرارة نفسى من وقوع هذا الحادث ، فهو جدير بأن ينبههم للأخطار والمغريات التى تحدق بالملاح حين ينزل إلى البر .

ظهر جبيلى أخيراً بعد اختفاء ، فقد رأيته ذات صباح جالسا على طرف رصيف يصطاد فى هدوء وطمأنينة . وكان قد حضر لينبئنى بأن ستافرو ينتظرنى للعشاء فى منزله هذا المساء . وهناك فى الحجرة المتسعة حيث الايقونة

والقارب يواجه أحدهما الآخر ، اعدت المائدة المستديرة لشخصين ، وأجلستنى زوج أخيه المتشحة بالسواد على أحد المقاعد ، ولم يلبث ستافرو أن حضر على الأثر . كانت ذقنه قد حلقت وشيكا ، وقد ارتدى قميصاً أبيض . ولكنه ما إن جلس إلى جوارى حتى جعل يفك أزرار صدارته ، فبدا من تحتها حزامه الصوفى العتيق يلف كرشه البارز .

سألنى فى لهجة مرحة قائلا :

— حسنا . . . ماوراءك ؟

فأجبته بقولى :

— لا شىء يستحق الذكر ، فيما عدا أننى مللت الانتظار وصرت أفكر جديا فى الرحيل .

— وفيم العجلة ؟ يلوح لى أنك قضيت وقتا طيباً يوم الأحد . لقد رأيت سبيرو من فورى عند الحلاق فروى لى الحكاية بحذافيرها ، وأطلعنى على اللؤلؤة التى اصطادها بنفسه . إنه يحكى للمدينة بأسرها . وهى بداية لاضير عليها . تهنئاتى لك .

جاءت المرأة البدينة بطبق يتصاعد منه البخار ، وهو من الصحاف العتيقة الموروثة مصنوعة من الصينى الأبيض ، وله مغرفة معدنية صاحبتها منذ الأزل . واتخذنا مجلسنا مواجهة . أما النسوة فقد كن يأكلن على حدة بعد أن يقمن على خدمة الرجال ، وفقا للتقليد الشرقى القديم . وفى منزل ستافروا تتبع التقاليد القديمة جميعاً . فبنات أخيه يقتعدن المنزل كالراهبات ، ولا يخرجن إلا مرة فى كل أسبوع حيث يقصدن الكنيسة بصحبة أمهن . ولا يدخل الرجال المنزل قط ، أما حالتى فمحض استثناء .

كان على المائدة قنينتان من النبيذ ، إحداها على هيئة امرأة متشحة

برداء محلى بالأزاهير ، والأخرى بالهيئة عينها فيما عدا الرداء فتحليه رسوم فواكه منوعة — إنهما رمزان للربيع والخريف بلا ريب . أفرغ ستافرو النبيذ الذهبى وهو يضحك لى بعينيه الرماديتين الصغيرتين . فلو أننى لم أكن نقلت الحشيش إلى حرز أمين ، لخيل إلى أنه قد دبر لى شركا ما ألبث أن أقع فيه .

وسألنى عن عابدى الذى كان يميل إليه بوجه خاص فأجبته قائلا :

— إنه على ظهر السفينة مع الآخرين الذين أصابهم المرض .

وقصصت عليه خبر مغامرتهم المشئومة ، فقال بلهجة الواعظ الحصيف :

— هذا أفضل لهم وأجدى . إنه على الأقل يقسرهم على التزام السكينة ، فليس من الحكمة فى شىء تركهم يرتادون المقاهى البلدية . إننى أعلم أنهم شديدو الإخلاص لك ، ومع ذلك فثمة أناس استطاعوا أن يعتصروا منهم أشياء دون أن ينتبهوا لذلك . لقد تسرب إلى الآن الشىء الكثير عن رحلة يوم الأحد . وأنا أيضاً سمعت أنباء مختلفة — حقيقة ليس من بينها ما هو واضح محدد ، ولكنها مع ذلك أكثر مما ينبغى لكل من ينتسب لحرفتنا . آن الأوان لأن تضع حداً لهذا كله ، فهل صحت نيتك على أن تبيعنى بضاعتك ؟

— بلا ريب ، ولكن بعد أن أتقاضى نصف الثمن مقدما .

— أما تزال متشبثاً بهذه الفكرة ؟ كنت أحسبك أهدأ بالا من ذى قبل .

— إن بالى لم يقلق فى يوم من الأيام .

— حسناً ، حسناً . فالواقع أننى متفق وإياك ، فقد كنت محقاً فى طلبك . إننى أحب الرجال الذين يعرفون كيف يرعون مصالحهم .

كنا قد وصلنا فى طعامنا إلى الجبن ، فوضعت أمامنا شريحة من

« الروكفور » جعلنا نتذوق منها على مهل . وكان النبيذ فى القنينتين المرمزيتين قد هبط إلى مستوى منخفض ، مع أن ستافرو لم يكن يشرب سوى الماء . وشعرت أنه كان من الأفضل لو خففت الوطء ، فقد بدأ رأسى يدور قليلا .

استأنف ستافرو حديثه فقال :

— لقد عدت الآن من القاهرة ، التى قصدتها لشأن يتعلق بموضوعنا . سوف أقدمك إلى رجل يبتاع منك بضاعتك كلها . إنه من مواطنى بتروس كرامانوس الذي اشتريت منه الحشيش ، كما أنه يمتلك المزرعة التى قصدتها . ولقد سمح لمستأجره أن يبيعك الأربعمائة أقة ، لا لشىء إلا ليرى ماذا أنت صانع بها .

فأجبته قائلا :

— أجل فأنا على علم بذلك . لقد أبرقوا له بما تم .

فقال ستافرو مدهوشاً :

— أكنت تعرف ذلك ؟

قلت :

— أجل ، أعرفه .

وارتسمت على شفتى ابتسامة كابتسامة « مونا ليزا » ، على أمل ان توحى إليه بأننى أعرف إلى جانب هذا الشىء الكثير ، قال :

— كان ذلك شيئاً طبيعياً مادام هو المالك للحشيش . لقد كان فى نيته على أى حال أن يسحقك سحقاً لو أنك حاولت تصريف البضاعة لغيرنا . ولكنه وجد أنك قد قمت بعمل لا نظير له فى تاريخ التهريب ، وهو لذلك يريد مقابلتك ، ويكون مسروراً لو فاز بصداقتك . وفى اعتقادى أنه من

مصلحتك أن تطلب منه ثمناً معقولا حتى تستطيع الخلاص من بضاعتك جميعها دفعة واحدة .

وبالرغم من أن النبيذ قد قطر فى عروقى شعوراً بالرضا السعيد ، فقد كنت مع ذلك لا أزال أدرك ما أفعل . ولقد شاقنى أن أعرف آخر الأمر تفسير تلك البرقية التى أرسلت من « ستينو » ، فإذا بها إخطار لملك المهربين بمقدمى السعيد . إن هؤلاء القوم قد نظموا تنظيما دقيقاً ، أوقعنى من أول الأمر فى قبضة أيديهم ، بينما خيل إلى أننى كنت حر التصرف فيما كان من أمرى . أما وقد أحاطت بى شباكهم ، فما عليهم إلا أن يملوا إرادتهم فأطيع .

ومع ذلك فإن ستافرو وشركاءه ليسوا بالأوغاد كما قد يظن . فهم إن كانوا قد سعوا لأن تكون لهم الغلبة على ، فتلك هى القوانين المشروعة فى ميادين النضال . ولقد حاولت أنا أيضا ان أرد كيدهم دفاعا عن نفسى ، فأصبت فى ذلك بعض النجاح . فى وسعنا الآن أن نستأنف المباراة على قدم المساواة .

تم الاتفاق بيننا على أن نرتحل معاً إلى القاهرة ، بغية التعرف بملك المهربين هذا الذى حدثنى عنه . واستقللنا قطار الساعة السابعة من صباح اليوم التالى ، فجلس ستافرو فى ديوان غير الذى جلست فيه ، إذ لم يكن من الحيطة أن نرى معاً . وظللنا منفصلين فلم يلحق بى إلا خارج محطة القاهرة ، حيث ركبنا عربة مضت بنا لساعتها دون أن يسأل الحوذى عن العنوان .

لم نلبث أن انحرفنا إلى طريق ، فإذا به صف طويل من دكاكين الحانوتية . وهذه الدكاكين العجيبة لا ترى إلا فى المدن المصرية التى يكثر فيها اليونانيون . وقفت العربة أمام أحد هذه الحوانيت ، فلمحت من وراء نوافذه الزجاجية حشداً منوعاً من صناديق الموتى . وفى وسط هذا المنظر الرهيب جلس بعض الناس إلى مائدة صغيرة يشربون القهوة ، ويتندرون فى

بهجة وانشراح . ورأيت فى أقصى الحانوت مكتباً ضخماً جلس قبالته رجل فى حوالى الأربعين ، عليه مسحة عسكرية من الحزم وحب السيطرة ، ويتحادث مع سيدتين فى ثياب الحداد . هذا هو صاحب المحل وأولئك عملاؤه . وعند دخولنا توقف ستافرو فصافح الأشخاص الذين يحتسون القهوة ، وكان من بينهم من يتكلم الفرنسية ، فقدمنى لهم باعتبارى سائحاً أتى لمشاهدة الأهرام .

بعد لأى أحال صاحب المحل السيدتين إلى أحد عماله ليساعدهما على اختيار نعش يليق بالراحل العزيز ، ثم أقبل نحونا ماداً ذراعيه ، ووجهه طافح بالبشر والتودد . وخاطبنى حالا كما لو كنت صديقاً قديما فقال :

— هيا بنا إلى المنزل . يقيناً ستسر زوجى لرؤيتك وللتحدث معك بلغتك ، فلا يخفاك أنها تربت فى فرنسا .

ووقفت بالباب عربة مطهمة لعلها تستعمل فى تشييع الجنازات ، فحملتنا نحن الثلاثة ومضت بنا إلى أحد الأحياء المستحدثة ، ثم وقفت أمام منزل ضخم له شرفات من الرخام الأحمر .

وكان سلم المنزل من الرخام كذلك ، تحليه تماثيل برونزية تحمل مصابيح كهربائية . وصعدنا إلى الطابق العلوى ، ودخلنا غرفة مليئة بالمرايا حتى لتثير فى النفس شعوراً بالحيرة والقلق . وحيثما تتجه العين تقع على بسط عجمية ، وجلود دببة ، ونخيل موضوع فى أصص ، وطرائف من الفضة والبرونز ، وما شاكل ذلك من التحف والروائع . كان كل ما فى المنزل يوحى بالثراء العريض ، وبانعدام الذوق ، فى وقت معاً .

وكان جورجيس ، رب البيت ، فخوراً أشد الفخر بما يحويه منزله من معالم الرفاهة والعز ، وبدا عظيم السرور لما خيل إليه من أنى مشدوه لفرط إعجابى بتحفه الثمينة . لم يكن من الخفى أن المسكين حديث عهد بالغنى ،

ومع ذلك ، وبالرغم من ثرائه الضخم ، فقد ظل رجل عمل وكفاح ، مما جعلنى استشعر نحوه بميل أصيل . رحنا نتحدث عن زيارتى لستنيو ، وعن بابا مانولى ومدام سميرنيو ، فجهدت بأن أدلى إليه بكل ما أعرف من أنباء العائلة التى تربطه بها أواصر قرابة غير بعيدة .

وبدا القلق على ستافرو وهو يردد ناظريه بين معالم الرفاهية ودلائل العز ، فطفق يدير إطار قبعته السوداء بين أصابعه الكبيرة ، وسرعان ما تمتم ببضع كلمات عن عمل هام يستدعى انسحابه ، ثم خرج وتركنى منفرداً مع جورجيس .

لم نلبث طويلا حتى استقدم أفراد أسرته ، فقدمهم لى واحداً بعد الآخر . كان له ثلاثة أطفال كالأزهار النضرة ، أصغرهم لا يزال بين ذراعى مربيته الإنجليزية ، وأكبرهم لا يعدو الثامنة ، وإن كان قد حيانى كما لو كان رجلا كبيراً عرك الحياة . أما زوجته فغادة جميلة ، إلا أنها على قدر من البدانة يستسيغه الذوق الشرقى ، وعليها ثياب ثمينة بالغة الأناقة . وكانت تتحدث الفرنسية بلهجة سليمة لا تشوبها لكنة ما ، وراحت تحدثنى فى الأدب والموسيقى . ولم تكن هذه الموضوعات مما يثير جورجيس فتركنا وشيكا ولم يعد .

وحين أزف موعد العشاء ، انتقلنا إلى حجرة الطعام فإذا بها بهو متسع ، تحيط به خزائن ذوات رفوف من البلور ، عليها أوان وأدوات فضية أغلبها شديد التعقيد غريب الشكل . وكانت المائدة مجهزة بأدوات فضية منوعة وبأكواب من كل حجم وصنف ، فأحسست كأنى فى بيت أحد متعهدى الولائم والأفراح .

وبعد العشاء حضر ستافرو فاصطحبنا إلى أحد الملاهى ، حيث كان جورجيس قد حجز ديواناً ملاصقاً لديوان الخديوى . وكان جورجيس

يضحك ملء شدقيه ويتحمس لكل ما يرى كأنه طفل صغير ، فتذكرت برغمى أنه لم يكن سوى نوتى من عرض البحر . اما ستافرو ، فبالرغم من ضخامة جرمه ، فإنه بدا أكثر رقة وتهذيباً ، لعل مردها أنه حصل على قسط وافر من التعليم . وكان من السهل تميز ما يشعر به من حسد دفين حيال جورجيس ، من مجرد ملاحظة الابتسامة الساخرة التى ترتسم على شفتيه ، كلما علت قهقهة البحار القديم إعجاباً بالنكات المبتذلة التى يرددها المهرجون . ولم يفته أن يلقى إلى بين الحين والحين بنظرة ذات مغزى ، كأنما ليظهر لى مقدار ترفعه عن أمثال ذلك الإسفاف الصبيانى .

ولكن حين تطرق بنا الحديث إلى العمل الذى حضرت من أجله ، وجدت جورجيس أبعد ما يكون عن الصبيانية . ولقد التزم سمت الرجل الكريم من أول الأمر ، بقصد إظهار مكر ستافرو وخداعه فى صورة أكثر زراية ، فقبل فى الحال الثمن الذى طلبت ، كما وافق على دفع نصف القيمة مقدماً . وحين حاول ستافرو أن يساوم وأن يتطرق إلى التفصيل إظهاراً لبراعته ، أمره جورجيس بأن يلتزم الصمت ، ثم أخرج من جيبه لفيفة ضخمة من أوراق النقد ، وأعطانى منها خمسمائة جنيه مصرى . أما أنا فقد لاقيت بعض العناء فى العثور على مكان فى جيوبى لكل هذه الأوراق المالية . واتفقنا على أن ندبر خطة تسليم البضاعة فى اليوم التالى .

كان جورجيس قد حجز لى حجرة فى فندق يونانى يمتلكه صديق له ، وكان ستافرو ينزل فى الحجرة المجاورة ، فأتى قبل النوم وظل يحدثنى حديثاً طويلا عن جورجيس ، وميله المضحك إلى إحاطة نفسه بألوان الترف الفاسدة الذوق . كانا زميلين فى البحر ، ملاحين لا يتميز أحدهما عن الآخر ، ثم ما لبث جورجيس على مر الأيام أن صار الرأس المدبر لأعمالهما

المتشعبة ، وفى خلال عشر سنين كان قد جمع ثروة طائلة . وقال ستافرو بشىء من المرارة :

— لم يعد لى سوى التقاط ما يتركه من عظام . لست أنكر أنه بارع فى مهنته براعة مدهشة ، ولكنه أنانى لا يفكر إلا فى نفسه . ولا تحسب أن أهل بيته سعداء راضين ، فهو يحرم زوجه من كل شىء تقريباً ، ويعاملها كأمة . ولكن حين يستدعى الأمر الظهور والمباهاة ، فإنه لا يهتم بأى قدر ينفقه ، فتراه يبعثر أمواله مع الريح . ولعلك لاحظت ذلك اليوم . ثمة شىء لا مناص من الاعتراف به ، وهو أنه أمين صارم كحد السيف . إنه يقوم دائماً بعمل الحساب فما ضاع لأحدمنا مليم طوال عهده بذلك . وفيما يتعلق بك ليس لك أن تخشى شيئاً ، لأنه يشعر أنك رجل ذو مركز اجتماعى ممتاز ، ولقد استهواه أن يكون بينك وبينه معاملة .

والحق أننى طوال عهدى بصحبة هذين الشريكين ، لاحظت أن جورجيس هو صاحب الرأى على الدوام ، وهو على الدوام الذى يدفع . كانت له تلك الثقة التى يبعثها الثراء الضخم ، والتى تهيىء لصاحبها مكانة تقوم مقام رفعة الأصل . كانت الكافة تعرفه وتنحنى له أينما ذهب ، فى حين يسعى ستافرو الضخم وراءه كصبى مطيع .

وحين انفردت فى حجرتى جعلت أعد الجنيهات مراراً وتكراراً ، فلا أكاد أصدق أنها نقود حقيقية . لقد كان أملى فى السير برحلتى إلى نهاية ناجحة ضئيل جداً . أما الآن فقد بدا لى المستقبل أكثر شروقاً والتماعاً .

الفصل الخامس والعشرون

البـــــدو

استيقظت فى الصباح الباكر على صوت طرق الباب ، فلما فتحت وجدت جورجيس . وكان فى انتظارنا سيارة نخمة هرعت بنا خارج القاهرة صوب الجنوب ، فمرت بنا وسط حدائق وحقول ، وقرى ذوات أكواخ من الطين تحيط بها أكوام من روث البهائم . ولما أن بلغنا احدى المحطات الواقعة على خط حلوان ، نزلنا من السيارة واستقللنا القطار ، لا أدرى لماذا — إلا أن يكون منعا من لفت الأنظار .

ولم تمض علينا ثلاثة أرباع الساعة حتى كنا قد غادرنا القطار فى محطة متطرفة تقع فى قلب الريف . وكان الرصيف القفر من الخلق ، مكتظا بأكوام الخضر وأقفاص الدجاج والأرانب . وتركنا المحطة واتخذنا طريقنا التواء عبر الحقول الخضر فى دروب متعرجة ضيقة ، إلى أن بلغنا قنطرة خشبية مقامة على الترعة التى تروى تلك الحقول . وفى الناحيـة الأخرى من القنطرة ، وبدون أى تدرج أو تمهيد ، كانت الصحراء . عبرنا القنطرة وتوغلنا قليلا فى الرمال ، ثم ارتقينا صعداً فى بطن مجرى جاف أوصلنا إلى سلسلة من التلال . إلى أين نحن ماضون ؟ كان ستافرو قـد خلع رداءه وأخذ يجفف العرق المتساقط من جبينـه وهو ينفخ ويلهث ، بينما رحت أقاسى عذاب الاستشهاد من حذائى اللعين الذى كنت أضطر إلى انتعاله كلما عدت إلى حياه التمدين ، حتى صار الحذاء عنوانا لها . أما جورجيس فقد بدا فى احسن حال ، يغذ فى السير أمامنا هازاً عصاه ، دون أن ينى عن التفكه بستافرو الثقيل المترهل .

ووصلنا أخيراً إلى سفح المرتقى الذى يتوج هام تلك الهضبة الممتدة فى جوف الصحراء ، فرددت طرفى إلى وادى النيل الفسيح المترامى إلى حـد الأفق ، والمحجب بالضباب المتصاعد من الحقول المرواة . ما كان أروعه منظراً ! هذا النهر العاتى الذى يشق طريقه وسط السهل فى عظمة وجلال ، تسبح فيه الأشرعة البيض كفراشات تخفق فوق مياهه الصفراء ! إنه عين المنظر الذى وقعت عليه أعين عبيد فرعون وهم يئنون تحت وطأة الـكتل الحجرية التى يجرونها إلى شاطىء النهر ، لتنقلها تلك المراكب الخفاقة نفسها إلى حيث تقام صروح ضريح الملك الجبار .

وفيما نحن مصعدين إذ وقعنا فجأة على فجوة فى ظهر الجبل ، ويخترقها درب ضيق ، ويهب منها ريح لافح فـكأنها باب أتون يتلظى ناراً . وما إن اجتزنا عتبة هذا المدخل ، حتى وجدنا أنفسنا حيال بطاح رملية ممتدة ، تغطيها حشائش خشنة . وما كان أشد عجبى إذ وقع بصرى فى هذا المـكان المنعزل على قطيع من الجمال يرعى العشب فى طمأنينة ودعة . والجمل حيوان غريب شاذ ، يساهم وجوده فى خلق جو من الوحشة ، بدلا من أن يخفف من قفر الصحراء المجدبة الجرداء . وتقدم جورجيس ، ونحن فى أثره ، صوب هذه الواحة المجازية من الأعشاب الشوكية والشجيرات الغبراء .

ولمحت بدوياً يرتدى زى أهل الصعيد يبرز من بين الأشجار ويتقـدم نحونا فى هدوء ، وعلى كتفه بندقية من طراز حديث قد جعل فوهتها صوب الأرض . وبدا عليه أنه يعرف رفيقىّ معرفة وثيقة ، فحياهما باحترام بالغ ، ثم استدار ومشى نحو الخيام وأشار إلينا بأن نتبعه . ورأيت أطفالا قد لفحت الشمس أبدانهم يجرون وهم عرايا ، ثم يختفون وراء الصخور ليراقبونا عن كثب . وأخيراً وقع بصرى على شبه كوخ مبنى بألواح خشبية يغطيها رقائق من الصاج ، وكانت مساكن البدو تحيط بالـكوخ من كل

جانب ، وهى عبارة عن خيام خفيفة فى شكل القباب ، مصنوعة من الحصير المحمول على أغصان مقوسة . ولما دنونا من الكوخ خرج الرجال من خيامهم ، وقد بدا على سحنهم البهورة كأنما استيقظوا قريبا من النوم . ولا عجب فى ذلك فالأغلب أن هؤلاء البدو ينجزون أعمالهم المريبة فى ظلام الليل ، وينامون سحابة النهار .

دخلنا الكوخ الخشبى فإذا به قاعة طويلة منقسمة إلى حجرتين يفصلهما حاجز خشبى ، وهو عار من الأثاث فيما عدا بضعة أحجار مسودة موضوعة فى أحد الأركان ، وإلى جوارها علب من الصفيح لعلها القدور التى يطهون فيها طعامهم .

وجاءنا أحد البدو بمقعد عتيق وصندوقين خشبيين فارغين ، ودعانا للجلوس . ولكن جورجيس كان فارغ الصبر فجعل يدق الأرض بقدمه ثم صاح فى حدة قائلا :

— أين عمر ! كيف لايكون فى استقبالنا وهو على علم بقدومنا !

فأجاب البدوى فى هدوء :

— هدىء روعك ياسيدى . إنه آت

ثم بدأ يكنس القاذورات المبعثرة فى أنحاء المكان بمكنسة من أغصان النخيل . وقد لاحظت لتوى الاختلاف الواضح بين العربية التى يتكلمها هؤلاء البدو ، وبين عربية أهل القاهرة ، مما جعلنى أجد صعوبة كبيرة فى فهم حديثهم .

وظهر عمر آخر الأمر محوطا برهط من أتباعه . وكان ظهورهم مفاجئا كأنما قد انشقت عنهم الأرض ، فلم أدر من أين أتوا . وعمر عملاق مفرط الطول شأن الكثير من المصريين ، له منكبان عريضان ، وعليه مخايل القوة وشدة المراس بالرغم من نحافة قده ، فقد كانت عظامه متينة البنيان كأنها

عظام جمل كريم . كان يرتدى عباءة نفيسة من نسيج أدكن ، لها كمان فى منتهى الاتساع ، ومن تحتها جلباب من حرير أصفر تشقه خطوط سود ، لم يكن يعدو الأربعين من العمر ، فى هيئته هدوء ونبل ، وتوحى سماته بالترفع والكبرياء . وكانت عيناه العسليتان مضمختين بالكحل الذى أكسبهما استطالة من الجانبين ، ولهما بصيص عجيب كعيون أهل الصحراء التى يخيل إلى الناظر إليها أنها تعكس وحشة البطاح الشاسعة والآفاق التى لا حد لها . ويداه بيضاوان دقيقتا التكوين وإن لم تكونا صغيرتين ، وعليهما وشم عجيب الرسم . وكانت أظافره وكفاه مخضبة بالحناء ، وفى خنصره خاتم فضى ركبت فيه جوهرة فى حجم البندقة . ولقد علمت أن الوشم الأزرق الذى يغطى خديه هو العلامة الدالة على القبيلة التى ينتسب إليها . وكان من الواضح أنه من رءوس القبائل الذين تقوم ثروتهم بقطعان ضخمة من الإبل والماشية . ووجدت جورجيس يتخذ حياله مسلكا يخالف مسلكه الأول ، إذ سرعان ما استحال صبره النافد إلى ابتسامات ودية وحديث رفيق . ولم يلبث أن قدمنى له فاضطررت إلى الجلوس على المقعد الوحيد أمارة على التكريم .

وأنفذ عمر بعض أتباعه لينحروا لنا شاة احتفاء بقدومنا . فما كان من جورجيس إلا أن خلع سترته وشمر عن ساعديه ، ثم أعلن أنه سيشرف على إعداد الطعام بنفسه . لقد عاد كما كان — ذلك النوتى النشط الذى يتطوع لبذل معونته فى أى عمل . وفيما كانت الشاة تشوى فوق الحطب المتلظى ، رحنا نتباحث فى أجدى الطرق لنقل بضاعتى وتسليمها لجورجيس .

كانت الجمال التى وقع عليها بصرى من سلالات كريمة ممتازة ، دربت على السرعة وقوة الاحتمال . وكان ثمن بعضها يبلغ الخمسمائة جنيه أو يزيد ، وهى من الهجن السباقة التى تستطيع أن تقطع سبعين ميلا فى ليلة واحدة .

وهى جميعاً مخصية ، ومدربة على ألا يصدر منها أية صيحة فى أى حال من الأحوال . ولهذه الخاصية اهمية قصوى فى نظر المهربين ، وهى التى تجعل لهذه الهجن تلك القيمة الكبيرة .

وكان المخيم الذى نزلنا به أشبه بمحط تقف فيه القوافل الهابطة من الجبال بما تحمل من جلود وزبد ، كما تجتازه فى رحلة الأوبة حيث تتزود بالأقمشة والأوانى والنفط والسكر والحبوب ، وغير ذلك مما يحتاج إليه البدو المعتصمون بالجبال . ومع ذلك فلم يكن هذا النوع من التجارة سوى حجاب يخفى تحته معاملات أخرى أقل براءة ، كما هو الحال فيما جئنا من أجله . وكان عمر هو الزعيم غير المنازع لكافة القبائل الضاربة فيما بين ساحل البحر الأحمر ووادى النيل شمالى رأس غارب . وفيما يلى هذه المنطقة جنوباً كانت الصحراء تحت إمرة أقيال آخرين . فإذا ما أنزلت بضاعة ما على الشاطىء ، وجب لضمان مرورها سالمة إلى القاهرة ، أن يتم الاتفاق بشأنها مع سيد المنطقة التى نزلت فيها ، وعليه بدوره أن يتفق مع سادة القبائل الأخرى التى تمر بأرضها . إلا أن عمر كان أعظم الرءوس سطوة وأكثرهم غنى ، وما ذلك إلا لكون منطقة نفوذه تتاخم حدود مدينة القاهرة ، فأصبح الطريق الوحيد الذى يتحتم على القوافل جميعاً أن تسلكه لبلوغ عاصمة القطر التى يقصدون . وما كان ليتم شىء من هذا إلا برضاء عمر . كانت البضاعة تسلم إليه فى الوضع المتفق عليه من الساحل ، وفى مقابل جعل يختلف باختلاف حالة السوق وصنف البضاعة والموسم ، فيقوم بنقلها ووضعها تحت أمر صاحبها فى المكان الذى يشاء . وفى وسعه أيضاً أن ينفذ بالبضاعة داخل القاهرة ، أو فى أية مدينة أخرى فى القطر . وهو فى مثل هذه الأحوال يختزن البضاعة لديه ، فلا يسلمها إلى عميله إلا شيئاً فشيئاً ، وكلما احتاج إلى قسط منها .

ولهذا فقد كان لعمر مخابىء سرية لا يعرفها غيره . ففى بطون الهضاب المستقرة فى أحضان تلك الجبال الجهنمية توجد بقاع عزيزة المنال بسبب انعدام الماء فيما يحوطها ، فلابد لمن يريد بلوغها من أن يتزود بمقادير عظيمة من الماء ، فضلا عن الاحتياط لمئونة العودة . فى هذه البقاع المهجورة يخفى البدو سلعهم ، وهم يسلكون لبلوغها مناطق صخرية وعرة ، حيث لا أثر لطريق أو لماء . وفى مواضع معينة يدفنون فى الرمال ذخيرة من الماء والحبوب ، وهم يستبدلون هذه المواضع بعد كل رحلة يقومون بها . وحتى يقلل خطر الخيانة إلى أقصى حد ، فإن سر هذه الأماكن لا يفشى إلا لرائد القافلة . بهذه الوسيلة تستطيع القوافل الخفيفة أن تتوغل فى تلك الصحارى المهلكة دون أن تحمل سوى البضاعة التى تقوم بنقلها . أما والأمر كذلك ، فأى خطر هناك من مطاردة غير متوقعة فى أثر تلك النوق المنطلقة كالبرق عبر فياف هى بطاح الموت ؟ لن تنقضى ثلاث أو أربع ساعات حتى يكف الطارد عن المتابعة ، فإنه إن نفدت مؤونة الماء التى يحملها إلى جانب سرجه كان معنى هذا موتاً مرعباً أكيداً .

تناقشنا فى كل شىء بتفصيل دقيق ، فقر القرار أخيراً على أن أسلم البضاعة إلى القافلة يوم الجمعة المقبل — أى بعد أيام ثلاثة — حتى يتاح للجمال الوقت الذى يكاد يكفيها لبلوغ ساحل البحر .

وما إن فرغنا من حديث العمل ، حتى دخل علينا بدويان يحملان الخروف من عصاة تخترقه من أقصاه إلى أقصاه ، فركباه فوق حاملين من أغصان الشجر ، وجعلا من تحته طبقاً من الصلصال يحوى خبزاً أسود ليتلقى الدهن المتساقط من الخروف المتورد . وأخرجنا المدى وشرعنا نجتزىء من اللحم الملتهب الشهى .

ولقد استحوذ جورجيس على إعجابى حين رأيته يعود إلى طبيعته

القديمة ، فإذا به النوتى الخشن نفسه الذى كان يجوب البحار فيما مضى .
كان يمسك بعظمة كبيرة فى يده فينتزع ما عليها من اللحم بأنيابه القوية ،
بينما تبعث الماسة الكبيرة التى فى خاتمه وميضاً بنفسجياً وأحمر ، يلتمع وسط
الدهن المتدفق بين أصابعه . والحق أنى قد استمتعت أنا الآخر متعة قلبية
منعشة بتلك الطريقة المثالية فى أكل هذا اللحم الملتهب اللذيذ ، الذى كنا
نزدرده بشراهة بدون خبز أو مضغ .

ولما ان امتلأت بطوننا رفعت بقايا الطعام ليأكلها الخدم وقادة الجمال ،
الذين كانوا يجلسون خارج الكوخ فى شبه حلقة . إنهم جميعاً من أقارب
عمر . وثمة صبى فى الرابعة عشرة بدا فى قميصه الأزرق الطويل فى جمال إله
صغير ، أتى ليصب الماء فوق أيدينا ، ثم عاد فأحضر نارجيلة عمر . واشترك
جورجيس مع عمر فى تدخين النارجيلة ، أما أنا وستافرو فقد فضلنا اللفائف .
وبعد برهة أتى جورجيس إلى جوارى وأخذ يحدثنى قائلا :

— لعلك تلحظ قدر الاختلاف بين هؤلاء الاعراب وبين الفلاحين
من سكان الوادى . إنهم لا يزالون نصف متوحشين وسيظلون كذلك إلى
زمن طويل . إننى وإن كنت من غير المطلعين على مثل هذه الأمور إلا أننى
أعتقد أنهم لابد أن يكونوا من أصل مختلف . فبقدر ما هم رجال حرب
متقشفون لا حد لإخلاصهم ، ترى الفلاحين جبناء كسالى ولا حد لخداعهم .
حقيقة إن هؤلاء البدو يسترخصون النفس البشرية فيعتبرون حياتهم وحياة
غيرهم شيئاً تافها لا يؤبه له . وإنه لمن أبسط الأمور لديهم أن يهاجموا قافلة ما
فينهبوها ويذبحوا رجالها بغير أدنى شفقة ، دون أن يخطر ببالهم أنهم يأتون
عملا إجرامياً . وعلى النقيض من ذلك فإنك إذا ائتمنتهم على بضاعتك ،
ضحوا بأرواحهم دفاعا عنها ما داموا قد بذلوا لك الوعد .

فأجبته قائلا :

— إنهم فى ذلك قريبو الشبه بعرب اليمن ، فلست أعجب إن كانوا
ينحدرون من السلالة عينها .

— هذا قريب الاحتمال فلعمر أقرباء كثيرون بالقرب من ينبع وإلى
الجنوب منها ، وكثيراً ما يتم التزاوج بين أفراد قبيلته وبين الوهابيين والشمر
من قبائل نجد .

وحينئذ تدخل ستافرو فى الحديث ، وقد كان ينصت إلينا وهو يدخن
نارجيلته ، فقال :

— هذا هو المكان عينه الذى أتى منه تابعى الأمين جبيلى .

فقلت له :

— لقد كنت وعدتنى بأن تقص لى قصته ، والساعة هى فرصتك المناسبة
لتفى بالوعد .

— إنها ليست قصة بمعناها الحق ، بل هى حادث عادى ينسلك فى عداد
تلك المآسى الغامضة التى تتم حوادثها بعيداً عن أعين البشر ، ولا شهود
عليها سوى الصحراء الصامتة أو البحر الكتوم .

الفصل السادس والعشرون

قصة جبيلي

قبل أن ينتحل لنفسه اسم جبيلي ، كان يدعى موسى ، وكان يكسب عيشه من مزاولة مهنة الصيد بالاشتراك مع أخيه وابنه الصغير ، وهو الابن الوحيد الذى خلفته زوجه قبل وفاتها ببلاد العرب . ولقد انتقلت إليه عدوى الجدرى من زوجه وهو يقوم بتمريضها ، وكان من نتيجة ذلك أن فقد إحدى عينيه . وكان موسى وأخوه يتميزان بالحرص الشديد ، شأنهما فى ذلك شأن أفراد قبيلة عمران ، الذين يعتبرون فى بلاد العرب كالاسكتلنديين فى بلاد الانجليز . ولقد استطاعا أن يقتصدا مايكفى لشراء قارب صيد ، فقصدا به إلى السويس حيث تروج تجارة السمك . وكان يربط هذين الأخوين أواصر صداقة وطيدة ، فضلا عن اشتراكهما فى حب ابن جبيلى حبا يقرب من العبادة . وكان السمك عميما فابتسمت لهم الحياة ، وكان لهم كل ما أرادوا ، فقر قرارهم على مواصلة الصيد فى خليج السويس لمدة ماقبل الأوبة إلى وطنهم .

ولكى تستطيع فهم ما سيلى من أحداث ، لابد لك من أن تدرك أن موظفى الجمارك وضباط خفر السواحل يجمعون ثروات طائلة من وراء تهريب الحشيش . وأنا أتكلم عن الرؤساء الكبار الذين يلزمون مقاعدهم المريحة وسط مكاتبهم المطهمة . أما العساكر الذين يخفرون السواحل ويجوبون البحار ، فما هم سوى وحوش آدمية ، وأغلبهم عبيد محررون ، تنحصر مهمتهم فى تنفيذ الأوامر دون محاولة فهمها . ومن المستطاع دائما

رشوتهم ببضع دراهم ، وإن يكن من الخطر محاولة ذلك .

وهنا أومأ جورجيس برأسه تأييداً لهذا القول . ثم تابع ستافرو حديثه قائلا :

« ومع ذلك فإن من يريد منهم الإنتفاع من وراء تهريب الحشيش ، يجب عليه أن يتظاهر بالهمة والنشاط فى تأدية وظيفته . لهذا تراهم يدبرون المكائد للإيقاع بصغار المهربين ، حتى إذا وقعوا فى الشرك عاملوهم بقسوة لاتعرف شفقة . وإذا ماضبطت عشرون أقة من الحشيش ، رأيت الجرائد وقد قامت تهلل وتمتدح حكمدار البوليس أو رئيس جمارك المنطقة ، فما يلبث أن يرقى وينعم عليه بالأوسمة . وإذا ماضاق بهم الحال ولم يجدوا ضحية يوقعون بها ، عمدوا إلى الاتفاق مع أحد الصعاليك على أن يقوم بدور المهرب نظير مبلغ من المال . وليس من العسير العثور على أحد هؤلاء المساكين ، الذين يفضلون راحة السجن على التضور جوعا فى الطرقات . فإذا ماتم الاتفاق سلمه رجال الجمارك مقداراً صغيراً من الحشيش ، الذى يحتفظون به لمثل هذه المناسبات ، فيتوجه بها إلى المكان المعين حيث يلقى القبض عليه . ولعلك تدرك الآن أهمية ضبط أى قدر من الحشيش وإن يكن تافهاً بالنسبة للرجال المنوط بهم مكافحة التهريب . فالكمية فى مثل هذه الأحوال ليست بذات شأن ، بل المهم هو حصول الضبط وإلقاء القبض على المهرب ، وعلى الجرائد حينئذ ، التى تعرف مهمتها فى هذا الشأن كما فى أى شأن آخر ، أن تفتن فى تزويق الحادث لتسبغ عليه الأهمية المطلوبة .

« وتحرس سواحل خليج السويس ، سواء الأسيوية منها أو المصرية ، بواسطة دوريات من الحرس الراكب فوق نوق سريعة العدو ، تذرع الساحل كل يوم بحثا عن الآثار المريبة فى الرمال . وهم يسيرون دائما كل اثنين معاً ، فيغادرون مراكزهم فى ساعات معينه ، بحيث يلاقون زملاءهم

القادمين من المركز المجاور — الذى يقع عادة على بعد خمسين ميلا — فى منتصف الطريق. وهناك يطلع بعضهم بعضاً على ما لاحظوه أثناء مرورهم، ثم يعودون أدراجهم. وفى اليوم التالى يعيدون المهمه عينها، وإنما فى الاتجاه المضاد.

« فى الزمن الذى وقعت فيه حوادث هذه القصة كنت أنا وجورجيس على صلة بنوتية بعض المراكب، الذين كانوا يلقون إلينا بأكياس الحشيش فى خليج السويس. وحدث مرة أن فقدنا كيسا يحتوى على ست أقق من الحشيش، وهو أمر يقع أحياناً حين يكون الجو مكفهراً والليل معتما. وأذكر جيداً أننا فى هذه المرة اضطررنا للإنسحاب قبل التقاط هذا الكيس، إذ فوجئنا بمركب شراعى مقبل صوب زورقنا. كان مركبا ذا صوار بالغة الارتفاع. فملأنا الخوف من مظهره الغريب، وإن كان قد اتضح فيما بعد أنه يخت للنزهة، أقبل نحونا لمجرد التفرج عن كثب على زورق للصيد. وكان عليه صحبة أنيقة من سراة القوم، تضم نساء فى ثياب هفهافة، وسادة يضعون على رؤوسهم قبعات ربابنة السفن، وقد انطلقوا يضحكون ملء قلوبهم، وهم يرقبون زورقنا الصغير يتراقص فوق الأمواج التى خلفتها مراكبهم.

« هذه الرحلة المرحة، وتلك الضحكات الصاخبات، كانت نذيراً لمأساة مفجعة. لقد واصل هؤلاء القوم نزهتهم فى غبطة وحبور، دون أن يخطر ببالهم ان الموت سوف ينجم عن رحلتهم تلك، التى حالت بيننا وبين التقاط الكيس الأخير. ظللنا نبحث عن هذا الكيس طوال الليل وسحابة النهار دون جدوى. وأخيراً عدنا إلى السويس حاسبين أنه غاص فى قاع البحر، ولكنه لم يكن قد غاص.

« لابد أن يكون هذا الكيس قد ظل وقتا طويلا فوق سطح الماء،

تتقاذفه الأمواج هنا وهناك، أشبه بجرثومة نكبة مروعة. ذلك أنه بعد حقبة طويلة عثر به اثنان من خفر السواحل، وهو ملقى على الشاطىء. وكان الكيس قد تعرض لبلل المياه ولفح الشمس أسابيع عدة، حتى فسدت محتوياته فساداً تاما، إذ لو لم يكن الأمر كذلك لبحث العسكريان عن صديق يقوم ببيعه لحسابهما. إلا أن الكيس مع ذلك كان لايزال محتفظا بشكله وباسم صانعه، كما كانت تنبعث منه رائحة غامضة تنبىء عما كان يحويه. وكان هذا حسب العسكريين الأمينين اللذين بادرا بتجفيفه فى أشعة الشمس، ثم دفناه تحت الرمال فى بقعة يكثر نزول الصيادين بها. وبعد بضعة أيام شاهدا قاربا يتجه صوب الشاطىء، للاحتماء به من عاصفة عاتية أهاجت البحر. وكان هذا القارب هو قارب موسى وأخيه، اللذين ما إن ألقيا مرساه حتى نزلا إلى الشاطىء واستغرقا فى النوم على الأثر، لشدة ما أنهكهما عمل الليل المتواصل. وبدأ ابن جبيلى يعد طعامهم المتواضع مسترسلا فى الغناء، وقد استغرقته تلك الغبطة الشاملة التى يتميز بها الصبا وفراغ البال.

«رأى العسكريان هذا المشهد من بعد، فأدركا أن الحظ قد وافاهما بالضحية المطلوبة، فانطلقا مسرعين لمفاجأة هذه الصحبة السكينة. وما إن رآهما الصبى مقبلين حتى أسرع إلى أبيه وعمه يوقظهما. وليس من أحد يود أن يكون بينه وبين خفر السواحل احتكاك ما، إذ من المعروف أنهم لا يتورعون عن الإتيان بأى عمل مهما ترتب عليه من أذى لغيرهم. لهذا كانت الطريقة الفضلى حيالهم هى تجنبهم بقدر المستطاع. ولم يكن فى قارب موسى وأخيه شىء من المهربات يخشيان اكتشافه. إلا أنهما كانا قد غادرا السويس منذ مدة طويلة، وكانت أوراقهما قد مضى عليها الميعاد. لهذا قر قرارهما على الفرار.

« رفعا المرساة سريعاً ونشرا الشراع . ولكنهما فى لهفتهما نسيا أن يحلا حبال أعلى الشراع ، فتسلق الصبى الصارى فى خفة القرد ليصلح الخطأ . فى هذه اللحظة دوى صوت طلق نارى فسقط الصبى فى البحر على الأثر . كان أحد العسكريين قد أطلق عليه الرصاص ، ثم أخذ يشير إلى القارب آمراً إياه بالعودة . إلا أن موسى كان قد ألقى بنفسه فى الماء محاولا إنقاذ ابنه ، بينما انكمش أخوه فى بطن القارب من فرط الذعر . فما كان من العسكريين إلا ان أطلقا وابلا من الرصاص على القارب الشقى ، محاولين إسقاط الشراع . وكان موسى فى ذلك الحين يسبح فى الماء حاملا ابنه الغائب عن الوعى بين ذراعيه ، فاقترب به من الجانب القصى للقارب ، وهم أخوه يبذل له العون ، فأمسك بالصبى وأراحه فى قاع الزورق . وفيما هو يمد يده ليساعد أخاه على الصعود ، إذ برصاصة تصيب رأسه فتمزقها تمزيقا .

« وفى ثورة جنونه وغضبه وقف موسى منتصباً فى مؤخر الزورق ، بالرغم من وابل الرصاص الذى يصفر من حوله . ورفع ذراعيه علامة على الاستسلام . ثم توجه بالقارب صوب الشاطىء ، فأمسك العسكريان عن إطلاق النار . ولم يسلك موسى هذا المسلك من قبيل إطاعة أوامرهما ، بل لأن ابنه كان لا يزال به رمق من الحياة ، فانحصر تفكيره فى أن يتيح له بعض العون .

« وبمجرد أن وصل إلى الشاطىء ارتمى عليه الوحشان فأوثقا يديه ، ثم طرحاه أرضاً إلى جوار طفله الغائب عن الوعى . وكان صوت الطلقات قد بلغ مسامع خفراء السواحل الآخرين ، الذين هرعوا مسرعين إلى مكان الحادث . وكان من بينهم ضابط سرعان ما اتخذ لنفسة مكان الإمارة ، كأنما قد وقع الحادث بمعرفته وإرشاده . وأبلغه الحارسان أنهما رايا المتهمين يخفون لفيفة مريبة فى جوف الرمال ، وأنهم حاولوا الفرار فاضطرا إلى إطلاق الرصاص عليهم ، حسبما يبيح القانون فى مثل هذه الأحوال .

« وأخرج الخفراء الكيس الذى كانوا قد دفنوه منذ بضعة أيام ، فتبين أنه يحوى حشيشاً . ولم يجد موسى فتيلا احتجاجه بأن الحشيش فى حالة تجعله عديم النفع ، فإن القانون لا يقيم وزنا لمثل هذا الأمر . ها هو ذا جسم الجريمة قد عثر عليه بجوار القارب ، وها هى ذى الجثة والطفل الجريح ينبئآن بحصول المقاومة ، فهى بذلك واقعة ضبط رائعة محبوكة الأطراف .

« وراح موسى يستعطفهم لإنقاذ حياة طفله ، فقد كان هذا كل ما يعنيه . وكان الطفل يلهث طلباً للهواء ، وقد علا شفتيه زبد ملطخ بالدماء . فما كان من العساكر الغلاظ إلا أن قذفوا به إلى جوار عمه الميت ، الذى كانت عيناه قد جحظتا من محجريهما ، وقد تناثر فتات من مخه على الأرض . وأسدلوا على الجثتين رداء ، ثم انفذوا رسولا لاستحضار ضابط المركز حتى يسبغ مظهراً قانونياً على تلك الجريمة الوحشية . وأنيخت الجمال ، وأخرج العساكر نرجيلاتهم الصغيرة وشرعوا فى التدخين كأن شيئاً لم يحدث . وخفتت أنات الصبى شيئاً فشيئا ثم انقطعت . وأخيراً علا صوت حشرجة مروعة من حلقه الصغير ، منذرة بتسرب آخر خفقات الحياة من جسم الصبى . ثم ساد السكون . وكان موسى راكعاً إلى جواره وهو موثق اليدين ، فلم يفعل سوى أن القى برأسه بين ركبتيه والتزم الصمت . لم يكن يبكى ، بل أسلم نفسه إلى قدره الغاشم . ولقد حكم عليه بالسجن سنتين ، كما صودر مركبه وكل ما كان يملك . وعلا صوت الجرائد بإسداء المديح إلى خفر السواحل الشجعان ، وإلى ضباطهم اليقظين الذين خاطروا بحياتهم فى سبيل إعلاء كلمة القانون ، فتمكنا بذلك من القبض على اثنين من أخطر المجرمين .

« حدث هذا منذ عشر سنوات . وحين خرج موسى من السجن ، تصديت لأبحث له عن عمل ، فتمكنت من أن ألحقه بخدمة سفينة مبحرة إلى

أمريكا . ولم يكن من المستطاع أن أجد له عملا بمصر ، فقد كانت ذكرى محاكمته لا تزال عالقة بالأذهان ، كما كان موضوعا تحت مراقبة البوليس .

وبعد أربع سنوات كانت حادثته قد توارت فى غياهب النسيان ، فظهر من جديد بين العمال الذين يشتغلون فى توسيع القناة . ولم يتعرف إليه أحد ، واتخذ لنفسه إسم جبيلى . وفى ذات مساء قرع باب منزلى وأخبرنى بأنه يريد الاشتغال معى ، فأدركت أن القبرين المحفورين بين رأس زعفرانة ورأس أبو دراع ، يربطانه ربطاً وثيقاً بهذا البلد ، حتى يتيح الله له فرصة الانتقام . . »

فسألته قائلا :

— وهل أتاح الله له هذه الفرصة ؟

— من يدرى ؟ أن جبيلى لا يطرق هذا الموضوع مطلقاً . لعله لا يزال ينتظر العثور على أولئك الذين اغتالوا اخاه وابنه ، ولعله قد عثر عليهم . ولا جدوى من سؤاله فهو لا ينبس بلفظ .

وحينئذ أومأ عمر ، الذى يعرف هذه القصة ، وقد كان يتتبع حلقاتها فى مخيلته ، ثم قال :

— إن مرد هـذا أن جبيلى ينحدر من الجبال التى أنجبت عنترة فى قديم الزمن . إنها بلاد لا يعرف أهلوها معنى المغفرة ولا ينسون الإهانة . ولقد سألت جبيلى فى إحدى الأمسيات عن موت ابنه ، فبدلا من أن يجيبنى إذا به يروى لى هذه القصة :

« تروى الأساطير أن جنود عنترة ألقوا القبض مرة على ملك هرم ، ففقأ أحدهم عينيه واتخذه لنفسه عبداً . واستسلم الملك لقضائه كما يجب على كل مؤمن أن يستسلم لإرادة الله ، وراح يؤدى عمله المهين دون شكاية .

« وحين عاد عنترة من الحرب وبلغه أمر هذه القساوة الوحشيه ، أمر بقطع يدى الجندى الذى ارتكبها ، ثم أطلقه فى الصحراء ليموت ، وفك

أسر الملك وضمه إلى حاشيته حيث كان يعامل باحترام وتقدير . ولـكن الملك الضرير لم يكن يعلم بشىء من هـذا ، بل اتجه فـكره إلى أن عنترة كان السبب فى كل ما حل به من آلام . وفى خلال عشرين سـنة أخذ يتمرن على رمى النبال مستعيناً بحاسة سمعه المرهفة ، حتى صار أتفه الأصوات كافياً لتحديد مكان هدفه . وحين أصبح فى آخر الأمر قادراً على إسكات الأغنية المتمتمة فى حلق الحمامة الوادعة ، بسهم خاطف يطلقه من قوسه الصامت ، أدرك أن ساعته قد دقت ، وقبع ينتظر فرصته .

« وفى ليلة من الليالى انتحى عنترة مكاناً يشرف منه على قبيلته التى ضربت خيامها فى وسط الجبال . وكان العدو قريباً إلا أنه لم يجسر على التقدم لفرط ما كان للزعيم المحارب من هيبة تخشع لها القلوب .. وسمعه الشيخ الضرير يغنى أغنية ناعمة فى جوف الليل المعطر ، فانطلق على هدى الأغنية سهم مسمم ما لبث أن استقر فى الهدف المنشود .

وحدثه الشيخ الضرير قائلا :

« تستطيع الآن أن تسلبنى حياتى ، يامن سلبتنى نور عينى ، فلقد أخذت بثأرى . ولـكن عليك أن تستريح ، فإن السم الزعاف الذى غمست فيه هذا السهم والذى ادخرته لك عشرين عاماً طوالا ، كفيل بالقضاء عليك بعد برهة قصيرة ، وحينئذ ينقض عليك العدو ، الذى يعرف أننى آخـذ بثأرى هذه الليلة »

وأجابه عنترة قائلا :

« فليغفر الله لك أيها الشيخ الأعمى البصر والبصيرة . إن كان لى أن أعيش بفضل الله برهة أخرى ، ففى وسعى أن أقضيها فيما هو أجدى من عقابك على الخطأ الذى جعل منك قاتلا »

« ولم يكد يتم قوله حتى امتطى صهوة جواده ، وانحدر به فوق ظهر الجبل

حتى بلغ الفجوة المؤدية إلى حيث ترابط قبيلته . هناك وقف منتصباً فى ركابه ، وقد أولى ظهره للجبل ، وغرس رمحه فى الأرض . ففاجأه الموت وهو بهذه الهيئة المروعة . وأقبل العدو يبغى مفاجأة قبيلة عنترة ، فإذا به ينكص على عقبيه فى عجلة واضطراب ، إذ طالعه الشبح المتجهم لهذا الفارس الشامخ يطل عليه من جوف الظلمات . وانقلبت الكلاب تنبح وتولول من فرط الذعر » .

* * *

كانت الشمس قد قاربت المغيب حين شرعنا في رحلة العودة . وسلكنا فى هذه المرة الطريق الموصل إلى المحطة مباشرة ، وهناك أستقللنا القطار المكتظ بالوطنيين من العرب ، فأعادنا إلى القاهرة ، وأنهينا ليلتنا فى مقهى قريب الشبه بمطعم ، إذ فى وسع المرء أن يتناول فيه طائفة من المأكولات الخفيفة بما يعدل وجبة مستكملة . وكان جورجيس بطبيعة الحال يعرف صاحب المحل الذى أخذ يحوم حوله مظهراً غاية الاحترام والعناية . وجريا على ماجبل عليه من طبيعة حب الظهور حين يكون فى مجتمع ، أمر جورجيس باستحضار رطل كامل من صنف خاص من الكافيار معدا لاستهلاكه وحده . ولقد جلت بعينى فى وجوه الجالسين حولنا ، فلحظت بعد الشقة بينها وبين الوجوه التى رأيتها فى بور سعيد .

وقد تطوع جورجيس بتفسير هذه الملاحظة فقال :

— إنك لن ترى هنا هذا النفر من الصعاليك الذى يعيش على ما يتفتق عنه ذهنه المعتم من حيل وأخاديع ، والذى يوجد فى كل ميناء من موانئ الشرق . هذه الفئة المريبة من الناس ، أشبه بالطفيليات التى تتعيش عن طريق البحارة الذين ينزلون إلى البر . فهم يشترون منهم قطعاً رقيقة من الحشيش بشكل نعول يخفونها فى أحذيتهم ، كما يبيعونهم أشياء منوعة مما

يحتاجون إليه ، ولا يتورعون عن أن يؤدوا لهم خدمات من نوع خاص لا تغيب عن فطنتك .

وشرع جورجيس يقص على طائفة من الأقاصيص المسلية ، منها قصة عازف متجول إعتاد الصعود إلى السفن الكبيرة ، حيث يعزف أمام الركاب مستدراً شفقتهم برجله الخشبية وبعينيه الضريرتين . وكانت رجله الخشبية بالغة النفع فى اخفاء الحشيش ، أما عيناه فعليهما مادة رقيقة يزيلها وقتما يشاء . ولقد شجعه مظهره البرىء على المغالاة فى استغلاله ، فأخذ يستعمل قيثارته كأداة من أدوات صناعته . وفى ذات مرة زلت قدمه وهو ينزل على سلم إحدى السفن ، فتقدم أحد المشفقين فالتقطها له . فإذا بها ثقيلة إلى حد يثير الدهش . ولما أن نظر إلى داخلها وجدها مملوءة بالحشيش . ولم يكن هذا الشقى المسكين سوى دابة تحمل هذا المخدر ، لتلك البهائم الكسلة المضطجعة فى أركان المقاهى . وأضاف قائلا :

— ليس شيئا من هذا فى القاهرة . فمن كافة مدن الأرياف ، يأتى التجار المتمرسون ، ويشترون صفقات كبيرة من الحشيش تتراوح بين خمسين ومائة أقة . هؤلاء هم خزان الحشيش الذين يقصدهم تجار التجزئة فى الأرياف ، فيشترونه منهم بمقادير صغيرة يوزعونها على الفلاحين فى القرى .

فسألته قائلا :

— وهل كل هذا المقدار من الحشيش يستهلك فى مصر ؟

— لا أقل من عشرين إلى خمسة وعشرين طناً فى العام الواحد .

— ولكن من هؤلاء الذين يدخنون هذه الأطنان ؟

— الفلاحون والعمال ، وأفراد الطبقة السفلى على وجه العموم . أما السادة الذين يلبسون الطرابيش فيعدونه مزاجاً سوقياً ، ويفضلون عليه

الكوكايين ، هذا السم الأبيض الذى يتغلغل فى هذا القطر بخطوات واسعة .

— فبم تفسر إذن كيف يبدو هؤلاء الفلاحون والعمال على أتم صحة ، وكأنما لم يلحق بهم المخدر أيما ضرر ؟

— هذا يتوقف على من يتعاطاه . فهؤلاء الأنفار الذين يعملون فى الحقول مثلا ، يستعملونه كى يثيروا طبائعهم الراكدة ، لمغالبة كسلهم الوراثى الأصيل . هؤلاء قداعتادوا المخدر ، كاعتيادأسلافهم عليه من قرون مضت ، فهو لذلك لا يؤثر فى بنيتهم . وعلى النقيض منهم ، أولئك الذين يعيشون عيشة اللهو والفراغ ، فإنهم يستعملونه لبلوغ أحاسيس جديدة ، فسرعان ما تضعف ملكاتهم الذهنية ، وكثيراً ما يؤدى بهم الإدمان إلى الجنون .

ومما يسهم بقسط وفير فى تحقيق هذه النتيجة العنيفة ، أنها تصطحب عادة بالإفراط في مزاولة العملية الجنسية ، نظراً لكون المسلمين متعددى الزوجات عادة . وإن تعاطى كمية كبيرة من الحشيش ، من شأنه أن يطيل ساعات ، تلك العملية القصيرة بطبيعتها ، فيستنفد مزاولها غاية جهده العصبى . وتستطيع أن تتصور ماينجم عن ذلك من آثار مروعة . إلا أن هؤلاء الناس قلة مستثناة ، ولست أظن أنه مما يهم المجتمع كثيراً ، أن يسعى هذا النفر الباحث عن اللذات الشاذة إلى تحطيم نفسه .

فقلت له :

— لعله من أجل هؤلاء قام المصلحون فأثاروا الموضوع ، مما أضطر الحكومة إلى تحريمه ؟

— إن كان كذلك ، فإن هؤلاء المنحلين المحتقرين كان لهم بعض النفع ، فإن تحريمه هو الذى رفع سعره . ولعل المسألة كانت فى مبدأ أمرها مجرد احتجاجات قليلة باسم الأخلاق من سيدات عجائز وقساوسة .

ولكن ما أن منع الحشيش حتى ارتفعت الأسعار ارتفاعا جعل الحكومة تتنبه إلى ما يعود لها من نفع غير مباشر نتيجة التجارة الخفية .

فسألته قائلا :

— ولكن حدثنى كيف تقارعون هذا الجيش اللجب من المخبرين وضباط الجمارك والبوليس ، دون أن تندو أكفهم بما يبسطها نحوكم ؟

— لأنهم أغبياء جبناء وغير أكفاء . حقيقة يوجد من بين الرؤساء نبضة من الرجال الحصيفين ، إلا أن هؤلاء ليسوا من المصريين بل من الإنجليز . إنهم قلة نادرة ولكنهم موجودون على أى حال . ومع ذلك فماذا فى وسعهم أن يفعلوا حيال كل هؤلاء الكسالى الذين يلتحقون بخدمة الإدارة ، لأنهم يعجزون عن كسب عيشهم بالاعتماد على أنفسهم ؟ فلا تعجب أن يكونوا جبناء على وجه عام . ولست تدرى أية مهاو ينحدرون إليها لو لم تستخدمهم الحكومة لأداء هذا العمل الوضيع من أعمال الشرطة .

فرددت عليه بقولى :

ومع ذلك فليس كل رجال الشرطة وضباط الجمارك من المعاتيه .

— يا للأفكار الأوربية هذه ! لعل الأمر كذلك فى موطنك ، أما هنا فإن الشرطة هى هيئة بلغت أقصى ما يتصوره العقل من الفساد . إن إعجابى بالانجليز لا يزيد عن إعجابك بهم . ومع ذلك فلولا أنهم يحكمون مصر بيد حازمة ، لصارت من بين البلاد التى تدعى المدنية ، أكثرها وحشية وأدناها إلى الفوضى والتقتيل . فلا يغيب عنك أن سائر الناس من المصابين بالأمراض الخبيثة ، ومن المحاطين بالشبهات والمحجبين بالريب ، الذين أبعدتهم بلادهم لظرف أو لآخر ، يأتون إلى مصر ويستقرون فيها . هؤلاء هم عماد البوليس المصرى . وهم فى مبدأ عهدهم يعيشون على حرف زرية ، فنحن فى بلد تينع فيه كل أنواع الموبقات بطريقة علنية وبغير حياء ،

مما يتيح لحثالة الناس هؤلاء أن يجدوا رزقهم بسهولة. حتى إذا ما شاعت شهرتهم الدنيئة فى أداء نوع من الموبقات تخصصوا فيه، كان من السهل عليهم أن يلتحقوا بخدمة البوليس السرى. ومعظم هؤلاء من الإيطاليين واليونانيين والأتراك والمالطين الذين طردوا من بلادهم، أو الذين هربوا من الخدمة العسكرية. وهم يقبلون مرتبات تافهة، معتمدين على مهارتهم فى تصيد الفرص التى يبتزون منها أضعاف مرتباتهم، فهم لا يتورعون عن شىء فى الوجود. ولقد يبقون فى هذه الغمرة بعض الوقت، ثم إذا بهم فى يوم من الأيام وقد أصبحوا موظفين رسميين، يرتدون بزات عسكرية أنيقة وطرابيش حمراً متألقة. ومنذ ذلك الحين يبـدأ نجمهم فى الصعود. ولعلك تدرك الآن أنه من الجنون أن تثق بمثل هؤلاء الأذناب، الذين لا يترددون فى الإيقاع بك إن لاح لهم أمل فى غنيمة أكبر.

خيل إلى وانا أستمع لجورجيس أنه يغالى كثيراً فى رسم صورته، فقد كنت لا أزال مخدوعا. وكان من نصيبي بعد بضع سنوات أن أكتشف بنفسى أن الصورة التى رسمها لم تكن سوى بعض الحقيقـة. ولعلى أقص هذه الرواية العجيبة فى يوم ما.

حيانا ستافرو واستأذن فى الانصراف. ولقد أدركت أنه لا يميل إلى الذهاب إلى منزل جورجيس، فقد كان صـدره يضيق مما فيه من بهرج وترف، كما أن جورجيس من ناحيته لم يحاول أن يلحف عليه بالمكوث.

قال لى:

— الحق أن ستافرو شديد اللفت للأنظار، وكأنما هو قاطع طريق هرب لتوه من شاشة إحدى دور السينما.

فأمنت قائلا:

— الواقع أنه واضح بيّن كعلم فى رأسه نار. ومع ذلك فلابد أن يكون ذا نفع كبير لك فى السويس.

— لست أنا من ينكر نفعه، ومع ذلك فإن وجوده يضايقنى. ثم إنه لا يخاطر بمليم واحـد فى أية صفقة، بل على أن أتحمل كافة النفقات بما فى ذلك حصته. فإذا جاءت الرياح بغير ما نشتهى لا يخسر هو شيئاً. ليس إلا أن ترقبه وهو يستخرج النقود من كيسه — حتما أن تصدر منه حركة غير إرادية لإخفاء ما هو فاعل.

فأجبته بقولى:

— أجل. لقد لاحظت ذلك وكان مثاراً لتسليتى. إن الفلاحين عندنا تصدر عنهم مثل هذه الحركة. وهذا الخوف من النشالين هو فى اعتقادى بعض مخلفات عهود الوحشية الأولى التى لا تزال متأصلة فى الكثيرين.

واستأنف جورجيس حديثة قائلا:

— وثمة شىء آخر يتميز به ستافرو هو أنه لا يستطيع مقاومة فتنـة القيام بعملية صغيرة إضافية، رغبة فى كسب بعض جنيهات دون علمى. ولقد دار بيننا نقاش عنيف بصـدد أقتى الحشيش اللتين فقدتا منك. فإنه على أمل العثور عليها بغير علم منك، قام بتفتيش الساحل من أقصاه إلى أقصاه بالرغم مما يترتب على هذا العمل من إثارة للشبهات، فى وقت ما أحوجنا فيه إلى إبعادها. لذلك عليك ألا تضع ثقتك فيه مطلقاً، وألا تعقد معه صفقة دون إخطارى بذلك. إذ ما ذا تنتظر منه؟ إنه كما تقول فلاح ماكر يشك فى أقرب الناس إليه. وعليك أن تقبله كما هو. ومع ذلك فإنه باستثناء تلك العيوب الصغيرة، يعد رجلا طيباً يمكن الاعتماد عليه، فضلا عن أن جميع عرب السويس واقعون تحت سيطرته، مما ييسر له معرفة سائر ما يدور فى دواوين الجمارك، وكل حركة من حركات الشرطة.

فسألته قائلا:

— لقد حدثتنى بأنه بحث عن أقتى الحشيش اللتين فقدتا منى، ولـكن

هل أخبرك بأنه خرج باحثاً عن المخبأ الذى أخفيت فيه بضاعتى أيضاً ؟

— وما الذى جعلك تعتقد أنه فعل ذلك ؟

فأخبرته بما رآه عابدى فى الليلة التى قطع فيها الشاطىء سيراً على الأقدام .

— إنك مصيب فى اطلاعى على هذا الأمر ، فكل تفصيل له أهميته . علينا أن نسير بحذر ، وسأحيط عمر بالأمر هذه الليلة ذاتها .

* * *

وأخيراً وجدت نفسى على رصيف محطة القاهرة ، فى انتظار القطار الذى يعود بى إلى السويس . كنت فى أشد الشوق إلى سفينتى ، حتى أطمئن إلى أن كل شىء يسير على ما يرام ، ولأنتزع نفسى من جو التجارة وقوانين الغاب ، الذى كان يقتضينى مداومة التكلف والمصانعة ، فلا يترك لى لحظة أنطلق فيها على سجيتى . وقابلت ستافرو فى القطار ، فشرع فوراً يحدثنى عن جورجيس . فقلت له إننى وجدته رجلا متميزاً ، وأطنبت فى مدحه . ولعلى أثرته بهذا القول فإذا به ينبرى للنيل منه فقال :

— إن سعد طالعه هو الذى أوجدنى لأدبر له كل شىء ، فليس غيرى من يستطيع مفاوضة البدو ويعرف كيف يعاملهم . وإذا تطلب الأمر أداء أعمال محفوفة بالمخاطر فى خليج السويس أو غيره ، فإننى أول من يقوم بها دائماً . وبالرغم من هذا كله فإن جورجيس هو الذى يستولى على معظم الأرباح ، كما يعتبر من كبار رجال الأعمال أصحاب المركز المرموق والمكانة المحترمة ، فى حين ينظر إلى على أننى مهرب وضيع . وإذا ما كنا فى الطريق معاً كان على أن أسير على بعد عشر خطوات منه حتى لا ألصق به شبهة ما .

فاعترضت على حديثه قائلا :

— ومع ذلك فهو الذى يقدم المال جميعه .

— لقد أخبرك بذلك أيضاً . أليس كذلك ؟ لا تصدق حرفا مما قال .

إن المال الذى أعطاك إياه مصدره المبلغ الذى دفعه عملاؤه تحت الحساب نظراً لوصول بضاعتك . فإذا — لا سمح الله — حدث مالم يكن فى الحسبان ، فما عليه إلا أن يخبر هؤلاء القوم بأن الصفقة قد اكتشف أمرها ، وهو سوء حظ لا حيلة له فيه ولا يسأل عنه ، ثم يماطل فى إعادة المبلغ لأصحابه ، وقد لا يعيده إليهم أبداً .

إن ما حدثنى به ستافرو جعلنى أفهم كيف يحمى هؤلاء الناس أنفسهم من مخاطر التجارة التى يمارسونها ؛ كما جعلنى أدرك مقدار سوء حمايتى لنفسى فيه .

استرسل ستافرو فى الشكاية من شريكه . وأن من يستمع إليها يخيل إليه أنهما لا يكادان يحتمل الواحد منهما الآخر ، وإن كل منهما يوقر ظهر أخيه بدين كبير من معروفه وأفضاله ، فى حين لا يتلقى سوى الخسة ونكران الجميل . ومع ذلك لم يكن فى طوق أحدهما ان يخطو خطوة واحدة بدون الآخر ، وعندما يلوح لهما شبح مأزق يخف كل زميل إلى زميله ليسكن روعهما ، وليستمدا من اجتماعهما قوة يواجهان بها الموقف . إن ستافرو وجورجيس قد يقبلان على الموت ، ولا يقدمان على خيانة أحدهما الآخر . ولكنهما إذا افترقا لا يستطيعان مغالبة الرغبة فى أن ينهش أحدهما لحم أخيه . إنها طريقتهما المفضلة ليس إلا ، وهى لا تعنى شيئاً فى الحقيقة .

الفصل السابع والعشرون

رحلة الليـــل

وأخيراً وقعت عيناى على « فتح الرحمن » ، مشدودة إلى مرساها فى أمن ودعة . ولم يكن قد حدث شىء ذو بال خلال غيبتى . وقد كان تم الاتفاق فى القاهرة على أن أتجه بسفينتى إلى موضع يعين لى بواسطة أحد أعوان حمر ، الذى سيكون فى انتظارى على رصيف الميناء ليبحر معى . وساءلت نفسى عن الوسيلة التى تمكننى من مغادرة الميناء دون أن ألفت الأنظار ، فوجدت أبسط الأشياء هو ادعاء أنى أقصد صخور المضيق طلباً للصيد . وكان ما اثارته سفينتى من فضول قد خمدت جذوته ، فرجوت أن تنقضى فترة تغيبى دون التفات . ورغبة فى التزام جانب الأمان ، قصدت سبيرو وأبديت له رغبتى فى استصدار تصريح بصيد القواقع فى خليج السويس ، فسرعان ما اتصل « بصديقه العزيز » مأمور خفر السواحل يسأله عما يجب أن أفعل . وقال لى :

— إمض إلى لقائه ، فهو ينتظرك ببور توفيق . ستجده رجلا ظريفا .

ووجدتنى واقفاً بباب ثكنات خفر السواحل ، بين مدفعين يرجع تاريخهما إلى عهد محمد على . وأعطيت بطاقتى إلى أحد الجنود ، فجاءنى ضابط مصرى شاب واصطحبنى إلى المأمور ، فإذا به رجل بدين محمر الوجنتين ، يرتدى ملابس نظيفة أنيقة ، ويضع على رأسه طربوشاً يجعله أشبه بالأتراك ، وإن يكن فى واقع الأمر مالطياً يتكلم الإيطالية بطلاقة . قال لى :

— لقد اهتممت كثيراً بفكرتك ، فإنه مما يسرنى أن ارى سفينتك

زوج وتغدو على طول الساحل ، إذ فى وسعك حينئذ أن تمدنا بالكثير من المعلومات التى تفوتنا بالرغم من يقظتنا .

وساءلت نفسى عما إذا كان سيطلب منى أن ألقى بالى إلى مهربى الحشيش ! وأجبته قائلا :

— أجل ، فقد ترامى إلى سمعى أن التهريب متفش فى هذه المنطقة . ولكن عليك ان تبصرنى بهذا الأمر قليلا حتى أستطيع أن أكون ذا نفع لك فيه .

— إن ما يهمنى هو تهريب الأسلحة .

— الأسلحة ! ومن تراه يبتاعها ؟ .

— أنك لا تدرى مقدار لهفة البدو للحصول على البنادق . فإن الصعيد يعج بالمحرضين الذين يثيرون الفتن ضد الانجليز ، وهم دائماً فى حاجة إلى الأسلحة .

— وهل تهريب الحشيش منتشر كذلك ؟ .

حين نطقت بلفظ الحشيش رأيت القائد ينتفض كأنما قلت شيئاً نابيا ، وألقى ببصره إلى الباب ليستوثق من أنه مغلق ، ثم قسر نفسه على الابتسام وقال :

— إنه منتشر بطبيعة الحال ، ولكننا لسنا ضباط جمارك . ثم إن هذا الأمر لا يهمنا فتيلا ، كما هو الحال فى الاسكندرية وبور سعيد ، فإن ما يستحوذ على اهتمامنا هنا هو تجارة الأسلحة .

وبادر إلى تغيير دفة الحديث ، فانتقلنا إلى الكلام عن الصيد وحرارة الجو ، كما هو محتوم على كل قادم من جيبوتى . ولاحظت أن لهذا الجندى الهمام فكرة غامضة جداً عن الجغرافيا ، فهو يضع جيبوتى فى جزيرة مدغشقر قبالة مصب نهر الكونغو . والظاهر أن سؤالى له عن

الحشيش قد هز كيانه نوعاً ، فهذا موضوع دقيق من الحرج مناقشته مع أجنبى .

وكان من الطبيعى أن أعرض عليه اللآلىء المزعوم أننى عثرت عليها فى الخليج ، وأهديت إليه واحدة منها . وقد تم الاتفاق بيننا على أن أقدم طلباً كتابياً بالتصريح لى بصيد القواقع ، وسيعمل من جانبه على تزكية هذا الطلب وتأييده ، ومع ذلك كنت موقناً بأن الإنجليز الذين ينبغى عرض الأمر عليهم ، لابد أن يجدوا سبباً أو آخر من شأنه أن يحول دون منحى هذا الترخيص .

* * *

فى اليوم السابق لليوم المحدد لرحلتى ، حضر جبيلى ومعه سلة من الخضر كذريعة تمكنه من رؤيتى دون إثارة الشبهات . وأخبرنى بأن أتباع عمر وصلوا من القاهرة ، وأنهم سيكونون فى انتظارى هذه الليلة عند ستافرو .

وفى الساعة التاسعة كنت أطرق الباب الصغير . ووجدت ستافرو قلقا بسبب ما وصل إلى علمه من أن دوريات خفر السواحل قد ضوعفت ، فصار هناك دورية للنهار وأخرى لليل . وسألته :

— أترى تسرب من الأنباء ما أثار شكوكهم ؟ .

— ما أظن الأمر متعلقاً بك . ولكن السلطات تخشى منذ حين نشوب قلاقل فى الصعيد ، فهى لذلك تبدى اهتماماً خاصاً بمكافحة تهريب الأسلحة . وعلى أى حال فإن جبيلى يرقب الأمر عن كثب ، وسوف يعرف ما إذا كانت هناك دورية فى ليلة الغد . أما أنت فعليك أن تتجه إلى رأس القضابية فى سفح جبل عتاقه ، حيث يكون فى انتظارك ليخطرك بما يجب أن تفعل . وسوف يكون بصحبته البدوى الذى أرسله عمر ، فهو وحده يعلم المكان

الذى يجب أن ترسو فيه . يحسن بك أن تلقى عليه نظرة حتى تستطيع التعرف إليه .

وتقدم صوب كومة بشرية ملقاة فى أحد أركان الحجرة وقال :

— هيا استيقظ يا أحمد فقد نمت طويلا . قم وتعال هنا .

ثم أضاف قائلا :

— إنها عادة ممضة تلك التى اعتادها هؤلاء القوم إذ يلقون بأنفسهم فى أحضان النوم حين لا يكون لديهم عمل يقومون به ، فتراهم ينكمشون فى ركن ويستسلمون للنعاس كأنهم بعض تلك الحيوانات التى تقضى الشتاء نائمة فى جحورها .

تقدم نحونا أعرابى شديد السمرة ، قد لفحت وجهه الشمس ، يرتدى ملابس من الصوف السميك كتلك التى يرتديها أهل الجبال لتحميهم من لسع البرد فى ليالى الشتاء . وكانت قذارته بالغة ، وتفوح منه رائحة الزرائب شأن من يعيشون بين الجمال . وطفق يحك جلده بشكل فاضح ، حتى أنه حين لمس يدى مصافحاً ، شرعت أحك نفسى بدورى إذ شعرت بأن حشراته الخفية قد ملأت ملابسى .

أنصت بانتباه لكافة الإرشادات الخاصة بطريقة تعبئة البضاعة قبل تسليمها ، ثم حييت النسوة المتسربلات بالسواد ، موقناً بأنهن سوف يصلين أمام الأيقونة حتى يعيننى الله على نجاح مهمتى . وتوقفت عند عتبة الباب ، إذ خطر لى أنه لو حدث أى طارىء يمنع مرشدى من الوصول إلى رأس القضابية فى الساعة المحددة ، لأسفرت خططنا عن لاشىء . وإنه يكون من الأصوب لو اصطحبته معى إلى السفينة تواً . ووافق ستافرو على هذا الرأى ، فتمكنت تحت ستار الظلام من أن أصعد به إلى « فتح الرحمن » دون أن ينتبه له أحد من حراس الميناء .

ونصحنى سيرو بأن أتوجه لرؤية مساعد مدير الميناء قبل إبحارى .

فأطعت النصح ، وتمكنت بفضل توصية سبيرو « لصديقه العزيز » من
أن أتفاهم مع هذا الموظف المصرى فى وقت وجيز جداً . وهو رجل بالغ
البدانة والترهل ، حتى ليشعر المرء بشىء من الرهبة إن اضطر إلى البقاء
بقربه ، وهو أمر لم يلجئنى إليه ، إذ سرعان ما تم الاتفاق بيننا على أن أغادر
الميناء لمدة قصيرة فى مقابل جنيهين . وكان مدير الميناء انجليزيا ، إلا أن
ملكاته جميعاً كانت وقفاً على شرب الويسكى ، مما لم يترك له من الفراغ
سوى ما يكاد يكفى للتوقيع على ما يعرض عليه من أوراق ، دون علم
بمحتوياتها . وكان مساعده المصري هو الذى يقوم بكافة اعمال « الروتين »
العادية ، منذ أن عين هذا الإنجليزى فى تلك الوظيفة . وإذ كان الإنجليز
معروفين بحب المحافظة على التقاليد ، فلم يكن ما يدعو إلى الخوف من
حصول تغير مفاجىء فى هذا النظام المستتب .

نشرت قلاع سفينتى فى عصر ذلك اليوم ، وتسللت من الميناء متخفياً .
ولم يكن هناك من يحاسبنى على رحيلى المباغت سوى مصلحة الموانى والمنائر ،
وكنت أعلم ان المصرى البدين سيتكفل بتسوية هذا الأمر . وكانت
الحجة التى أبديتها تبريراً لإبحارى ، هو أننى أقوم برحلة صيد قصيرة ريثما
تبت السلطات فى موضوع منحى امتياز صيد اللآلىء . لهذا فقد يممت بادىء
الأمر صوب الشعب الواقعة بالقرب من جبال عتاقه ، حتى إذا صرت على
بعد لا يمكن من رؤيتى من الساحل ، انحرفت ناحية الجنوب إلى أن بلغت
رأس القضابية ، وأرسلت قارباً إلى الشاطىء للاتصال بجبيلى ، الذى كان
منكمشاً على الساحل وقد خمدت حركته حتى كأنه صخرة صماء . ولما أن
بلغه رجالى قال لهم :

— انصرفوا تواً ، فالدورية المقبلة من السويس على وشك الوصول ،
ومن الواجب ألا يروا سفينتكم .

— وكم عددهم ؟

— إثنان بلا شك ، ولكن هذا كاف . إنهم إن وقعوا علينا فعلا ،
فلن يمنعونا من إتيان ما نريده ، فهم يعلمون أن البدو مسلحون ، وأن
مناهضتهم معناها التعرض للقتل ، فسرعان ما يركنون للفرار . ومع ذلك
فإن خفر الحدود لابد أن يتنبه للأمر ، وفى أقل من ساعة يصل خبرنا إلى
رجال الضبط فى القاهرة . وحينئذ يمتنع علينا أن نقدم على أى عمل لمدة
شهر على الأقل . هيا اسرعوا ، فأنا قادم معكم إلى سطح السفين .

عدنا إلى عرض البحر مرة أخرى ، بينما التزم جبيلى صمته المعتاد ،
وجلس يدخن نارجيلة عابدى ، بعد أن عين لى على وجه الدقة المكان الذى
سنلتقى فيه برجال عمر . وفى حوالى منتصف الليل بدت سلسلة من التلال
مرتسمة على صفحة الشبح الداكن للهضبة المرتفعة . وكانت قريبة من
الساحل إلى حد كبير . ها هنا تنتظرنا قافلة عمر . ألقيت المرساة فى مياه
يبلغ عمقها ستين قدماً ، وهذا معناه بحسب المقاييس التى فى الخريطة أننا
نبعد عن الشاطىء بما يقرب من ميل ، وهو بعد كفيل بحجب السفينة عن
الأنظار . ونزلت أنا وعلى عمر وجبيلى والبدوى فى قارب سبقنا به الآخرين .
كان كل شىء أمامنا محجبا بالظلمات ، وإن تكن الرؤية أسهل عادة
على سطح الماء منها على الأرض ، وخاصة إن كان الرائى فى مستوى منخفض .
وأوقفنا جبيلى بعيداً عن الشاطىء وقال :

— انتظروا هنا فسأذهب بمفردى . وإذا سمعتم أصواتا فعليكم ان
تنصرفوا فى سكون ، أما إذا لمحتم وهج لفافة مشتعلة فلتقبلوا نحوه .

وسألته :

— هل معك كبريت ؟

— كلا ، ولكن لدى جمرة فى جيبى .

كانت هذه « الجمرة » قطعة من روث الجمال أشعلها قبل مبارحته المنزل . وبالرغم من أنه كان إلى جوارى فلم أستطع تمييز رائحة هذا المشعل الطبيعى . ونزل إلى الماء فبلغ وسطه ، وأخذ يتقدم متمهلا فى جوف الظلمات ، وقد كوم ملابسه فوق كتفه . ولما أن اقترب من الشاطىء شرع يصدر ضوضاء كثيرة ، فجعل يبصق ويجمجم ويضرب صفحة الماء بكفيه شأن من يغتسل . وفهمت أنه إنما يفعل ذلك حتى إذا كان هناك أحد من الحراس على الشاطىء فلابد أن تنبهه هذه الضوضاء فيناديه . وهذه هى الطريقة المثلى لاكتشاف ما إذا كان هناك ثمة خطر جاثم فى وسط تلك الظلال المحجبة .

وبعد برهة ساد الصمت ، فأدركت أن جبيلى قد بلغ الشاطىء . وقبعنا فى الزورق لانصدر صوتا أو حركة ، والوقت يمضى فى رهبة وتثاقل . ولم يكن يقطع سكون الليل سوى صيحة يصدرها بين الحين والحين طير من طيور البحر فتتردد أصداؤها بين الصخور ، أو صوت حفيف الماء إذ تتسرب فيه قروش البحر . أما الشاطىء فقد ساده صمت مطبق . واستمر الحال على هذا المنوال فترة طويلة ، حتى خشيت أن يكون قد فاتنى رؤية اللفافة المشتعلة . وأخيراً لمحنا على يميننا وهجاً متقطعا كأنه عين حمراء صغيرة ، فعلمنا أن الطريق مأمون .

وتقدمنا بالزورق فوجدنا جبيلى فى انتظارنا على حافة الماء . وأمرنا بأن نسرع فى النزول ، وأن نسير خلفه بحيث نضع أقدامنا على آثار قدميه بالضبط ، وبذلك يبدو للناظر أن شخصا واحدا هو الذى مر فى هذا الطريق . ومع ذلك فلم يكن الساحل الرملى سوى شريط ضيق ، ومن بعده وجدنا انفسنا نسير فوق أرض صلبة .

وعبرنا تحت أسلاك البرق التى تمتد من خليج السويس على طول

الساحل ، والذى تميز أعمدته الطريق الذى تسلكه الدوريات فى مرورها .

وقال جبيلى :

— لقد مروا وشيكا . ولقد استطعت أن أميز آثارهم ، كما كان من حسن حظى أن عثرت على بعض مخلفات جمالهم ، فوجدتها لاتزال دافئة مما يدل على أنهم مروا منذ حوالى نصف ساعة . يجب على المرشد الآن أن يتوجه فيعلن وصولنا دون أن يضيع دقيقة واحدة ، حتى نتمكن من إنجاز عملنا قبل عودة الدورية .

وسرعان ما اختفى البدوى فى ناحية التلال ، وهو يحمد ربه على عودته إلى اليابسة بعد طول ما عاناه من تعب ركوب البحر . وجلس جبيلى فى بطن فجوة مرتفعة يستطيع منها أن يرى دون أن يرى ، على أن يشير إلينا باللفافة الخالدة حين يكون الطريق خالياً . وكانت طريقته فى الإمساك باللفافة هى أن يحيطها بكفه حتى لايرى ضوءها إلا من ناحية واحدة .

عدنا بزورقنا إلى السفينة لننقل بضاعتنا . وبعد نصف ساعة وصلت الدفعة الأولى ، تحت إشراف الجمرة الحمراء . وكنا نحاول بقدر ما نستطيع أن نسير فوق آثار الأقدام عينها . وكنا قد حزمنا الحشيش فى أربع عشرة لفيفة ، كل اثنتين منهما مشدودتان إلى بعضهما بحبل قصير ، بحيث يمكن وضعهما فوق السرج دون إضاعة دقيقة واحدة . وسار الرجال صفا واحداً وقد وضع كل منهم حمله المزدوج على كتفه ، إلى أن عبر أخيرهم طريق الدورية المحفوف بأعمدة البرق . وبذلك اجتزنا الخطر الأعظم . فابتلعتنا ظلمات الصخور وظلال شجيرات الصحراء . وكان تابعى فيران قد ابتعد بالزورق عن الساحل ، وجلس فيه ينتظر عودتنا ، فإذا مر أحد فى الطريق ما استطاع أن يرى شيئاً .

ومذ صرنا على مسافة مأمونة من ذلك الطريق الخطر ، وضعنا أحمالنا

وانتظرنا عودة البدوى الذى ذهب فى طلب القافلة . ومضى الوقت ثقيل الوطأة دون أن يعود ، فبدا الاضطراب يتملكنى . ولكن جبيلى مال على وقال :

— لا تقلق ، فالجمال تقف عادة على مسافة بعيدة من الشاطىء ، ولقد يستغرق رسولنا زمناً آخر قبل أن يرجع . هيا فليس لدينا وقت نضيعه ، ومن المستحسن أن نبادر الآن باستحضار بقية الأكياس ، فإن أخطر ما فى رحلتنا هو أن نعبر بها هذا الطريق اللعين . أما وقد أحضرناها إلى هنا أصبح الخطر ضئيلا جداً ، ويصير فى وسعنا أن ننتظر هادئين حضور قائدى الجمال .

كذلك عدنا إلى الشاطىء من جديد لاستجلاب الجزء الثانى والأخير من حمولتنا . وأنفذنا إلى السفينة رجلا واحداً بصحبة الخادم الصبى ، وظلت بقيتنا تنتظر على الساحل . وكان جبيلى معنا . وقدرت أن يعود القارب فى حوالى ربع الساعة . وحينئذ تحين اللحظة الحرجة ، إذ ما أكبرها مصيبة أن يصل القارب فى عين الوقت الذى تعود فيه الدورية . لبثت أرتقب وقد توترت أعصابى إلى حد خطر ، فكان يخيل إلى فى كل لحظة أننى أرى شبح رجل جاثم فوق جمل يعدو . وانتهشنى فروغ الصبر والقلق على عودة هذا القارب ، التى خيل إلى أنها استغرقت وقتا أطول كثيراً مما حسبت .

وكان جبيلى يقبع إلى جوارى ، وقد أشعل لفافة جديدة جعل ينهل منها طويلا من بين أصابعه المطبقة حولها .

كنا نقف على حافة الماء تماماً ، ويحجبنا عن الأنظار كثيب تغطيه شجيرات يابسة . وكان الطريق على مسافة ثلاثين قدماً من ورائنا ، يحرسه رجلان وضعت كل واحد منهما على أحد جانبيه . بذلك يصير على كل منهما أن يحصر انتباهه فى ناحية واحدة . وقد كلفتهما أن يلقيا حصاة فى الشجيرات

التى فوقنا إذا لاح لهما أتفه الأشباح ، فهذا الصوت يكفى لتنبيهنا دون أن يصل إلى سمع أى قادم . وبذلك أصبحت كل مهمتنا أن نرقب البحر الممتد أمامنا ، وأن ننتظر عودة القارب ، وأن ننصت .

وأخيراً لاحت لنا نقطة سوداء على صفحة الماء ، ظلت تكبر وتكبر فكانت زورقنا . وأمكننى من خلال منظارى المكبر أن أتميز أحمال الحشيش توقر ظهره . الآن صار فى وسعنا أن نتحرك وأن نضع حداً لهذا الموقف المضنى . وبينما نحن نتأهب لملاقاة الزورق ، إذا بصوت حاد لحجر متدحرج يحيلنا إلى شبه أصنام . ثم تبعتها حصاة أخرى ، كأنما قد خشى الحارس أن يكون قد فاتنا سماع الأولى . أطفأ جبيلى لفافته فى الحال ، وأمسكنا بأنفاسنا ننتظر . وكان الزورق اللعين يبدو كأنما يملأ فراغ الأفق فليس فيه إلا هو . لقد اختفت العلامة التى ترشده ، ولكن أترى سيدرك الرجلان خطورة ما حدث . إنه يتأرجح على الماء فى صمت وبطء ، ولكنه يتقدم نحونا من غير شك . وحينئذ نبض الهواء بصوت راتب مكبوت ، ثم سمعنا صوت الحصى الرفيع يتناثر من تحت أخفاف الجمال العادية . وبدا كأنما الجنديان قد شدا اللجام وخففا الوطء ، فأصبح فى وسعى أن أراهما من خلال نظارتى الليلية ، بل وأن أتميز بندقيتيهما مدلاتين إلى جانب السرج .

وأخيراً توقف الزورق ، وكأنما قد أدرك الرجلان الخطر . ولكنه بدلا من أن يلتزم نفس موضعه ، إذا به ينحرف فيبدو مستعرضاً لمن على الأرض . وخيل إلى أننا ضعنا فقد أصبح الزورق ظاهراً للعيان بوضوح . وسمعت الجنديين يطقطقان بألسنتهما تحميساً للنوق التى شرعت تخب . واستمر الزورق فى دورانه ، إلى أن عاد نقطة غامضة فى صفحة الليل . وكان الخفيران فى ذلك الحين قد جاوزانا مسرعين ، وبعد لحظات

قصار ضاع صوت الخفاف المنتظمة الوقع ، وعاد السكون يخيم على المكان .

تمتمت فى أذن جبيلى قائلا :

— إننا مجدودون بلا شك ، فإنها معجزة أن يمرا دون أن يريا الزورق . فأجابنى جبيلى بقوله :

— نصيب . . . ومع ذلك ففى ظنى أنهما رأيا الزورق ، إلا أنهما خشيا أن يكونا محاطين برجال مختفين وراء الشجيرات ، ففضلا أن يغذا فى السير ما وسعهما ذلك . إن خفراء الحدود إذا تفرقوا أزواجاً ، لم يكن من ورائهم كبير خطر . ولكن علينا أن نسرع ، فإنهما كفيلان بتنبيه أقرب مركز به هاتف ، فما ينبلج الصبح حتى يأتى إلى هنا جيش مستكمل . ما أشدها مضايقة !

وفيما كان يتكلم أخذ يبحث عن الجمرة ليعيد إشعال لفافته فوجدها قد انطفأت ، كما وجدت ما معى من أعواد الثقاب قد أصابه البلل . هذه الأحداث الصغيرة من شأنها أحياناً أن ترتب مآسى مروعة بعيدة الآثار . ولقد أطلق أحدهم على هذه المقدمات التافهة للأحداث الخطيرة عبارة « طلسم التوافه » . وفى وسعى أن أستعيد هذه العبارة لما كان من شأن القارب .

ولم يكن ثمة ما أستطيع فعله للفت نظر من فيه — بالرغم من خطورة هذا العمل — سوى أن أجعل من يدى بوقاً ، ثم أنحنى فأرسل نداء خافتاً على سطح الماء . بهذه الطريقة يستطيع كل قريب من سطح الماء أن يستمع لهذا النداء على مسافة بعيدة ، وهى طريقة أخذتها عن الصيادين .

وبدا كأن من فى القارب لم يستمعوا إلى النداء ، فطرحت الحذر ظهريا ، وأطلقت صيحة فى جوف الليل غير عابىء بما يكون . وأخيراً سمعت ضربة المقاذيف ، وبعد هنيهة رسا القارب على الشاطىء ، فألقينا بأنفسنا على

الأكياس وحملناها فى شبه جنون ، وكأنما ننتقم لأنفسنا منها لما أوقعتنا فيه من قلق ظل يحش فى قلوبنا طوال ثلاثة أرباع الساعة .

وأخيراً استطعنا أن نكوّم الأكياس جميعها عند سفح التلال التى كانت لنا بمثابة مرشد يدل على الطريق . إلا أن البدوى الذى ذهب فى طلب القافلة لم يكن قد عاد بعد ، فى حين أوشك الفجر على البزوغ ، وظهرت نجمة الصبح فوق حد البحر وراحت تصعد مسرعة فى هام السماء . وما كان أسرعها فى تلك الليلة !

واستولى القلق على جبيلى أيضاً ، وإن لم ينطق بحرف . فلو أن شيئاً حدث فسنضطر إلى الانسحاب تاركين بضاعتنا معرضة للأنظار ، إذ لم يكن ثمة مجال لإخفائها فى تلك التربة الصخرية . وطفقت ألعن جورجيس وستافرو اللذين أوقعانى فى هذا المأزق . ماذا يهمهما من أمرى ؟ إن أحدهما نائم فى قصره المنيف يرسل شخيره كالثور ، بينما الآخر يحرق الشموع ويحلم الأحلام .

وفى اللحظة التى وطنت فيها نفسى على تحمل أسوأ النتائج ، لاحت لى فجأة أشباح صامتة تتسرب بين الصخور المحيطة بنا ، ثم لم تلبث أن قبعت خلفها . وعلى حين غرة انتصب الرجال واقفين ، وتقدم أحدهم نحونا فإذا به مرشدنا البدوى . ولما أن تعرف إلينا أشار إلى الآخرين فلحقوا به على الأثر ، وتناول كل منهم حمله المزدوج دون أن ينطق بلفظ ، ثم اختفوا به خلف التلال . أما جبيلى فقد انتحى ناحية بصحبة أربعة رجال مسلحين ببنادق « رمنجتون » ، وظل يحادثهم بصوت خفيض . وكان أول حديث لفظ به هو أن طلب منهم ثقابا ، فلم يكن فى وسعه أن يبقى ساعة واحدة بدون تدخين . ولقد عجبت لهدوئه الشامل الذى لا يعكر صفوه سكر ، وكأنما هو متفرج عابر لا يعنيه من الأمر شىء . وسألته

أن يترجم لى حديث هؤلاء البدو من أهل الجبال ، فقد كانوا يتكلمون بلهجة لم أفهم منها كلمة واحدة . وفهمت من حديثهم أنهم اضطروا إلى ترك الجمال على مسيرة ستة أميال بسبب مضاعفة الدوريات خلال الأيام الثلاثة الأخيرة ، وذلك لعلة لم تعرف بعد .

وكان قائد القافلة قد وجد من المستحسن تأجيل عملية النقل إلى يوم آخر ، وأرسل أحد رجاله لينبئنا بأنه لن يكون موجوداً فى المكان المتفق عليه . واتفق أن قابل مرشدنا هذا الرسول فى منتصف الطريق ، فأفهمه بأن البضاعة جميعها قد تم نقلها إلى الشاطىء ، ولم يعد هناك مجال للتفكير فى التأجيل وإلا انكشف أمرنا . وقد كان الفضل كله لهذا اللقاء المعجز ، الذى تم فى طى الظلام المطبق ، وسط صحراء شاسعة خالية من الدروب المطروقة .

وحين اختفى الرجال بأحمالهم لملاقاة القافلة ، غادرنا الحراس الأربعة ليحموا مؤخرتهم ، بينما ولينا وجوهنا صوب الشاطىء عائدين أدراجنا .

الفصل الثامن والعشرون

آثار أقدام فى الرمال

لن تستطيع الألفاظ أن تصف خفق قلوبنا ونحن عائدون إلى البحر ـ إن هذا الشعور البهيج لجدير بكل ما تحملنا من قلق وخوف . وكان أدعى الأشياء إلى المبادرة هو أن نخفى آثار أقدامنا العارية على رمال الشاطىء ـ ولكننى لم البث أن أدركت أننا لن نستطيع أن نعيد الرمال المطروقة إلى مظهرها الطبيعى الأول ، وعلى النقيض من ذلك ستدل المحاولة على أنها مظهر لشعور موقر بالجرم . فلو أن صياداً بريئاً نزل إلى البر فى هذه الناحية لما خطر بباله أن يزيل آثار قدميه . لهذا فقد أوقفت رجالى عن تسوية الرمال ، وكلفتهم بأن يجمعوا بعض الحطب ، بينما نصبت أحجاراً ثلاثة على هيئة موقد بدائى كما يفعل الصيادون . وبفضل الثقاب الذى حصل عليه جبيلى تمكنت من أن أشعل ناراً كومت فوقها أعواد الحطب . فإذا ما أتت دورية للتفتيش على الساحل فى اليوم التالى ، تكفلت بقايا النيران بتفسير آثار الأقدام . ولما كانت الجمال قد ظلت على بعد أميال عدة من الساحل ، فلم يعد هناك آثار مريبة من شأنها أن تضعف الافتراض بأن ثمة صياداً قد قضى ليلته فى هذا المكان .

وكنا قد أغرقنا قاربنا حتى لا يظهر منه شىء ، فنزلنا إلى البحر وعوّمناه ، ثم ركبنا فيه ، فجعل نصفنا يجذف ، بينما انصرف نصفنا الآخر إلى تفريغ ما فيه من ماء ، حتى وصلنا « فتح الرحمن » آخر الأمر . ونشرنا القلاع ، فلما أن انبلج الفجر كنا على مسيرة ثلاثة أميال من الشاطىء .

كان جبيلى قد صمم على البقاء بالشاطئ لأن وجوده فى السفينة لم يعد ما يدعو له ، ولأنه أراد أن يصل إلى السويس فى أسرع وقت ليتقصى من أصحابه فيها عن سر مضاعفة الدوريات .

وبدلا من إن ألق مرساتى فى المضيق ، قصدت الميناء الصغير لمدينة السويس العتيقة ، وبذلك أصبحت فى نطاق المياه الجمركية . ولما أن أبصرنا ضابط الجمرك ، صعد إلى سطح السفينة وأجرى فيها تفتيشاً دقيقا سررت له كثيراً . ولم يكن فى طوق الانتظار حتى المساء كى أتوجه للقاء ستافرو ، فقد كان الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يصل إلى تفسير مقبول لكل هذه الأحداث . ووجدته فى منزله ، إذ كان قد رأى سفينتى فى الميناء فجلس يرتقب زيارتى . قال لى :

— إن لك يا صاحبى حظا لا مثيل له . ولقد قضيت ليلة موحشة لظنى أنك وقعت فى الشرك . وكنت أنفذت إليك رجلا لينبئك بالخطر ، وليصدك عن القيام برحلتك ، ولكنه وصل إلى الميناء بعد أن أبحرت . فلقد ألقى القبض على أحد الصيادين الذى وجد فى حوزته أقتا الحشيش اللتان فقدتا منك . ورغبة فى التماس النجاة لنفسه اختلق رواية طويلة عن قافلة قادمة من الشام ، فلو أنه عثر بك على الشاطىء الأسيوى لكان فى ذلك بوارك الأكيد . ومع ذلك فإن رجال الحدود إذا تنبهوا لخطر ما ، كان ذلك بمثابة إشعال النار فى الهشيم ، فتسرى الحمية فى القوة بأسرها طمعاً فى ضبط مربح . ولذلك فقد شارك خفراء الساحل الأفريقى فى هذا النشاط أيضاً ، مما جعلنى أخاف على مصيرك .

وما إن فرغ من حديثه حتى سمعنا طرقاً بالباب ، فاستحال وجه ستافرو إلى لون الورق . وأمسكنا بأنفاسنا متوقعين أن يعيد الزائر الطرق ، إلا أن الدقائق مرت دون أن يحدث شىء ، فعلمنا أنه أحد أفراد العصابة .

وفتحت زوجة أخ ستافرو الباب ، فاذا بالطارق هو جبيلى . وكانت يدا ستافرو ترتعشان قليلا وقطرات العرق تغشى جبينه . أما عيناه فكانتا علامتى استفهام . وحيانا جبيلى فى هدوئه الذى لا يفارقه لحظة .

— ماذا جرى ؟ تكلم بحق السماء .

— كل شىء على ما يرام ، إن الأمور كانت جديرة بأن تسوء كثيراً عما هى الآن .

— إذن ففى الأمر شىء ؟

— أجل . لقد رؤى القارب بالأمس ، إلا أن الحارسين لم يستطيعا التعرف إليه ، إذ قررا أنه سفينة كبيرة ، ولعلهما فعلا ذلك تبريراً لهربهما . وفى صباح اليوم توجه أحد الضباط بصحبة عشرين رجلا لمعاينة المكان الذى رؤيت فيه السفينة المزعومة .

وتوقف جبيلى عن الحديث وشرع يبحث فى جيوبه عن لفافة ليشعلها ، بينما راح ستافرو يتوسل إليه وقد حال وجهه قائلا :

— وبعد ؟ بالله أكمل ، أكمل . . .

ألقى جبيلى نظرة ساخرة من عينه المفردة ، التى بدت كأنما تضحك فى ضوء الشمعة التى كان يشعل لفافته من لهبها . وكور ستافرو قبضتيه كأنما لا يستطيع مغالبة رغبة الانهيال عليه بالكلمات . واستأنف جبيلى حديثه فى سكون فقال :

— لقد عثروا بالموقد الذى اصطنعناه . ولو أن الرماد كان باردا ، إلا أنه كان من الجلى أنه كان مشتعلا فى الليلة السابقة . ولقد أحرجت هذه الواقعة الخفيرين ، حين سئلا كيف أنهما لم يلاحظا اشتعال النار فى دورهما . وسرعان ما انهارت الرواية التى اختلقاها لتبرير هربهما الشائن . فإن هذه النار الموقدة فى العراء ، وآثار تلك الأقدام المتروكة عفواً فى الرمال ،

فضلا عن عدم وجود أى اثر للجمال — كل أولئك يدل على أن زوار الليل لم يكونوا سوى حفنة من الصيادين نزلوا إلى البر طلبا للدفء ، ولطهى ما معهم من طعام ، ريثما يحين الحين لجمع شباكهم الملقاة فى البحر . ولقد استبد الغيظ بالضابط فأمر بحبس الخفيرين أسبوعاً ، ليكون ذلك درساً لهما على هربهما من بضعة صيادين عزل من السلاح .

وفيما كان جبيلى يقص روايته ، أخذ اللون يعود إلى وجه ستافرو ، وكأنما قد منح الحياة من جديد . وبدت صورة المحارب القديم المعلقة فوق الجدار كأنما تنظر فى رثاء لهذا الابن الضخم الذى يخفى بين جنبيه قلب فأر مذعور . والنار تولد الرماد حسبما يقول العرب ، فسرعان ما عادت الطمأنينة إلى نفس ستافرو ، فخلع على نفسه هيئة الرجل المهيب مرة أخرى واستعادت عيناه نظرة النسر الكاسر . وصحبنى إلى الباب وهو يفرك يديه جذلا ، بعد أن اتفقنا على اللقاء بالقاهرة فى اليوم التالى ، حيث أتسلم بقية نقودى إذا سارت الأمور على ما نشتهى .

الفصل التاسع والعشرون

اليهـــود

أصبحت الآن هادىء البال بحيث يسعنى ترك سفينتى دون أن تعاودنى الأوهام والمخاوف . ولذلك فقد قصـدت فى مساء ذلك اليوم إلى الاسكندرية لزيارة صديق جاك شوشانا ، ولكى أبيعه ما تبقى لدى من لآلىء إن راقه ذلك . وكان قد أعطانى عنوان أخيه حين قابلته آخر مرة فى مصوع .

وحين وصلت إلى الاسكندرية ركبت إحدى تلك العربات القديمة التى يجرها حصان مفرد ، وقصدت ذلك العنوان ، فإذا به حانوت جواهر أنيق ، يقع فى شارع سيزوستريس ، وفى حى من أبهى أحياء المدينة . واستقبلت استقبالا وديا على طريقة اليهود ، فقد كان جاك قد تحدث بشأنى ، وسرعان ما صاروا يدعوننى « بالمسيو هنرى » ويعاملوننى كما لو كنت صـديقاً قديما لهم .

— أجل إن جاك موجود بالاسكندرية ، فقد وصل من مصوع منذ عشرة أيام ، وسوف يحضر عما قريب ، فإن الساعة لا تزال التاسعة . وهو وقت مبكر بالنسبة له . أتراك أحضرت معك بعض اللآلىء ؟

إن هؤلاء اليهود لا يضيعون وقتاً طويلا للوصـول إلى أغراضهم . وعرضت عليهم ما تبقى لدى ، فنظروا إليه باستخفاف ، وبدأوا يساوموننى بطريقة ودية كما هو جدير بصديق قديم . وقلت لهم :

— لست مشوقاً لبيع هاته اللآلىء ، وإنما أعرضها عليكم لأعرف رأيكم فيها ليس غير .

— أنت مخطىء ياصديق ، بشرفى أنت مخطىء . انظر إلى ما جلبه معه جاك من مصوغ .

وفتح خزانة وأخرج منها لآلىء بهية فاتنة ، بدت بضاعتى إلى جوارها تافهة مسكينة .

واستأنف شقيق جاك حديثه قائلا :

— كم تظنه دفع ثمناً لهذه اللآلىء ؟ .

ثم ذكر ثمناً تافهاً إلى حد مضحك ، فانهارت روحى المعنوية تماماً .

وبعد فترة من الصمت عاد يقول :

— إن أثمان اللآلىء فى انخفاض مستمر ، لأن الطلب الآن مقصور على الماس . أنظر . إن لدى هنا حجراً بديعاً حصلت عليه بثمن رخيص ، إذ كان مودعا لدى رهنا لقرض . من الأجدر بك أن تأخذه فى نظير لآلئك ، وتكون بذلك الكاسب من غير شك .

وشعرت بشعور قطعة من العظم قد غشاها النمل ، وبأن هذا اليهودى لا بد مجردى من آخر نتفة من اللحم . ولحسن حظى وصل جاك فى هذه الآونة ، حيث قد ذهب رسول لينبئه بحضورى ، فما كان منه إلا أن غادر فراشه للتو إظهاراً لمنزلتى عنده . ولقد سررت لرؤيته كثيراً ، فقد كان رجلا صريحاً ، مخلصاً ، وأمينا . وسرعان مابدأ يستعيد ذكرى أيامنا الخوالى حين كنت لا أزال فى بدء عهدى بصيد اللآلىء . ولم يكن فى وسعى أن أكذب عليه . فذكرت له صراحة سبب مجيئى إلى مصر . وبدا عليه ذعر بالغ ، حتى كادت عيناه تخرجان من محجريهما . وصرخ يقول :

— أربعمائة أقة ؟ ولكن هذا مقدار ضخم يا صاحبى . . . وبأى سعر بعت الأقة منه يا ترى ؟ .

— ثلاثة جنيهات .

— أحقاً تقول ! إذن فقد سرقت . إن أقة الحشيش يبلغ ثمنها فى الحالة الحاضرة ثلاثين جنيهاً . آه لو كنت قصدتنى ! لا بد أنك وقعت فى أيد ماكرة أثيمة .

وشرحت له أن الصفقة التى عقدتها كانت على أساس عدم تحملى مخاطر التهريب داخل القطر . إلا أنه صاح يقول :

— ولكن ليس هناك ياصاحبى مخاطر ألبتة ، أو على الأقل بالنسبة لغير المشكوك فى أمرهم ، ولأولئك الذين يمتهنون حرفاً معروفة مثلى . إن سمعتى لا غبار عليها فى هذه الأوساط .

— ولكنك يا جاك لم تكن لتجسر على إتيان مثل هذا العمل .

— أنت لا تعرفنى ، لقد أبدو لك ناعماً رخواً ، وأنت دائماً يحلو لك السخرية من أربطة عنقى وعطورى . ولكننى أؤكد لك أننى أمتلك هذه الجسارة . أجل ، أجل . لا تضحك . إننى أمتلك هذه الجسارة

فأجبته مبتسما :

— إننى واثق من أنك تمتلكها . ولكن هل سبق لك أن مارست تهريب الحشيش إلى مصر ؟ .

— كلا على الإطلاق . ولكنه شىء ليس أسهل منه . إننى أستطيع أن أذهب بحقيبتى إلى أى مكان دون أن يعترضنى معترض أو يسألنى عما تحويه .

— أجل ولكن — ما قولك فى الجمارك ؟

— إنك فى السويس تستطيع بسهولة أن ترسو خارج نطاق الجمارك . هناك تجدنى فى انتظارك ومعى حقيبتى . تصور أنك كنت ستبيع أقتك بثلاثين جنيها فى ذلك الحين ! هذه هى الصفقة حقاً .

تملكتنى دهشة بالغة وأنا أستمع لهذا اليهودى المرفه ، يحدثنى بميله إلى المخاطر واقتحام الصعاب . ولكنه على التحقيق لم يكن يدرك ما تنطوى

عليـه مخاطرة التهريب من مآزق لا تخطر له ببال . وخيل إلى انه يتصور نفسه فى صورة بطل من أبطال السينما المغاوير ، فابتسمت لهـذا الخاطر .

ومع ذلك فقد كنت أعلم أننى كثيراً ما استعنت بهذا التصور عينه ، حين أحتاج إلى إثارة شجاعتى المتهافتة . فالمرء أقدر على مواجهة الخطر إذا تخيل أن ثمة جمهوراً من النظارة تتعلق أنفاسهم بكل حركة يأتيها . إنها قصة سانـكوبانزا ودون كيشوت التى لاتبليها الأيام . لهذا لم يكن من حق أن أسخر من هذا اليهودى الطيب .

وواصل جاك حديثه قائلا :

— كل امرىء فى مصر يحـلم بجمع المال عن طريق تهريب الحشيش .

— أجل ، ولـكن شتان مابين الحـلم والحقيقة ، فثمة هوة خطرة تفصل بينهما .

واستمعت إليه فى انبساط وهو يشرح لى آراءه عن طريقـة تهريب الحشيش . يا له من ساذج ! ولـكن لماذا أسلبه أخيلته الخرافية مادامت لاتضر أحداً ؟ وطفق يتكلم إلى أن اقترحت عليه أن نخرج فى جولة قصيرة ، فسألنى قائلا :

— وإلى أين تريد الذهاب ؟

— قبل كل شىء يجب أن ابتاع بعض الملابس ، فإننى أشعر كما لو كنت شحاذاً وأنا فى حلتى الـكاكية هذه .

— إننى أعرف المكان الذى يلزمك . لنذهب إلى أخى أبراهام فإن لديه حانوتا لبيع الملابس الجاهزة .

قصدنا حانوت أخيه ، فاذا به من الطراز عينه ، وإن كان أكبر سنا وأكثر شحوبا لطول إقامته فى عتمة الحانوت . ولما سألته طلبتى صرح بأنه لايستطيع تلبيتها فى هـذا الدكان ، فهو لا يعرض فيه إلا الأصناف

الرخيصة التى يضطر (واحسرتاه !) إلى بيعها بخسارة فى كثير من الأحيان .

وزفر زفرة حارة ، ثم أضاف قائلا :

— تعال معى فسآتيك بما تريد حالا .

ووضع قبعته على رأسه وسار بنا خلال حى من أحياء اليهود الأصيلة .

وعرجنا على حانوته الآخر الذى يبيع فيه الملابس المستعملة ، فبرز لنا ، من بين أكوام الحلل والمعاطف ، يهودى مقوس الظهر ، بارد الأطراف ، فأسر إليه أبراهام ببضع كلمات ثم واصلنا السير .

وأخيرا بلغنا مقصدنا ، وهو حانوت ثالث يمتلكه أبراهام ، يقع فى حى لايقطنه غير اليهود ، كل شارع من شوارعه يغص بهم ، وكل فرد منهم يعرف أبراهام حق المعرفة . وكان علينا خلال الطريق أن ندخل حوانيت عدة ، وأن نصافح من فيها ، ونسألهم عن أخبارهم العائلية ، ولامانع أن نتناول قدحا من القهوة ، وهكذا دواليك . ولما كان جاك يخاطبنى باسمى دون كلفة ، وأبراهام يعاملنى كأننى صديق قديم ، فقد ظن الجميع أننى يهودى مثلهم ، مما اتاح لى أن أرى هؤلاء اليهود التافهين من أصحاب الحوانيت ، على طبيعتهم الحقة . ومع ذلك فقد كنت دائما أشعر بميل ورثاء نحو هذا الجنس المضطهد منذ الأزل ، الطيع المتواضع ، الذى ينسب إليه الجبن لأنه فى غالب الأحيان يملك من الشجاعة ما يتيح له أن يظهر بمظهر الخوف .

ولقد مكنتنى مخالطتهم فى ذلك اليوم من ان أدرك أن مظهرهم المتواضع كثيراً ما يخفى جلداً ومثابرة ، ووحشية لا تكاد تصـدق ، إذا ما تعلق الأمر بالنقود .

إن المرابى قد يحيك حبائله بصـبر بالغ حتى يلحق الخراب بمدينه ، وحينئذ يضرب ضربته القاصمة . ولقد ينتزع الجواهر من فوق جثة هامدة

ليقتضى لنفسه دينا لم يسدد . ولقد يسرق اليتامى إذا استطاع ذلك بطريقة قانونية . وهو يأتى هـذه الأفعال بهدوء وتبلد ، كما لو كانت أفعالا آلية معتادة .

ومع ذلك فإن هذا اليهودى عينه قد يرهق نفسه بالعمل حتى الموت ، فى سبيل تعليم أطفاله وتنشئتهم . ولقد يمتهن أوضع الحرف لـكى يعول والديه ، أو حتى أقاربه الأبعدين ، وهو دائماً سريع إلى مد يد العون إلى زميـل يهودى فى ضيق . إن فيهم لتكمن صوفية عريقة كعراقة أصلهم ، ثابتـة ثبوت الزمن . وإذا اتفق مرة أن انحرفت طبيعتهم التجارية العنيفة عن مجراها العادى . حينئذ تظهر هذه الصوفية للعيان ، وتأتى بالعجب العجاب . إن هذا التواضع اليهودى المعروف ، وذلك الصـبر العجيب على مكاره الاضطهاد ، يبدوان كأنهما وسيلة لادخار عبقرية جنسهم ، حتى يمكن وضعها تحت تصرف أفذاذهم العظام ، من أنبياء وعلماء ومصلحين .

الفصل الثلاثون

كيف يكتب التاريخ

جاء جاك إلى المحطة ليودعنى . فتكلمنا عن « مصوع » . وتطرق بنا الحديث مرة أخرى إلى ذكرياتنا المشتركة هناك .

وتنهد جاك قائلا :

— آه . . . ليست السنون الآن كما عهدناها من قبل . فقد أضعت هباء شهرين كاملين فى مصوع ، قضيتهما كأنى سجين . ولم أستطع أن أذهب إلى جزر « داهلك » كما كنت أفعل من قبل ، وذلك لعدم استطاعتى الحصول على الترخيص اللازم ، فانتهز السماسرة العرب تلك الفرصة ، وذهبوا فعقدوا — تحت أنفى — صفقات بديعة يسيل لها اللعاب .

— ولـكن لم لم تستطع الحصول على ترخيص مع أنك لم تجد فى السنين الماضية متاعب قط ، وكان الحاكم يظهر الود دائماً نحو الأجانب ؟

— إنها لم تكن غلطة الحاكم ياصديقى . وقد ابدى كثيراً من الأسف لعدم استطاعته أن يفعل شيئاً ما حيال نظام عسكرى وضع حديثاً . إذ يبدو أنه كانت هناك محاولة من الأتراك لغزو إريتريا عند نقطة على الساحل تسمى « تاكالى » ، تقع إلى الشمال قليلا من ميناء مصوع ، فاتخذت المستعمرة كلها أهبتها للحرب . وأرسلت للفور طرادتان من إيطاليا ، كما وضعت فصيلة من المدفعية عند « تاكالى » ، بعد ما تبين لهم أنها النقطة الضعيفة أمام أى هجوم محتمل .

— أتقول تاكالى ؟ ومتى حدثت هذه الغزوة المزعومة ؟

— منذ أكثر قليلا من شهر . على أنه بفضل البسالة التى أبداها الجنود الوطنيون باءت الحملة بالفشل ، وكاد « أونباشى » أن ينجح فى القبض على قائد تركى متنكر لعله كان سعيد باشا بالذات ، على أنه انفلت فى آخر لحظه تاركا نعلا اكتشف رجال البوليس السرى أنه من نفس النوع الذى يلبسه سعيد باشا ، ومن نفس المقاس . ولو نجحت تلك المحاولة لأخذت مصوع على غرة . وأحيط بها من كل جانب ، بعد قطع المواصلات بينها وبين الجبهات الأخرى .

وحاولت أن أكتم عندئذ ضحكة عالية وصحت فيه :

— كفى . . كفى يا صديقى جاك . . لقد كنتُ سعيد باشا الذى تتكلم عنه ، وهذا النعل الشهير ليس إلا نعلى . أما عن عمارة الغزو التركية فلم تكن إلا سفينتى « فتح الرحمن » .

وحدق فى جاك بعينين زائغتين . واستطعت أن أرى أنه يظن أن قد نزلت بى نازلة من الجنون . ولم أجد إلا أن أشرح له كل شىء بالتفصيل حتى يكون على بينه من هذا الحادث وملابساته التى سبق أن عرفها القارىء . وأضفت إلى ذلك قولى :

— ومع ذلك فقد أرسلت من القصير خطاباً إلى محافظ « أسمره » أحيطه علماً بتلك الظروف . وكيف أنى لم أطع أوامر ذلك العسكرى الوقح لأنه لم يكن يرتدى حلته العسكرية . وأنه ليدهشنى حقاً ألا يكون هذا التفسير قد وضع الأمور فى نصابها . وأوضح لأولى الأمر ما كان غامضا .

— لعل خطابك وصل بعد أن بارحت المكان فلم أعلم عنه شيئاً . على أنك لم تكن على صواب عند ما حررت هذا الكتاب ، لأن المسألة أضحت خطيرة ، وقد تناولتها الصحف بكثير من التعليق . لذلك فإنى أنصحك

بألا تمر فى عودتك على مصوع ، بعد أن أوقعت فيها الهلع والجزع . وأعتقد أن الإيطاليين قد يظهرون شيئاً من التسامح واللين قبل معتد على مستعمرة من مستعمراتهم ، أكثر مما يبدونه نحو امرىء هزأ بهم وأظهر أنهم إنما كانوا يطعنون الهواء .

— على النقيض . سأذهب إلى مصوع لأنى لم أفعل شيئاً يستوجب الخوف . فإذا كان الطليان هم الذين وضعوا أنفسهم فى هذا الموقف الهازل فليست تلك جريرتى . ثم إن ما تذهب إليه إنما هو افتراض يغلب عليه تشاؤم لا مبرر له على الإطلاق ، لأنى أعرف أن أولى الأمر فى مصوع على جانب كبير من الود نحو الأجانب . لا . . ليس هناك ما يدعونى البتة لأن أتجنب هذا المكان وخاصة بعد ذلك الخطاب الذى أرسلته لهم .

— إنك لمأفون . وإنى لواثق من أنهم سيجعلونك تدفع ثمن المهزلة التى وضعتهم فيها . وليس ببعيد أنهم سيرمونك بالرصاص ليعلموك كيف تهزأ بحكومتهم وتجعلها أضحوكة للعالم أجمع .

— لا ياجاك . أنت تسمح لخيالك أن يشتط . فإنهم لو فعلوا ما تقول لما قلل هذا من السخرية التى تحيق بهم ، وأحسب أنهم سيسألوننى ألا أذيع هذا السر ، بل إنى لواثق من أن خطابى هذا اصبح فى سر مكين .

وتركت جاك مضطرباً ، مقهوراً . وودعنى وعيناه تطفران بالعبرات ، أسى على صديق لن يراه . . .

الفصل الحادى والثلاثون

زوج من الأوغاد

وصلت القاهرة فى منتصف الليل فلم أجد جورجيس فى انتظارى كما قدرت ، إلا أننى لم أعلق على ذلك أهمية مادمت أعرف عنوانه . وتوجهت إلى خارج المحطة ، فلم أكد أسلم تذكرتى إلى عامل الرصيف ، حتى رأيت شابا يتقدم نحوى ويضع يده فوق كتفى . وكان مظهره وحركاته يدلان على أنه من رجال البوليس السرى . ولعله قرأ هذا الخاطر فى عينى فابتسم لى قائلا :

— جئت للقائك فى قطار الساعة السابعة ، فقد كانوا ينتظرونك على العشاء .

طمأنتنى هذه الكلمات نوعا ما ، إلا أننى بقيت ملتزماً جانب الحذر . وحتى اظهر لهذا الشاب مبلغ حيطتى فقد سألته قائلا :

— ولكن من أنت ؟ إنه لم يسبق لى شرف التعرف بك

فأجابنى وهو لا يزال يبتسم :

— أننى أحد أعوان جورجيس . ولما لم يكن فى وسعه أن يحضر للقائك فقد كلفنى بأن أصطحبك إلى فندقك . لقد وصل ستافرو ظهراً ، كما جاءتنا أنباء من عمر بأن كل شىء يسير على ما يرام . ولأنه ليس من الحكمة أن تتوجه رأساً إلى منزل جورجيس . فقد كلفت بأن أحضر لمقابلتك .

ظهر لى من كلام هذا الشاب أنه يعرف كل شىء عن أعمالى ، فسرعان

ما تلاشت ريبتى . وتناول حقيبتى بلطف وأخبرنى بأنه يعرفنى من قبل ، حيث سبق له أن رآنى فى حانوت جورجيس حين دخلته للمرة الأولى . كان فى حوالى السادسة والعشرين من العمر ، يرتدى ملابس عادية لا شذوذ فيها ، بحيث كان من الواضح أنه يحاول وسعه ألا يكون لافتاً للأنظار ، حتى إذا ما اندس فى جمع من الجموع لم يثر وجوده انتباه أحد .

وهذا ما جعلنى أظن أنه ينتمى إلى البوليس ، فإن هذا الطراز من الناس الذى يتلاشى فى الجموع ، تبدو عليه مسحة عجيبة إذا ما نظر إليه منفرداً ، بعيداً عن محيطه المألوف . وهذه المسحة هى التى تسلكه فى عداد ذلك النفر من المستخدمين الذين يدعون « مخبرين » . وكان وجه هذا الفتى أيضاً من الوجوه غير الملحوظة التى سرعان ما تنسى . إنه وجه قد جمع المألوف من سمات حشد بأكمله . وكان يتكلم سائر اللغات الأوروبية والشرقية ، ويعرف كافة مخبرى القاهرة وبور سعيد والاسكندرية ، ولقد دلنى على بعضهم فى أثناء سيرنا . ووجدت فى انتظارى نفس العربة ذات الحوذى الصامت التى سبق أن ركبتها ، فقادتنى إلى عين الفندق الذى سبق أن نزلت فيه . وحيانى صاحب الفندق تحية من يعرف أمرى ، وأخبرنى أن ستافرو نائم فى حجرته المعتادة . ولم يكن فى حاجة إلى إشعارى بذلك ، فقد سمعت غطيطه منبعثاً من تحت عقب الباب .

وفى اليوم التالى جاءنا الشاب الذى استقبلنى فى المحطة ، واصطحبنا إلى حانوت معدات دفن الموتى ، حيث كان جورجيس جالساً وراء مكتب . كان يبدو شاحباً قلقاً ، ووجهه متوتر العضلات كأنما قضى ليلة ساهدة . سألته قائلا :

— سمعت أن الأمور سائرة على ما نشتهى ، أليس كذلك ؟

فأجابنى بالإيطالية قائلا :

— ربنا كبير ، هذا ما أرجوه . ولكننى أنتظر عمر منذ ساعة ، فقد كان عليه أن يأتى ليؤيد هذه الأنباء ، إلا أنه تأخر كثيرا عن موعده . لقد حضر إلى مساء أمس ليخبرنى بما يساور نفسه من شكوك ، نظراً لما يبديه الشرطة من نشاط غير عادى حسبما سمع من ميخائيل .

وكان ميخائيل هو الشاب الذى حسبته مخبراً فى الليلة الماضية . وتلفت فوجدته قد غادرنا فى سكون ، وانشغل بتنظيف زجاج شرفات المحل . وبعد هنيهة حضر صبى يرتدى جلباباً طويلا ، فوضع أمامنا فناجين من القهوة التركية على أحد النعوش الذى كان معروضاً فى مدخل المحل . ولم أكن قد تعودت بعد على هذا النوع من الأثاث الفذ .

ولكن سرعان ما صاح جورجيس معترضاً :

— لا ، لا ، لا . ليس هنا ، أرجوك . إنك تفسد النعش . أحضر هذه المائدة وضع عليها الفناجين .

وفيما كان الصبى ينفذ الأمر ، توجه جورجيس إلى نعش آخر ففتحه دون احتفال ، وأخرج من جوفه صينية عليها كمية كبيرة من « الكافيار » ، ولفائف من الزبد الطازج ، وخبز وليمون . وحين ظهرت هذه الصينية للعيان نهض قط رومى كان راقداً على حافة النافذة ، فأخذ يموء وقد قوس ظهره ، ثم قفز إلى الأرض بخفة . وسار وهو يقرقر حتى بلغ صاحبه ، فراح يتمسح فى أرجله . وضحك جورجيس ثم قال وهو يمسح ظهر القط :

— هيه هيه ، أيها اللص . هذا ما كنت تنتظره . فلو لم أضع الصينية حيث لا تستطيع الوصول إليها ، لكنت سبقتنى إلى الغداء كما فعلت بالأمس .

ثم أشار إلى وقال :

— هيا أيها القبطان . كنت أنتظر قدومك لتتذوق هذا « الكافيار » الذى وصل بالأمس من بحر أزوف . أنه نوع ممتاز من « الكافيار » الطازج ، يأتينى به ربان روسى مرة فى كل شهر .

لم أكن فى حاجة إلى دعوة أخرى لكى أتذوق هذه اللطائف . وغرف لى جورجيس كمية ضخمة منه كما لو كان يغرف ثريداً ، ونصحنى بأن آكله بالملعقة وبغير خبز . وقال لى إنه يشعر بالرثاء إذ يرى الناس يأكلون الكافيار فى شطائر صغيرة يضعون فيها كميات تافهة . وهو لا يأكل عادة أقل من رطل دفعة واحدة حتى يستطعمه حقاً ويشبع شهيته بمذاقه ، فضلا عما فى ذلك من إشعار بالثراء يأخذ بالألباب . وبدت على شفتيه ابتسامة سرور حين رآنى مأخوذاً بهذا الأسراف المعدى ، ولكن سرعان ما تجهم وجهه حين أبصر ستافرو مقبلا . وكان ستافرو قد تركنى عند باب الفندق ، وذهب ليتقصى الأنباء . ولما أن اقترب منا لاحظت فى هيئته ما يوحى بالفجيعة ، وحين دعاه جورجيس لينضم إلينا أجابه بصوت أجوف قائلا :

— شكراً لك ، إننى لست خلى البال مثلك حتى أفكر فى الطعام

ثم ألقى قبعته بحركة متعبة على أحد النعوش ، وأصدر زفرة عميقة . ونظرت إلى جورجيس فإذا باللقمة قد وقفت فى حلقه ، وتقلصت عضلات وجهه ، واستحال لونه إلى اخضرار قاتم ، وفى ثوان قليلة تقدم به العمر عشر سنوات . أما ستافرو فقد ألقى بجسمه الضخم على أحد المقاعد ، وراح يقول إن ثمة أمراً قد صدر بمنع أية سفينة من مغادرة ميناء السويس ، لعلة لم يعرفها أحد بعد ، ومن يدرى فربما كان عمر ملقى الآن فى أحد السجون . ومن يدرى ما يجرى به لسانه إذا وقع تحت أيدى محقق ماهر .

ولما أن انتهى من حديثه رأيته ينفذ إلى نظرة خفية ، أشفعها بغمزة لا تكاد تلحظ . واستمر ميخائيل فى عمله ينظف الزجاج ، وبدا على وجهه كأنما يغالب الضحك . فأدركت أن ستافرو إنما يعابث جورجيس معابثة ثقيلة نوعا . وكان من الجلى أنه يشعر بلذة آثمة إذ يثير الخوف فى صدر شريكه الغنى ، وأنه يريد أن يظهر لى أى جبان هو حين يلوح شبح الخطر . ولعله أراد أيضاً أن ينسينى أنه هو الآخر قد بدا منه فى اليوم السابق نفس ما بدا من جورجيس الساعة ، حين توقف جبيلى عن الحديث ليشعل لفافته من الشمعة المضيئة أمام الأيقونة .

فى خلال العشرين عاما التى قضاها هذان الرجلان فى العمل سويا ، لم ينقطع أحدهما عن التفكه بزميله على هذا النحو . وفى كل مرة يقع أحدهما فى الشرك ، تتاح الفرصة للآخر كى يوهم نفسه بفرط شجاعته وتفوقه ، وكان وجودى فى هذه المرة مما زاد فى استمتاع ستافرو بمحنة ضحيته .

وفيما كانت تمثل هذه الملهاة ، إذا بشبح طويل يعبر عتبة المحل . وكان عمر . وتوقف قليلا فأشار إلى ندل يشتغل فى مقهى مجاور ، وطلب منه أن يحضر إليه نارجيلته ، ثم تقدم نحونا فى عباءته السوداء ، مبتسما ، هادئا ، مهيباً كمألوف عادته . ووضع مسبحته المرجانية فى منطقته الحريرية ، ثم سلم وجلس ، وما لبث أن مد يده الجميلة التكوين ، فتناول مبسم نارجيلته المحببة . ولما أن فرغ من معالجتها وإشعال دخانها ، ألقى سمعه إلى الأسئلة الولهى التى دهمه بها جورجيس . وبدون أن تفارقه ابتسامة شفتيه ، أكد لستافرو أن وساوسه تدهشه كثيراً ، فلقد جاء فى خلال الليل أعرابى أخبره بأن القافلة وصلت سالمة إلى مقصدها . حقيقة وصلت إشارة إلى الشرطة بمضاعفة اليقظة ، ولكنها لم يكن لها أى شأن بالحشيش .

تنهد جورجيس وجفف العرق الناشع بجبينه ، وما لبث أن استعاد زمام

نفسه ، فألقى نظرة ساخرة على ستافرو الرعديد ، الذى ثبت بصره بالأرض فى مسكنة وتواضع ، كمن غشاه الاضطراب ودهمته الحيرة ، ولكنه كان يخفى ابتسامة تحت شاربه الكث .

كان الحساب قد أعد من قبل ، فسلمنى جورجيس رزمة سميكة من أوراق النقد ، جلست إلى مكتبه أعدها .

الآن أنجزنا العمل ، وصارت المغامرة إلى نجاح .

وحان الحين كى أفكر فى العودة إلى بيتى وعائلتى ، فصممت أن أصرف ما بقى لى من وقت فى ابتياع بعض أشياء ضرورية . ولما علم جورجيس بنيتى أعارنى تابعه الأمين ميخائيل دليلا لى . وكان هذا الفتى يتكلم الفرنسية بطلاقة ، وسرعان ما تآلفنا فانعقدت بيننا أواصر صداقة عابرة . قال لى ضاحكا ونحن فى الطريق :

— هل لاحظت كيف يمضى هذان الوغدان وقتهما فى إخافة أحدهما الآخر . هذا حالهما على الدوام . ولولا وجودى فما يعلم إلا الله أية أضحكوتين يجعلان من أنفسهما ، وفى قلوبهما هذا الخوف النسوى من أى شبح يلوح .

وسألته قائلا :

— هل عرفت جورجيس منذ أمد طويل ؟

— أنه هو الذى ربانى إلى حد ما ، والآن يستغل هذه الواقعة لاستعبادى . كم تظنه يعطينى ؟ عشرة جنيهات فى كل شهر ، فضلا عن منحة صغيرة لا تتجاوز أربعين أو خمسين جنيهاً كلما أتم صفقة تعود عليه بعشرة آلاف .

— وما يبقيك معه ؟

— إننى لا أدرى إلى أين أتوجه ، وأنا لا أعرف صناعة غير هذه . كل ما علمنيه جورجيس هو أن أخدم أغراضه فحسب ، ولم يكن عندى

وقت قط لأفكر فى أمر نفسى. فضلا عن ذلك فإننى أعول أمى وأختى، وليس فى وسعى ان أعرضهما لخطر العوز إن لم أوفق لعمل آخر. ومع ذلك فإن جورجيس ليس بالرجل الشرير، فهو عادل فى قرارة نفسه. ولا تنس شخصيته الحازمة الآمرة، فكلما افتر ثغرى عن شكاية أخمدها بنظرة عين. إنه خبير فى أن يجعل من الرجال عبيداً.

كان شاباً عجيباً هذا المجرى الصغير! إنه ذكى نشيط، يحظى بمواهب ممتازة شأن الكثير من العبيد، ولكنه بغير إرادة، تربطه بسيده عواطف معقدة، يدخل فيها الخوف، والامتنان، وشىء من الحب، فضلا عما يخالجه من أسى عميق على حياته الضائعة. هذا الخليط الفذ من الأحاسيس كان يسفر آخر الأمر عن إخلاص أعمى.

ها هنا تكمن قوة جورجيس العظيمة. فهذا البحار القديم الذى لم ينل من العلم شيئاً يذكر، كانت له هذه الموهبة النادرة التى تربط الناس بخدمته. هم ينتقدونه، ويتميزون أخطاءه، ويعانون من أنانيته — ولكن ثمة جاذبية خفية تدفعهم إلى حبه دون أن يعرفوا السبب. كان هذا شعور ستافرو نحوه، ولست ادرى إن لم يكن شعورى أيضاً.

الفصل الثانى والثلاثون

المخدر العجيب

أردت أن ألعب دور السائح بأمانة، فذهبت لمشاهدة الأهرام. وكم كانت خيبة أملى فيها! إن عظمة الصحراء فى اعتبارى لتفوقها أضعافاً. أما الشىء الوحيد الذى يستطيع المرء أن يعجب به فهو ذلك المجهود البشرى الضخم الذى تطلبه بناءها، وهو إعجاب يحتاج إلى عقلية سائح ألمانى. إن اصغر تل يعلو فى صمت الصحراء، لأكثر رهبة من تلك الكتل الهندسية الشكل، تحيط بها المقاهى وأكواخ المصورين، وتسير فى دروبها قوافل هزلية تحمل قساوسة فى مسوحهم السود، وعانسات إنجليزيات ذوات عوينات. أما أبو الهول فخاله يثير الشفقة. أنف فى الهواء، وفم واسع مفتوح، فكأنما ينصت إلى هدير الأدلاء الجهلاء. وكان هناك أستاذ ألمانى من جامعة مجهولة فى الشمال يحرر بطاقات لتلامذته فوق مخالب الوحش، بينما انصرفت أسرته إلى فتح علب السردين، وهى تحلم بالأربعين قرنا التى تنظر إليها.

هربت مشمئزاً من هذا الجو المقيت، وكأنما كنت مشتركا فى عمل من أعمال الكفر بنعم الله[1]. شعرت فجأة بحنين جامح للصحراء الحقة التى أعرفها واشتقت العودة إلى ظهر مركبى، جائلا فوق تلك المساحة الضيقة

(١) يفوت المسيو دى مونفريد أن الفراعنة بناة الأهرام، ليسوا من جلب عانسات الإنجليز فوضعوهن على ظهور قوافل هزلية، ولاهم الذين أقاموا المقاهى وأكواخ المصورين، كما أنه ليس لهم شأن قط بالأساتذة الألمان وعلب السردين.
« المترجم »

من الألواح الخشبية التى تلهبها أشعة الشمس حيناً ، وتغمرها أمواج البحر حينا آخر ، ولكنها عندى كبساط الريح الذى تحكى عنه أساطير ألف ليلة ، والذى رفعنى إلى عوالم ساحرة لا تبلوها السنون ، حيث ذقت لذة الشعور بأن الزمن والموت إسمان بغير مسمى . هذه الألواح هى عندي رمز للبحر ، وللريح ، ولرمال الصحراء العذراء ، وللبعد السحيق للسماوات التى تدور فيها جحافل من الأفلاك . هناك ليس من يحول بينى وبين كل هذه العوالم ، وليس من شىء ينقص عظمتها أو يعكر صفو حلمى الذى يحيلنى واحداً منها ، يفهمها ويفنى فيها .

بعقل ملىء بمثل هذه التصورات ، استقللت القطار الذاهب إلى السويس . كان مليئاً بدخان الطباق ، تضيئه مصابيح شاحبة ، ويعج بأناس لا أعرفهم ، لهم وجوه كالحة ، يقرءون الجرائد أو يلعبون الورق ، يتناقشون فى أسعار الحاجيات أو يستسلمون لنومة غبية ، وقد فتحوا أفواههم على مصاريعها . وفضلت أن ألوذ بالطرقة ، وأن ألقى برأسى فى ظلام الليل .

كانت أصوات الحشرات والهوام تعلو من الرمال الساخنة إلى الجو الساكن الشرود ، إلا أن اندفاع القطار المنطلق أفسد روعة هذا الليل الشرقى ، بما يثيره من رياح صاخبة كانت تصفر فى أذنى .

وأخيراً وصلت إلى السويس . وبعد دقائق قليلة كنت أنعم بالنظر إلى مركبى وقد استسلمت للنعاس على صدر الماء . وأجاب أحد رجالى ندائى وسرعان ما رأيت القارب آتيا ليأخذنى . ولقد بذلت مجهوداً ضخما حتى أنتزع نفسى من فراشى فى اليوم التالى ، ثم ذهبت إلى القنصل الذى أعلمنى بأن الإنجليز لا يرون إعطائى الترخيص باستخراج القواقع ، وإن الأمر على أى حال يستدعى بعض البحث والتقصى . حسن جداً ، فما أنا بشديد التحسر على منعى من صيد القواقع . وفى الساعة السادسة مساء كنت قد جهزت

عدة الرحيل . فلقد زرت مودعا كلا من القنصل وسبيرو ووكيل المساجيرى ماريتيم ، كما كانت أوراق الأذن بالرحيل مستوفاة فى جيبى .

ومع ذلك فقد كان لا يزال على أن أقوم بواجب الوداع نحو ستافرو . واضطررت إلى قبول دعوته لتناول العشاء فى تلك الحجرة حيث القارب والأيقونة ، وبندقية المحارب القديم . ولم يكن ثمة ما يدعو الآن إلى مقاومة إغراء النبيذ اليونانى ، الذى أضفى ما أشاعه من دفء روحا من المودة على هذا اللقاء الأخير .

وسألنى ستافرو قائلا :

— متى تعود ؟ هذا هو السؤال المهم .

— هذا لا يزال فى علم الغيب ، خصوصاً بعد أن أخبرنى جورجيس بأن الحكومة اليونانية الجديدة قررت منع زراعة الحشيش .

— أجل ، أعلم ذلك ، ومن المرجح أن يوضع هذا القرار موضع التنفيذ ، ما دام الإنجليز هم الذين اوصوا به ، مع أنه سيلحق الخراب بعدد عظيم من المزارعين ، بالرغم من التعويضات التى ستمنحها لهم الحكومة . ومن المؤكد أن هذا القانون ليس من بنات أفكار الحكومة اليونانية التى ستدفع هذه التعويضات . فهى شديدة الفقر من ناحية ، فضلا عن أنها ككل الحكومات ، لا تحب أن تفتح بابا للانفاق لا موجب له . لذلك لا شك عندى فى أن الإنجليز هم الذين سيتحملون هذه النفقة .

— يالها من من مسلاة ساخرة ! فالإنجليز إن كانوا يبذرون الدراخمات فى اليونان ، فإنما ليجنوا جنيهات أسترلينية فى مكان آخر . إذ لا بد أن سيعود عليهم نفع ما من جراء منع بلدكم من إنتاج الحشيش ، أما الاعتذار بالدوافع الأخلاقية فليس سوى الحجة التقليدية المتواترة ، وهى حجة عظيمة النفع لأنها لا تدحض . غير أن هذه المبادىء السامية لم تمنع الإنجليز

من وضع خطة محكمة لتسميم شعب عريق ، هو شعب الهنود الحمر ، فقدموا له الخمر ليسلبوه بلاده . وهؤلاء القساوسة الذين يملأون أمريكا صياحا وخطباً بقصد تحريم بيع الخمور ، هم أنفسهم الذين يعطرون أهالى المستعمرات بسيل من المياه الحمراء ، وإن كانوا يقرنونها حقيقة بالأناجيل والمواعظ . فهم يقتلون أبدانهم باسم الدولة العظمى ، ولكنهم ينقذون أرواحهم باسم السيد المسيح — بذلك يظل ضمير أبناء « جون بول » نقياً غير مشوب .

ومع ذلك فلست ألوم الإنجليز على إبادتهم للهنود الحمر بهذه الوسيلة . فما دام هذا الشعب قد فرض عليه الفناء ، فمن الأفضل أن يتم ذلك بغير ألم عن طريق بيع الموت فى زجاجة . ولعلك ترى ان منطق الحال يجعل من الطبيعى الظن بأن لابد للإنجليز من مصلحة تجارية تنجم عن منع اليونانيين من زراعة الحشيش ، فلعل هذا النبات مما تنتجه بعض مستعمراتهم .

قال ستافرو :

— لقد فتحت عينى على أمور ما كنت آبه لها . فلقد أرسل إلى بعض عملائى من الأهلين مرتين أو ثلاثاً ، عينات من الحشيش استجلبوها من نوتية بعض السفن الإنجليزية .

— ومن أين تأتى هذه السفن ؟ .

— من بومباى . ولقد أخبرت أن هذه المادة أغلى كثيراً من الحشيش اليونانى ، وإنها تباع فى الهند فى حوانيت خاصة مرخص لها بتقديمه للطلاب .

فأجبته قائلا :

— هذا أشبه الأشياء باحتكار حكومتنا للأفيون فى الهند الصينية . فهى على زعم أنها لا تقدر على منع الأهالى من تعاطى الأفيون الذى اعتادوه على مدى قرون طويلة ، تراها تبيعهم هذا السم بما يوازى قيمته مائة ضعف .

— لعلك محق . فإن العساكر الهنود الرابطين فى ثكنات الإسماعيلية

يدخنون نوعا من الحشيش يوزع عليهم كل أسبوع بانتظام . وإنه لموضوع حقيق بالدراسة ، وجدير بك أن تستكشف كنهه ، مادامت تعمل فى الطريق الموصل إلى الهند .

— سنرى رأينا فى هذا فيما بعد . وفى تلك الأثناء يسرنى لو بقيت على صلة بى ، فتمدنى بكل مايبلغك من معلومات فى هذا الصدد .

لم أكن فى الحقيقة شديد التحمس لأن أزج بنفسى فى هذا المضمار عوداً على بدء . فلو أننى سعيت إلى النجاح فيه ، لوجب على أن أختلط بأناس شد ما يختلفون عنى عقلية وطباعا ، اناس لايفكرون إلا فى الكسب وجمع المال .

لقد كان اكتشاف هذه الأوساط مدعاة للتسلية والدرس ، ولكن لم يعد فيها الآن طرافة تستهوينى ، فما وجه المعاودة من جديد ؟

هكذا كنت أفكر دون أن أدرك قدر ما فى هذا التفكير من غرة وسذاجة . ففى الحقيقة لم أكن قد رأيت إلى ذلك الحين عشر معشار ما تنطوى عليه تلك التجارة الخفية من حيل وأعاجيب . وكان لا يزال على أن أتعلم كل شىء تقريبا ، يتعلق بنظم وأفاعيل تلك المؤسسات الضخمة التى تشرف على تهريب الحشيش فى مصر . هذا ، وقد وضح لى فيما بعد أننى كنت قد انجذبت إلى دوامة تلك اللعبة الخطرة دون وعى منى . فرأيتنى بعد أن مارست مخاطرها التى تثير الحس وتلعب بالوجدان ، عاجزاً عن رد نفسى إلى عيشة السواحل الرتيبة ، ومهامها الصغيرة التى تبعث السأم فى القلوب . فلكى أرود نفسى على تقبل هذه المعيشة كان على أن أكون ذلك الفيلسوف الحصيف الذى استشف غرور الحياة فى مختلف صورها ، وما كنت فى ذلك الحين قد بلغت الأربعين .

أجل ، فقد قدر على أن أظل فى خدمة صانع الأحلام أعواما أخر .

ولكننى لم أعد أتجر فيه باسم الحشيش ، بل باسم « كولوماندو » ، وهى التسمية الرسمية المعتمدة من حكومة الهند . ولقد كان للانجليز فضل توجيه طرفى صوب هذه البلاد ، تاركا لبابا مانولى مهمة لعن السياسة الانجليزية البغيضة . إنه أصبع القدر على الدوام . ولست أدرى إن كنت قد أصبت فى اختيارى ذلك العمل الذى دمغ مستقبلى ، ولكنه على التحقيق قد أتاح لى أن أمارس أعظم مخاطرة صادفتها فى حياتى .

ولعل أمى قد ملأها العجب فى قبرها ، وهى ترقب ما آل إليه مصير ابنها هنرى . ولكننى موقن بأنها ستفهمنى آخر الأمر . ولربما يلوح على شفتيها الروحانيتين ، بين الحين والحين ، بسمة رثاء قد تستحيل إلى تسلية وانبساط .

ولست أطمع فى الإعجاب ، مادمت قد حدت عن طريق تسلكه الأنام ، إلى طريق صانع الأحلام . . .

عام ١٩٤٧

الرسول (حياة محمد)	ر . ف . بودلى	عبد الحميد جوده السحار و محمد محمد فرج
سخريات صغيرة	لأعلام القصة	محمد قطب
الإمام على		عبد الفتاح عبد المقصود
السادهانا	لتاغور	محمد محمد على
أثر التشيع فى الأدب		محمد سيد كيلانى
خرافات إيسوب		مصطفى السقا و سعيد جوده السحار
العدالة الاجتماعية فى الإسلام		سيد قطب
الدكتور حازم		على أحمد باكثير
فى قافلة الزمان		عبد الحميد جوده السحار
زقاق المدق		نجيب محفوظ
أبو ذر الغفارى	الطبعة الرابعة	عبد الحميد جوده السحار
الاشتراكية فى الإسلام (مصدر بيحث)	الطبعة الرابعة	عبد الحميد جوده السحار
رادوبيس	الطبعة الثانية	نجيب محفوظ
شيلوك الجديد (قضية فلسطين)	الطبعة الثانية	على أحمد باكثير



شارع فاروق — تليفون ٥٠٩٣٨

الثمن ١٥٠ مليما

طبع بدار الكتاب العربي بمصر